

د. آمنة البدوي

# شعر النازحين

من الأندلس إلى مصر والشام  
في القرن السابع الهجري  
بين التأثر والتأثير





الأهلية للنشر والتوزيع  
e-mail : alahlia@nets.jo

### الفرع الأول (التوزيع)

المملكة الأردنية الهاشمية ، عمان ، وسط البلد ،  
شارع الملك حسين ، بجانب مطعم القدس - بناية رقم 12  
هاتف : 00962 6 4638688 ، فاكس : 00962 6 4657445

### الفرع الثاني (المكتبة)

عمان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ،  
بجانب البنك المركزي ، مكتب المقاصة - بناية رقم 34

### مكتب بيروت

لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات  
هاتف : 00961 1 824203 ، مقسم 19



### شعر النازحين

تأليف: د. آمنة سليمان البدوي

الطبعة الأولى ، 2009  
حقوق الطبع محفوظة



الغلاف : علي الحسيني 00962 7 99782270 ، عمان ، الأردن

الصف الضوئي : إيمان زكريا - 079/5349156

***All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the publisher.***

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب  
أو أي جزء منه ، بأي شكل من الأشكال ، إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة

د. آمنة سليمان البدوي

# شعر النازحين

من الأندلس إلى مصر والشام  
في القرن السابع الهجري

بين التأثر والتأثير



## الهداء

إلى من ..  
يرصفون الأرض الدماء  
فتنزعُ الأجسادُ  
لكنهم باقون  
كألف نخلةٍ  
يطلعون في أفق السماء  
يبعثون الشمس  
فتشرقُ الأهدابُ بالضياء



## مُقَدِّمَةٌ

شهد القرن السابع الهجري في الأندلس، تبدلات في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، نتيجة للظروف التي داهمت الأندلس من فتن وحروب، فقد تتابع سقوط المدن الأندلسية بصورة مطردة بعد موقعة العقاب سنة (609هـ) التي كانت نذير انحلال الجبهة الأندلسية، فلم يأت الربع الثاني من النصف الثاني من القرن السابع الهجري، إلا وقد سقطت معظم مدن الأندلس، وقد كان لهذه الأوضاع آثارها الاقتصادية والاجتماعية فقد ضيق على الناس، ونفدت الأقوات، وانتشرت الأوبئة، مما كان له أثر يّين في ازدياد موجات الهجرة والنزوح، فقد بدأت موجات الهجرة الداخلية تزداد خاصة نحو مملكة غرناطة إذ كان أهل الأندلس يعيشون حالة من الفزع والاضطراب والقلق.

لم تتسع غرناطة لكل هؤلاء المهاجرين، فكان لا بد من توجه المسلمين إلى خارج الأندلس، فارتحلوا إلى المغرب العربي، والمشرق لإسلامي الذي يقصد به مصر والشام والعراق، لكن توجه المرتحلين إلى العراق كان أقل مقايسة بمصر والشام، نتيجة للاضطرابات والأوضاع غير المستقرة فيه.

استقر المرتحلون إلى مصر والشام في المدن الرئيسية، ولا يعني ذلك أن كل من كانوا بمصر والشام من المرتحلين قد نزحوا بصورة اضطرابية في فترة سقوط المدن الأندلسية، فقد ارتحل بعضهم قبل تغير الظروف في الأندلس بصورة واضحة أو في أثنائها إلا أنه كان في الأغلب نزوحاً نهائياً، فاستقراراً في مدن المشرق، وقد وردت في هذه الدراسة تسميات عدة، هي: النازحون، والمرتحلون، والمُهَجَّرُون والمهاجرون، وكان يقصد بها كل ذلك، مع

غلبة معنى تسمية النزوح عليهم؛ لأن الظروف التي اضطرتهم للخروج إجبارية غالباً، ويدل على ذلك تمني عودتهم إلى الأندلس في معظم أشعارهم ولو كانوا خرجوا برغبتهم، ولو كانت العودة سهلة لما تمنوها.

وقد استخدم في الدراسة لفظ المغاربة وقصد به الأندلسيون لأن الرحالة والمؤرخين والأدباء لم يفرقوا بين من كان منهم مغريباً أو أندلسياً، فأطلق على الأندلسيين المغاربة، ولم يُرد به المغاربة بصورة خاصة.

وقد عنيت هذه الدراسة بتتبع الشعراء المرتحلين في القرن السابع الهجري وجعلت لتراجهم ملحقاتاً خاصاً في نهاية الدراسة، كما عنيت بإبراز محاور شعرهم، وتبين أثر الارتحال فيها من خلال وصفهم للمعطيات البيئية والحضارية في المشرق، وليس معنى هذا أن الدراسة قد عنيت بالشعر المتعلق بالارتحال فقط، وإنما بالشعر الذي قيل في مصر والشام في القرن السابع الهجري، مرتكزة على عناصر عدة لتحديد زمن الشاعر وهو القرن السابع الهجري، والمكان الذي قيل فيه هذا الشعر وهو مصر والشام، وهذه العناصر هي: سنة الخروج من الأندلس، أو اللقاءات بالمؤرخين والأدباء والشعراء المعاصرين في مصر والشام، أو تحديد ذلك من خلال القصائد، أو من خلال علاقاتهم بالملوك أو القواد أو الوزراء المعاصرين من المشاركة. وقد عنيت الدراسة بتتبع هذا الشعر بغض النظر عن الفترة الزمنية التي أقامها الأندلسيون في مصر والشام.

وتحديد فترة الدراسة بالسنوات الواقعة بين (600-700هـ/ 1203-1300م) لا يعني بداية السنوات ونهايتها بصورة حاسمة، فقد تناولت شعراء مرتحلين عاشوا إلى ما بعد القرن السابع الهجري، على أن الباحثة حرصت على عدم دراسة قصائدهم التي حدد زمنها بعد هذه الفترة، إلا إذا حُدِّد تاريخ نظم هذه القصائد بصورة محددة، أو وردت فيها إشارات للشعراء من خلال قصائدهم، تلمح إلى زمن نظمها، فأثير الدين أبو حيان على سبيل المثال توفي سنة (745هـ) لكن أخذت بعض قصائده التي حدد زمن نظمها من خلال الشخصيات التي التقاها، وكان أصحابها ممن عاشوا في القرن السابع الهجري وتوفوا فيه، أو من خلال بعض قصائده ولا سيما قصيدته النحوية التي حدد فيها مدة

إقامته بمصر وهي عشرون سنة، فيكون قد قالها سنة (699هـ)، لأنه ارتحل إلى المشرق سنة (679هـ).

وقد وردت إشارات عند بعض الباحثين إلى الشعراء المرتحلين من خلال دراسات تتعلق بدور الأندلسيين والمغاربة في المشرق، وهي «المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى» لصلاح الدين المنجد، و«الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس الهجري وحتى نهاية القرن التاسع الهجري». لعلّي أحمد، وله كذلك رسالة جامعية (رسالة دكتوراه) اطلعت عليها الباحثة في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق وهي «الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة منذ نهاية القرن الخامس الهجري، وحتى نهاية القرن التاسع الهجري» وقد جاءت الإشارات فيها إلى الشعراء المرتحلين في صفحات قليلة، لأن هذه الدراسات كانت تعنى بدراسة الجانب التاريخي.

استقيت مادة الدراسة من مصادر متنوعة، أبرزها كتب التراجم، والمصادر التاريخية والمشرقية والمغربية، وجاء بعضها مخطوطاً، ولعل أهم المصادر المخطوطة، مخطوطة «عقود الجمان في شعراء هذا الزمان» لابن الشعار الموصللي، التي كشفت عن تراجم شعراء لم ترد في المصادر المطبوعة، كما وجدت فيها مادة شعرية غنية، أنشدها له الشعراء المرتحلون الذين التقاهم في مصر أو الشام، أو أنشدت له ممن روى عنهم، وقد تعرضت بعض المادة الشعرية فيها إلى محو الحروف وعدم وضوحها بفعل الرطوبة، وأشارت الباحثة إلى بعض هذه القصائد لكن لم توردها بسبب عدم وضوح الخط.

وعثرت الباحثة على قصيدة مخطوطة لعلم الدين أحمد بن القاسم المالقي، ضمن مجاميع مخطوطة رقم (3818) في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، وقد وصف الشاعر فيها رحلته إلى المشرق وذكر بعض من التقاهم من العلماء والمحدثين والفقهاء في مصر والشام والعراق.

كما استقيت مادة الدراسة من مصادر مطبوعة منها: «المغرب في حُلَى المغرب» لابن سعيد المغربي، و«الإحاطة في أخبار غرناطة» للسان الدين ابن الخطيب، و«الوافي بالوفيات» للصفدي، و«فوات الوفيات» للكتبي وغيرها من المصادر التاريخية والنقدية، والدواوين الشعرية، والمراجع العربية والأجنبية.

وقد جاءت هذه الدراسة في مدخل وثلاثة فصول عرض المدخل رحلات الأندلسيين إلى المشرق قبل فترة الاضطرابات وفي أثنائها، مبرزاً قيمة ما حملته هذه الرحلات عن المشرق للأندلسيين سماعاً أو قراءة أو مشافهة.

ويتناول الفصل الأول الأوضاع العامة في الأندلس وفي مصر والشام في القرن السابع الهجري، والظروف التي تسببت عن الحروب والفتن وسقوط المدن، كما يتناول الأوضاع في مصر والشام من الجانب الإيجابي من مناح عدة طبيعية وسياسية وعلمية واقتصادية، ومدى تشكيلها عوامل جذب للأندلسيين المرتحلين.

ولم تحدد الدراسة هذه الأوضاع بصورة عوامل محددة، لأن الباحثة لم تعثر على تحديد أسباب الارتحال لكل شاعر بصورة خاصة، وإن كانت هذه الأسباب وردت للقليل النادر منهم، وربما كانت عمومية الأسباب أغنت عن ذكر خصوصيتها، ولا يمكن للدراسة أن تجعل مثل هذا الافتراض قاعدة تبنى عليه نتائج قد تكون غير دقيقة.

ويتناول الفصل الثاني موضوعات شعر النازحين وهي: علاقة الشعراء بملوك المشرق وسلاطينه وكبار رجال الدولة فيه والحنين وشكوى الغربة وتعدد صورها، واستندت الدراسة في إبراز هذه الصور على دراسة هذه الظاهرة في شعر ابن سعيد المغربي، ووصف مدن المشرق والمظاهر الحضارية فيها، والمطارات والمساجلات والمعارضات مع المشاركة، والزهد والتصوف، واللهو والمجون، وموضوعات أخرى متفرقة.

ولا يعني أن الدراسة قد عرضت لكل أشعار المرتحلين بدراسة تفصيلية، بل عرضت محاور عامة؛ لأن الدراسة التفصيلية في كل بُعد من أبعاد هذه المحاور العامة، تحتاج إلى دراسات أخرى تالية، ولعل اتساع المادة وغزارتها تتحكم في عرض الموضوعات، لذلك اكتفت الدراسة بالمحاور العامة والأبعاد الكلية.

أما الفصل الثالث فيتناول الدراسة الفنية لهذا الشعر، من حيث الصورة الشعرية التي حملت دلالات نفوس الشعراء وثقافتهم وظروف عصرهم، والفنون البديعية التي أكثر الشعراء من استخدامها مجازاً لذوق عصرهم، والأسلوب واللغة، وتنوع الشعراء في أدواتهم الفنية، واستفادتهم من معطيات عصرهم وثقافته. والتأثر والتأثير بين المشاركة



والمغاربة، وآراء بعض الأندلسيين في شعر المشاركة، أو آراء المشاركة في شعر الأندلسيين، والمحاورات التي جرت بينهم في ذلك، خاصة ما جرى بين ابن سعيد والبهاء زهير. وبعد، أرجو أن تكون هذه الدراسة قد حققت الغاية منها، وقدمت تصوراً واضحاً عن أوضاع الشعراء المرتحلين، ومحاور شعرهم، وأسهمت في إضاءة جوانب من هذا الشعر الذي غاب الكثير منه، وما زال يحتاج إلى دراسات تكشف عنه، وتدرس محاوره بصورة تفصيلية معمّقة.

والله ولي التوفيق

## مدخل

تستعرض هذه الدراسة بعض رحلات الأندلسيين إلى المشرق، لأهمية ما حملته عن المشرق وظروفه الطبيعية والدينية والاجتماعية والعلمية التي نقلت للأندلسيين سماعاً أو قراءة، وشكلت هذه الظروف عامل جذب، واستعداداً نفسياً للارتحال إلى المشرق، بعد أن استقرت صورته في أذهانهم.

ليس غريباً أن يرنو الأندلسيون بأبصارهم إلى المشرق أرض المنشأ، فالجند الشاميون ظلت قلوبهم متعلقة بالمشرق وبلاد الشام خاصة حتى إن مدن الأندلس حمل بعضها أسماء بلدان المشرق مثل إشبيلية التي سميت حمص، وإلبيرة التي سميت دمشق.

كانت فريضة الحج من أعظم البواعث على سفر الكثيرين من الأندلسيين في كل عام للحجاز، وبعد زيارة الحرمين كان الكثير منهم يقصدون المقامات المباركة كالمسجد الأقصى في القدس، وقبر إبراهيم الخليل، ثم يعرجون على دمشق ومدن أخرى، وفي رجوعهم يقفون بمصر، ثم يتوجهون للفسطاط حيث جامع عمرو بن العاص، وبعدها يقطعون مفازة من برقة إلى طرابلس، ثم إلى تونس فالمغرب.

وكان بعضهم يرتحل إلى المشرق، بقصد الاستطلاع واكتشاف المجهول.

وكثر المرتحلون لتلقي العلم، إذ كان المشرق مركز إشعاع علمي، كما كانت بعض رحلاتهم تجارية أو سفارية.

تتبع الدراسة بعض هذه الرحلات الأندلسية إلى المشرق، مبرزة ما ورد فيها عن مصر والشام خاصة، من معلومات جغرافية طبيعية، أو وصف للأماكن الدينية والحلقات

العلمية، وأحوال الأندلسيين فيهما وأوضاعهم العامة، الأمر الذي ساعد على نزوح أهل الأندلس إلى المشرق.

لعل أشهر المرتحلين من الأندلسيين في أواخر القرن الخامس الهجري، أبو بكر محمد ابن عبدالله بن أحمد بن العربي المعافري قاضي إشبيلية (ت 543هـ)، وكان قد خرج في سن مبكرة بصحبة والده من إشبيلية سنة (485هـ) قاصداً شمال إفريقيا معرجاً على بونة وتونس وسوسة إلى المدن الفلسطينية، وقد سجل أحداث رحلته العلمية الاجتماعية في كتابين، الأول: «ترتيب الرحلة للترغيب في الملة» ولم يعثر إلى الآن على هذا الكتاب، وقد وردت منه نقول في خطبة شواهد الجلة التي نقلها د. حسين مؤنس من مخطوط صورته د. محمد علي مكي من مكتبة القرويين في فاس، يقول ابن العربي عن الخطبة، واصفاً ما جناه من فوائد علمية في المشرق: «لما سبق خيرُ القضاء برحلتني إلى تلك المشاهد الكريمة، وحلولي في تلك المقامات العظيمة، دخلتها والعمرُ في عنفوانه، والغصن مائسٌ بأفئانه ... فَجَنَيْتُ مِنْ كُلِّ شَجَرٍ زَهْرَهُ، وَوَعَيْتُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ دُرَرَهُ، وَكَشَفْتُ عَنْ كُلِّ خَفَاءٍ غَوْرَهُ، وَافْتَقَرْتُ مِنْ كُلِّ فَنٍّ فِقْرَهُ، حَسْبَمَا فَسَّرْتُهُ وَأَوْضَحْتُهُ، وَشَرَحْتُهُ وَبَيَّنْتُهُ، وَقَرَّرْتُهُ وَنَزَّلْتُهُ فِي كِتَابٍ «ترتيب الرحلة للترغيب في الملة»، وذكرت فيه لِقَاءَ الْأَعْيَانِ لَنَا، وَسِيرَ الْفُضَّلَاءِ مَعَنَا، وَلَحْظَهُمْ لِحَانِنَا بِنَاضِرِ التَّعْظِيمِ، وَمُقَابَلَتِهِمْ وَرُودَنَا بِالتَّجَلُّلِ وَالتَّكْرِيمِ.. وَأَتْبَعْنَاهُمْ جُمَلًا مِنْ طَرَائِفِهِمْ، وَتُنْفًا مِنْ فَوَائِدِهِمْ»<sup>(1)</sup>.

أما كتابه الآخر، فهو «قانون التأويل» الذي عثر عليه د. إحسان عباس ضمن مخطوطة بمكتبة الحاج سليم آغا بأسكدار، تحت رقم 498، ونشره في مجلة أبحاث التي تُصدرها الجامعة الأمريكية في بيروت حيث زار ابن العربي في رحلته كثيراً من المدن المشرقية، مصوراً بعض المشاهد من الحياة العامة، ذاكراً من لقيهم من العلماء من محدثين وفقهاء ومتكلمين في مصر، ثم يذكر توجهه إلى الشام، ودخوله بيت المقدس والتقاءه بجماعة من العلماء واصفاً مجالسهم ومناظراتهم، التي تعكس حركة علمية نشطة في بيت

(1) حسين مؤنس: تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1967، ص 406-407.

المقدس<sup>(1)</sup> وقد طالت إقامته في بيت المقدس، يقضي وقته مصلياً بين باب الأخضر وباب حطة<sup>(2)</sup>، أو يخلو للدرس في جانب من الصخرة التي تسمى المائدة بطور زيتا<sup>(3)</sup>، وقد وصف أهل القدس بقلة الفضول، مقارناً إياهم بأهل بلده في وصفه محراب داود بقوله: «شاهدت محراب داود عليه السلام، في بيت المقدس، بناءً عظيماً من حجارة صلدة لا تؤثر فيها المعاول ... ورأيت فيه غريبة الدهر، وذلك أن ثائراً ثار به على واليه وامتنع فيه بالقوت، فحاصره وحاول قتله بالنشاب مدة، والبلد على صغره مستمر على حاله، ما أغلقت لهذه الفتنة سوق، ولا سار إليها من العامة بشر، ولا برز للحال من المسجد الأقصى مُعْتَكِف، ولا انقطعت مُناظرة ولا بطل تدريس، وإنما كانت العسكرية قد تفرقت فرقتين يقتتلون، وليس عند سائر الناس لذلك حركة، ولو كان بعض هذا في بلادنا، لاضطربت نار الحرب في البعيد والقريب، ولانقطعت المعاش وغلقت الدكاكين، وبطل التعامل، لكثرة فضولنا وقلة فضولهم»<sup>(4)</sup>.

وقد زار ابن العربي كثيراً من مدن فلسطين وقراها، ونقل بعض صور الحياة العامة فيها، مثل نابلس التي أقام فيها شهراً ووصف حال نسائها، حيث قال: «ولقد دخلت نيفاً على ألف قرية من بريّة، فما رأيتُ أصونَ عيالاً ولا أعفَ نساءً من نساء نابلس التي رمي فيها الخليل عليه السلام بالنار، فإني أقمت فيها شهراً، فما رأيت امرأة في طريق نهاراً إلا يوم الجمعة، فإنهن كنَّ يخرجن إليها حتى يمتلئ المسجد منهن، ... وسائر القرى ترى نساؤها متبرجات بزينة...»<sup>(5)</sup>.

(1) إحسان عباس: رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها «قانون التأويل»، مجلة الأبحاث، تصدرها الجامعة الأمريكية، بيروت 1968، السنة 21، الأعداد (2-4)، انظر ص 79-85.

(2) أبو بكر ابن العربي: أحكام القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء التراث، القاهرة، 1957م، 3/ 1297.

(3) أحكام القرآن، 2/ 524.

(4) أحكام القرآن، 3/ 1586.

(5) المصدر السابق، ص 1523.



ومن المرتحلين أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله الإدريسي (493-564هـ) الذي طاف الأندلس وشمال إفريقيا، ثم رحل لتأدية الحج إلى بيت الله الحرام، فزار مصر والحجاز، مدوناً مشاهداته في رحلته الموسومة بـ «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» مستعيناً بما أفاده من رحلاته الخاصة، وبما قيده من أحاديث الرحالة والتجار والحجاج، مصوراً العلاقة بين بلدان المشرق والأندلس لا سيما مصر والشام<sup>(1)</sup>.

ويرتحل بنيامين التُّطيلي (-569هـ) في النصف الثاني من القرن السادس الهجري إلى الشرق الإسلامي، بدافع الاطلاع الشخصي، مورداً معلومات عن اليهود وواصفاً أحوالهم في كل مدينة زارها، ومتنقلاً بين المدن العامرة، والقرى الزاهرة في سوريا ولبنان، ولا يفوته زيارة أضرحة الصحابة والأتقياء ومقامات الصالحين وينقل بعض القصص والروايات التي سمعها من تجار العرب<sup>(2)</sup>.

ومن أبرز الرحلات في أواخر القرن السادس وأوائل السابع الهجري رحلة ابن جبير البليسي الغرناطي (ت 614هـ) الذي ارتحل إلى المشرق ثلاثاً، وحج في كل واحدة منها، حيث ترك غرناطة سنة 578هـ، ثم عاد إلى وطنه سنة 581هـ، وقد نقل ما شاهده في هذه الرحلة من عجائب البلاد، وغرائب المشاهدات، ولما شاع الخبر بفتح بيت المقدس على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي، قوي العزم عنده في الارتحال ثانية سنة 585هـ، ثم عاد سنة 587هـ، منقطعاً للحديث والتصوف، ثم رحل ثالثة سنة 614هـ، فوصل مكة وانتقل إلى مصر والإسكندرية، وتوفي في العام نفسه<sup>(3)</sup>.

وتحوي هذه الرحلة معلومات اقتصادية وبشرية وطبيعية واجتماعية، وتعطي صورة عن المغاربة في بلاد الشام، خاصة عن أوضاعهم العامة، كما عرض للحديث عن معاملة

(1) انظر صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق، مطبعة بريل، لُندن 1968، الصفحات 14-22، 37-50، 136-164، 197.

(2) انظر: رحلة بنيامين التُّطيلي، قدم لها عزرا حداد، بغداد 1945، مقدمة المحقق.

(3) أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الملك الأوسي المراكشي: الذيل التكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1965، ج 5/2، ق 605-606.

حجاجهم، رافعاً قصيدة إلى صلاح الدين بهذا الشأن، وتتبدى قيمة هذه الرحلة في أن معلوماتها دونت بأمانة، بعد مشاهدة صاحبها كل من وصفه، كما تتجلى فائدتها في أنها تُعرّف الطريق البحري الذي يسلكه الأندلسيون إلى المشرق، وقد وصفه ابن جبير بدقة، معرفاً بالموانئ المهمة التي أدت دوراً كبيراً في الاتصال بين الشرق والغرب<sup>(1)</sup>.

ومن أهم رحلات القرن السابع الهجري، رحلة ابن سعيد المغربي، الذي غادر الأندلس وهو في التاسعة والعشرين، ووصل الإسكندرية سنة 638هـ، وتنقل بين المغرب وتونس ومصر والشام، وقد رأى في تجواله في تلك الأقاليم الإسلامية، كثيراً من العادات التي لم يألفها في الأندلس، ولم يقف عن تلك العادات في المجتمع الشرقي، بل سجل مشاهداته ووازن بينها وبين المجتمع الأندلسي، فالفسطاط في القرن السابع الهجري كما رآها كانت مُغبرة الآفاق، غير مستقيمة الشوارع، بيوتها مبنية بالطوب، ضيقة الأسواق، والناس يلتهمون الطعام في الطرقات غير محتشمين، وقد نقل ابن سعيد صوراً من الحياة في أحياء القاهرة والفسطاط، واصفاً الولايم ومجالس اللهو والطرب، تاركاً نفسه على سجيّتها، لا تفوته اللمحات الذكية عند بعض المشاهد<sup>(2)</sup>.

وتكمن قيمة هذه الإشارات السريعة للرحلات الأندلسية، في أنها تدل على دور الرحلات في نقل جوانب مضيئة مفصلة، تتصف بالدقة والأمانة عن بلدان المشرق، وخاصة أن بعض الأندلسيين ارتحلوا غير مرة، مما أتاح لهم أن يُسجلوا انطباعاتهم، ويصفوا مشاهداتهم وينقلوها إلى الناس بصورة حية.

وكرّرت كذلك رحلات العلماء والمحدثين والأطباء على المشرق، بصورة يصعب حصرها، فقد كانوا أمثلة واقعية تؤكد استمرارية الاتصال بين المشرق والمغرب.

(1) انظر: رحلة ابن جبير، دار صادر ودار بيروت، بيروت 1959، 13، 14، 30، 46، 54، 256، 258، 280.

(2) ابن سعيد المغربي: المغرب في حُلَى المغرب، القسم الخاص بمصر، قدم له زكي حسن وآخرون، مطبعة فؤاد الأول، مصر 1953، انظر ص 4-12.

## الفصل الأول

# الأوضاع العامة في الأندلس ومصر والشام

### توطئة

يدرس هذا الفصل الأوضاع العامة في الأندلس وفي مصر والشام، وما يتعلق بهما من ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وطبيعية وعلمية، حيث تتضح من خلال دراسة تلك الظروف العوامل غير المباشرة التي أدت إلى الارتحال من الأندلس، والاتجاه إلى مصر والشام. ولعل عدم تحديد الدراسة لتلك الظروف بصورة عوامل محددة واضحة للارتحال إلى مصر والشام، يرجع إلى عدم توافر أخبار شاملة عن أسباب الارتحال لمعظم الشعراء بصورة خاصة لكل منهم. وإن كانت وردت بعض أسباب الارتحال للقليل منهم بصورة خاصة، لا تكفي لجعلها عامة لمعظم الشعراء، وربما كانت عمومية الأسباب أغنت عن ذكر خصوصيتها لكل شاعر من الشعراء، ولا تستطيع الدراسة أن تجعل مثل هذا الافتراض قاعدة تبنى عليه نتائج قد تكون غير دقيقة.

### الأوضاع العامة في الأندلس

ويقصد بها الظروف والتبدلات في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والأحوال التي كانت تمر بها الأندلس في القرن السابع الهجري، بسبب الفتن وسقوط المدن، وتأثيراتها في أوضاع المسلمين وتشكيلها عوامل سلبية لهم.

## أ- الظروف السياسية

ضعف أمر الموحدين، وكثرت الفتن والثورات الداخلية، وقد بذل الموحدون ما استطاعوا، لكنهم كانوا أصحاب امبراطورية واسعة، تمتد حدودها من طرابلس شرقاً إلى مشارف المحيط الأطلسي غرباً، وكان من المستحيل أن يستمروا يحاربون في جبهات ممتدة، ولعل الجبهة الأندلسية كانت أضعف جبهاتهم، وأشدّها خطراً، لكثرة الحروب والفتن المتوالية في الأندلس، وقد تماسكت هذه الجبهة بعد توضّحات كثيرة<sup>(1)</sup>، تداعت أيام محمد الناصر بن المنصور يعقوب بن يوسف عبد المؤمن (595-610هـ) في موقعة العقاب التي وقعت سنة 609هـ<sup>(2)</sup> وكانت هزيمة المسلمين في هذه الموقعة نذير انحلال الجبهة الدفاعية الموحدة، ونذير انهيار الأندلس ذاتها، وقد عجّل بهذا الانهيار ما اضطرت به الأندلس من ثورات جديدة، بددت قواها في حروب أهلية، ومنافسات على الزعامة، كان لها آثارها السيئة في تفكك وحدة الأندلس وسقوط قواعدها الواحدة تلو الأخرى<sup>(3)</sup> كما سنرى.

تولى الحكم بعد وفاة الناصر ابنه المستنصر يوسف (611-620هـ) فأدخل وهناً جديداً على الدولة بسبب انهماكه في ملذاته<sup>(4)</sup>. وتولى بعده عمه المستضيء عبدالواحد بن يوسف بن عبد المؤمن، ولم يكن أقل منه انشغالاً بالتنعم، ثم خلع وقتل، وملك بعده ابن أخيه عبدالله بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بالعدل، الذي استأثر بالخلافة عنوة، ولما انتهى إلى أبي العلاء إدريس صاحب الأندلس، وكان يتولى قرطبة خبر أخيه

(1) ابن الأبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي، الحلة السيرة، تحقيق د. حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، ط1، 1963، 1/21 من المقدمة.

(2) العقاب Navas de Tolosa، بالأندلس بين جيّان وقلعة رباح، كانت في هذا الموقع وقعة عظيمة انجلت عن هزيمة المسلمين سنة 609هـ. عبدالمنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1984، ص416.

(3) محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ط1، 1964، 2/591.

(4) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل: المختصر في أخبار البشر، المكتبة الحسينية، القاهرة 1325هـ/ 1907م، 3/133.



العادل وما في خلافته من الاضطراب، دعا لنفسه بإشبيلية فبوع بها، وأجابه أكثر أهل الأندلس وتلقب بالمأمون سنة (624هـ) <sup>(1)</sup>.

لم يوفق المأمون إلى حكم أقل اضطراباً من حكم أخيه، فدق كان يحكم بيد من حديد، وحاول تحطيم نظامي الخمسين والسبعين اللذين أنشأهما أمراء الموحدين وفقاً لتعاليم المهدي، وجعلها هيئتين استشاريتين فقط، وقد أدت هذه السياسة الصارمة في المغرب، إلى خروج الأندلس من قبضة الموحدين <sup>(2)</sup>، وقيام الثورات والحروب الأهلية، حيث نادى النظامان ببطلان حكومة المأمون، وتولية أبي زكريا يحيى ابن الخليفة السابق محمد الناصر، وهو صبي في الرابعة عشرة من عمره، وأرسلوه إلى الأندلس لمحاربة المأمون وإسقاطه، فهزمه المأمون في معركة شديدة نشبت بينهما <sup>(3)</sup> قرب شذونة <sup>(4)</sup> وانتهز النصرى فرصة الحرب الأهلية بين المسلمين للقيام بغزوات عديدة، وعبروا الحدود الإسلامية، فتحول المأمون إلى محاربتهم واسترجع بعض الحصون <sup>(5)</sup>.

وقد ابتليت الأندلس في أثناء تولية الحكام الضعاف من الموحدين بالثورات والحروب والفتن الداخلية، فقد قام عبدالله البياسي سنة 623هـ بالأندلس، وكان العادل قد ولاه قرطبة، فخلع دعوة العادل، وخرج عن طاعة الموحدين مستعيناً بالنصارى عليهم، ودلّهم على عورات البلاد، فتملكوا الأموال، وحاصر إشبيلية، وقتله أبو العلاء إدريس المأمون وهزمه <sup>(6)</sup> بعد أن استمرت ثورته ثلاثة أعوام، تنشر الاضطراب والدمار

(1) الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، 2/207-208.

(2) علي ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط 1972، ص 253-254.

(3) محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين، 2/106.

(4) شذونة (Sidona): كورة جليلة القدر، متصلة بكورة مورور، لجأ إليها أهل الأندلس سنة 136هـ، جامعة لخيرات كثيرة، الروض المعطار، ص 339.

(5) عنان: عصر المرابطين والموحدين، 2/106.

(6) ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، عني بنشره أمبروسي هويسبي مراندة بمساهمة مع محمد بن تاويت، دار كرياديس للطباعة، تطوان، المغرب 1960، ق3، ص 250.

في أواسط الأندلس، وتمهد للنصارى اقتطاع القواعد والحصون شرقي قرطبة، مما أضعف خطوط الدفاع عنها، ومهد لسقوطها<sup>(1)</sup>. وقام أبو جميل زيان بن مردنيش ببلنسية واستقل بحكمها، بعد أن طرد الموحدون منها، وبينما انحصرت حركة زيان ببلنسية، وإذا بدعوة محمد بن يوسف بن هود الجذامي سنة (626هـ) تحتاح مرسية وألمرية<sup>(2)</sup> وغرناطة ومالقة<sup>(3)</sup> وبطليوس<sup>(4)</sup>، وأعلن نفسه أميراً على مرسية، وخطب للعباسيين، ودانت له جيّان<sup>(5)</sup> وقرطبة، ثم فقد الموحدون غرناطة، فثارت بلاد الأندلس على المأمون، ثم انقادت له، وخرجت بذلك عن ملك الموحدون عدا إشبيلية والجزيرة الخضراء<sup>(6)</sup> على أن جهود ابن هود تلك، اصطدمت بمطامع الإسبان من ناحية، ومطامع الرؤساء الأندلسيين من ناحية أخرى<sup>(7)</sup>، وانتهى الأمر باغتياله في مرسية سنة 635هـ<sup>(8)</sup>.

(1) عنان: عصر المرابطين والموحدين، 2/ 361.

(2) ألمرية (Almeria): مدينة أمر ببنائها أمير المؤمنين الناصر لدين الله سنة 344هـ، وكانت في القرن السابع أشهر مراسي الأندلس وأعمرها، ولما ملكها الروم غيروا محاسنها وسبوا أهلها، وخربوا ديارها، الروض المعطار، ص 538.

(3) مالقة (Malaga): مدينة عامرة من أعمال رية، سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية يحمل منها التين الذي اشتهرت به مصر والشام. عبد المؤمن بن عبدالحق البغدادي صفى الدين: مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، 3/ 1221. الروض المعطار، ص 517-518.

(4) بطليوس (Badajoz): من إقليم ماردة، بناها عبدالرحمن بن مروان، مدينة جلييلة في بسيط من الأرض لها روض كبير في شرقيها، ياقوت بن عبدالله الحموي: معجم البلدان، دار صادر بيروت، 1/ 447، الروض المعطار، 93.

(5) جيّان (Jean): مدينة كثيرة الخصب، اشتهرت باللحوم والعسل، وغللات القمح والشعير، قريبة من بياسة، كثرت فيها العيون والينابيع. الروض المعطار، ص 183.

(6) الجزيرة الخضراء (Algeciras): مدينة حصينة رفيعة، كانت بها دار صناعة السفن، جامعة لفوائد البر والبحر، لأنها وسط الساحل، وأقرب مدن الأندلس إلى العدو. الروض المعطار، 223/ 355-356.

(7) السيد عبدالعزيز سالم، وأحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1993، 2/ 285.

(8) الروض المعطار، ص 355-356.

وقام في أرجونة<sup>(1)</sup> محمد بن الأحمر سنة (629هـ) بعد صراعات شديدة بينه وبين ابن هود، واستطاع دخول غرناطة<sup>(2)</sup>، وإيقاع هزائم بابن هود، كان آخرها سنة (633هـ)<sup>(3)</sup>، كما استطاع أن يضم إلى سلطانه مدائن عدة هي: وادي آش<sup>(4)</sup> وباجة<sup>(5)</sup> وجيان.

وقد أدى استمرار الأحقاد والمنافسات بين الأمراء الثلاثة (ابن زيان، وابن هود، وابن الأحمر)، إلى كثرة الاضطراب في كل ناحية، واختلال الأمن، وسادت الفرقة وتفاقم خطرهما<sup>(6)</sup>، وبدأت الأندلس كلها من مرسية إلى إشبيلية مكشوفة أمام أعداء يتربصون بها، وينتظرون فرصة للتقدم والاستيلاء على البلاد، وقد سار التقدم النصراني ابتداءً من العقد الثالث من القرن السابع الهجري بتيارات ثلاثة: الأول وجهته غرب الأندلس وتولاه أمراء البرتغال، والثاني وجهته حوض 'الوادي الكبير'<sup>(7)</sup> وتولاه ملوك قشتالة، والثالث وجهته شرق الأندلس وتولاه ملوك أرغون، وكانت هذه الجبهات تقف صفاً قوياً أمام المسلمين، بالإضافة إلى تميز ملوكها بالقدرة السياسية، والتصميم على حرب المسلمين<sup>(8)</sup>. فعلى سبيل المثال، كان توحيد ليون وقشتالة عام 1230م مجدياً زمن الملك فرديناند

(1) أرجونة (Arjona): بلد من ناحية جيان، معجم البلدان، ص 144.

(2) علي بن أبي زرع الفاسي: الذخيرة السنية في الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة، الرباط 1972، ص 57.

(3) لسان الدين ابن الخطيب: تاريخ إسبانيا الإسلامية، (أعمال الأعلام)، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ط 2، 1956، 279/2.

(4) وادي آش (Guadix): مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة، كبيرة خطيرة وتشتهر بكثرة التوت والأعنان والثمار، ينحط نهرها من جبل شلير، الروض المعطار، ص 604.

(5) باجة (Beja) من أقدم مدائن الأندلس، وأقدمها بنياناً واختطاطاً، وهي من الكور المجندة التي نزلها جند مصر، الروض المعطار، ص 75.

(6) ضياء باشا، الأندلس الزاهية، تعريب عبدالرحمن أرشيدات، راجعه د. صلاح أرشيدات، وزارة الثقافة، عمان - الأردن، 1989، 83/3.

(7) حوض الوادي الكبير (R'io Guadalquivir) الوادي الكبير من الأندلس أيضاً، نهر قرطبة، نهر قرطبة الأعظم، النهر الكبير. الروض المعطار، 121، 284، 349، 383، 447، 458.

(8) الحلة السيرة، المقدمة ص 25.

(1217-1252م) لأنه استطاع استثمار هذه الوحدة في حصص الكثير من الانتصارات على المسلمين، ولولا فاته، لما بقيت غرناطة في أيدي المسلمين مدة أطول<sup>(1)</sup>، ولم يأت النصف الثاني من القرن السابع الهجري حتى كانت ولايات الأندلس الشرقية والوسطى قد سقطت كلها في يد الإسبان، ولم يبق سوى بضع ولايات صغيرة في طرف إسبانيا الجنوبي<sup>(2)</sup> فقد استولوا على تطيلة<sup>(3)</sup> سنة (612هـ)، وعلى لوثة<sup>(4)</sup> (622هـ) وماردة<sup>(5)</sup> (626هـ)، وسقطت جزيرة ميورقة<sup>(6)</sup> (627هـ) وأبدة<sup>(7)</sup> (631هـ) ثم تلتها قرطبة (633هـ)، وبياسة<sup>(8)</sup>، وإستجة<sup>(9)</sup> والمُدور<sup>(10)</sup> (634)، وبلنسية (636هـ)، وشاطبة<sup>(11)</sup>

- (1) Atkinson, William, C. A history of Spain and Portugal, Harmandsworth, Penguin books, Reprinted, 1967, p. 79.
- (2) محمد عبدالله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين (دولة الإسلام العصر الرابع)، مطبعة مصر، ط2، 1958، ص16.
- (3) تطيلة (Tudela): مدينة شرق قرطبة، من أكرم الثغور، تجود فيه الزراعة، لخصب تربتها، مراد الاطلاع، 1/ 264. الروض المعطار، ص133.
- (4) لوثة (Loja): من أقاليم البيرة، على نهر غرناطة، معجم البلدان، 5/ 26. الروض المعطار، ص513.
- (5) ماردة (Merida): مدينة بجوفي قرطبة، منحرفة إلى المغرب قليلاً، من أعمال غرناطة، وهي مدينة كثيرة الرخام عالية البنيان تقصد للفرجة والتعجب، معجم البلدان، 5/ 38. الروض المعطار، ص518.
- (6) ميورقة (Mallorca): جزيرة في شرقي الأندلس تقع بالقرب منها جزيرة يقال لها منورقة، وشرقها تقع جزيرة سردانية، معجم البلدان، 5/ 246. الروض المعطار، ص567.
- (7) أبدة (Ubeda): مدينة من كورة جيان، على مقربة من النهر الكبير فيها مزارع وغلل، وقمح وشعير، مالت عليها جموع النصرانية في موقعة العقاب 609هـ، وقتلوا الكثير من أهلها. معجم البلدان، 1/ 64. الروض المعطار، ص6.
- (8) بياسة (Baeza): مدينة كبيرة من مدن الأندلس، معدودة في كورة جيان، تطل على النهر الكبير المنحدر إلى قرطبة مستغلات الزعفران بها كبيرة. معجم البلدان، 1/ 518. الروض المعطار، ص121.
- (9) إستجة (Ecija): كورة بالأندلس متصلة بأعمال رية، بين القبلة والمغرب من قرطبة على نهر غرناطة، معجم البلدان، 1/ 174. الروض المعطار، ص53.
- (10) المُدور (Almodovar): حصن مشهور بالأندلس بالقرب من قرطبة، معجم البلدان، 5/ 77.
- (11) شاطبة (Jativa): مدينة شرقي الأندلس، وشرقي قرطبة، قرية من جزيرة شقر، كريمة البقعة كثيرة الثمر، معجم البلدان، 3/ 309. الروض المعطار، ص337.



ودانية<sup>(1)</sup> (638هـ)، ولقنت<sup>(2)</sup> وأوريولة<sup>(3)</sup> وقرطاجنة<sup>(4)</sup> (640هـ)، ومرسية (641هـ) وجيان 644هـ ثم إشبيلية (646هـ)، واجتاحت غرب الأندلس في الوقت نفسه، موجة مماثلة للغزو النصراني، فسقطت بطليوس، وشتتمرية الغرب<sup>(5)</sup> سنة (647هـ) وولبة (أُونْبة)<sup>(6)</sup> (655هـ) وشَلْب<sup>(7)</sup> وطَلْبيرة<sup>(8)</sup> (659هـ) ثم سقطت قادس (660هـ)، وتلتها شريش<sup>(9)</sup> (662هـ)، وهكذا...

ولما تفاقم عدوان القشتاليين وضغطهم، لم ير ابن الأحمر مناصاً من أن يخطو خطوة جديدة في مهادنة ملك قشتالة، فتنازل له في أواخر سنة (665هـ)، عن عدد كبير من البلاد والحصون، منها شريش، وقيل إن ما تنازل عنه بلغ أكثر من مائة موضع، معظمها

- 
- (1) دانية (Denia): مدينة من أعمال بلنسية على ضفة البحر شرق الأندلس، كثيرة التين والعنب واللوز، معجم البلدان، 2/ 434. الروض المعطار، ص 231-232.
- (2) لقنت (Alicante): بلدة قريبة من دانية، لها قصبة منيعة جداً، كثيرة التين والأعناب. الروض المعطار، ص 511.
- (3) أوريولة (Orihuela): حصن بالأندلس من كور تدمير، تتصل بساتينها ببساتين مرسية، وتمتاز هذه المدينة بقدمها فهي قاعدة العجم وموضع مملكتهم. معجم البلدان، 1/ 280. الروض المعطار، ص 67.
- (4) قرطاجنة (Cartagena): مدينة قريبة من أَلْشَى من أعمال تدمير، قديمة بها ميناء ترسي فيه المراكب، تمتاز بالخصوبة وعذوبة الماء. معجم البلدان، 3/ 323. الروض المعطار، ص 462.
- (5) شتتمرية الغرب (Santa Mariade de Algarve): مدينة تعد من أتقن الحصون في الأندلس، كثيرة الأعناب والتين، تكثر فيها المراكب واردة وصادرة، معجم البلدان، 3/ 367. الروض المعطار، ص 347.
- (6) ولبة، أونبة (Huelva)، من مدن جبل العيون بالأندلس، وهي مدينة ممتعة بين جبال ضيقة قديمة فيها آثار الأول، وهي برية بحرية. الروض المعطار، ص 63.
- (7) شَلْب (Silves): مدينة تقع قبلي مدينة باجة، غرب الأندلس، اشتهرت بأشجار التفاح، سكان قراها عرب من اليمن. معجم البلدان، 3/ 357. الروض المعطار، ص 342.
- (8) طَلْبيرة (Talavera): مدينة من أعمال طليطلة، كبيرة قديمة البناء، كانت حاجزاً بين المسلمين والفرنج إلى أن استولى الفرنج عليها. معجم البلدان، 4/ 37، الروض المعطار، ص 395.
- (9) شَريش (Jerez): مدينة كبيرة من كور شَذُونَة، على مقربة من البحر، يجود زرعها، تطوف بها الكروم وشجر الزيتون والتين، معجم البلدان، 3/ 340. الروض المعطار، ص 340.

غرب الأندلس<sup>(1)</sup>. ولم يبقَ بيد العرب المسلمين سوى غرناطة وضواحيها، يحكمها بنو الأحمر.

ولم يقتصر الأمر على الاحتلال والاستيلاء على المدن، إنما ترتب عليه إجراءات قاسية، فحينما دخل الأذُنش ميورقة بعد معارضة شديدة من أهلها سنة (627هـ) جرى القتال في الشوارع والميادين، وقتل الكثير من أهلها وطردها، واغتصبت أراضيها بطريق الإقطاع، وانتهى الأمر بخضوعها<sup>(2)</sup>.

وحينما استولى الإسبان على ألبدة (631هـ) قتلوا وسبوا أهلها واستلبوا أموالها<sup>(3)</sup>، وتلاه الاستيلاء على قرطبة (633هـ) واقتحامها، في الوقت الذي كان فيه ابن هود يعسكر بقواته غير بعيد عنها، ولم يتقدم لنجدتها، ولم يحاول استدعاء ابن الأحمر لمعاونته، لانشغالها بخلافاتها وتنافسها على السلطان، في الوقت الذي صمدت فيه قرطبة ستة أشهر، واستبسل أهلها في الدفاع عنها<sup>(4)</sup> وكان هذا الوقت كافياً لوصول قوات أحدهما، لكنهما قدماها هدية سائغة للأعداء<sup>(5)</sup>، فحل اليأس لدى أهلها مكان القوة والبسالة وأخذ النصارى يشددون في حصارها<sup>(6)</sup>، حتى نضبت مواردها وملكوها<sup>(7)</sup>. وقد جعلها الفرنج حصناً، بعدما كانت جنة زاهرة، وروضة ناضرة، فأهملوا ترعها وخلجانها فأصبحت مروجها خالية، لا يقطنها أحد<sup>(8)</sup>.

(1) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام، العصر الرابع، ص 41-42.

(2) أشباخ: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ص 419. الأندلس الزاهية، 3/ 71.

(3) عبدالواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، صححه وعلق على حواشيه محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط 1، 1949، ص 322.

(4) أشباخ: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ص 430.

(5) أحمد فكري: قرطبة في العصر الإسلامي تاريخ وحضارة، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، ص 151.

(6) أشباخ: تاريخ الأندلس، ص 433.

(7) البيان المغرب، ق 3، ص 323.

(8) محمد لبيب البتونوي: رحلة الأندلس، مطبعة الكشكول، القاهرة، ط 1، 1927، ص 45.

وضاعف النصرارى جهودهم فى التضيق على بلنسية إرهابها<sup>(1)</sup>، يضربون أسوارها وأبراجها بالآلات الثقيلة<sup>(2)</sup>، وقد طال عليها الحصار واشتدت وطأته وبلغ بأهلها الإعياء مبلغاً، حتى اضطروا إلى تسليمها سنة (636هـ)<sup>(3)</sup> ولم يلتزم الفرنج بما تعهدوا به فى معاهدة التسليم، بعدم التعرض للمسلمين، إذ يروى أحد مؤرخيهم معترفاً بهذه الحقيقة فيقول: «مما يبعث على الأسف الشديد والعجب أن تقرر هذه الحقيقة من أن الإسبان قليلو العهد والذمام، غدارون لا يرحمون الضعيف، ولا يغيثون اللاجئ، وأنهم مجردون من كل مثل إنسانية، ولذلك فإنهم لم يلتزموا بالوفاء بما تعهدوا به فى معاهدة تسليم بلنسية حسبما تعودوا عليه، فحالاً نقضوا كل ما فيها من العهود، وبدأوا يعاملون الضعفاء بأشد ضروب الانتقام، وانهمكوا بسفك الدماء»<sup>(4)</sup>.

#### ب- الظروف الاقتصادية

لا بد من عرض سريع لأحوال الأندلس الاقتصادية المزدهرة التى سبقت تردّي الأوضاع فيها، لتبين أثر لحروب والفتن على الأوضاع الاقتصادية.

فقد تميزت الحياة الاقتصادية فى الأندلس بالثراء والازدهار، فى فترة ممتدة سبقت الاضطرابات والفوضى وانعدام الأمن التى سببها سقوط المدن الأندلسية المتتابع بعد موقعة العقاب.

امتازت الأندلس بخصائص طبيعية ومناخية، جعلت مدنها تنتج معظم أنواع الزروع والثمار، فقد استطاع المسلمون استغلال الأراضي الزراعية، فشقوا الأنهار، وحفروا الترع وأجروا الخلجان، وسيروا إليها الماء<sup>(5)</sup>، فقد كانت للعرب معرفة بأنظمة

(1) الزركشي: أبو عبدالله محمد بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدة والحفصية، تحقيق وتعليق: محمد ماصور، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1966، ص27.

(2) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص424.

(3) عنان: عصر المرابطين والموحدين، 2/ 449.

(4) الأندلس الذهبية، 3/ 96.

(5) رحلة الأندلس، ص149.

الري ومصادرها المختلفة، سواء كانت من الأمطار، أو النهار أو الجداول، وملاءمة كل نوع من المياه، لنوع خاص من النبات، فقد تكون بعض أنواع المياه جيدة لنباتات مضرّة لأخرى، ولجأوا للحفر لاستخراج المياه الجوفية لعدم كفاية مياه الأمطار والأنهار، مما جعل عندهم معرفة علمية بميزات التربة التي تحتوي على مياه عذبة، ومدى صلاحيتها للزراعة أو الرعي<sup>(1)</sup>.

وقد جاب الإدريسي هذه البلاد، قبيل منتصف القرن السادس الهجري، ذاكراً جميع المدن والموانئ والقرى، وما تشتهر به من المحاصيل الزراعية، والمنتجات الصناعية والمعدنية، علاوة على نشاطها التجاري مع غيرها من البلدان، فقد اشتهرت مدينة شنتمرية الغرب بالأعناب والتين، وتميزت شلب بنوع متميز من التين وعرفت إشبيلية بزراعة شجر الزيتون<sup>(2)</sup>، الذي قامت عليه تجارة الزيت، كما انفردت بإنتاج القطن والعسل<sup>(3)</sup>، وكانت تزرع في بلنسية الفاكهة بأصنافها، إذ كانت دورة الزراعة السنوية فيها ثلاثية، كما أنها تنتج أنواع الزراعات المختلفة سنوياً مثل الذرة والدخن والأرز<sup>(4)</sup> وتنتج أقاليمها أشجار الزيتون ويوجد فيها القمح والكتان<sup>(5)</sup>.

وفي طليطلة بساتين ورياض وفواكه مختلفة الطعوم والألوان<sup>(6)</sup>، أما جيّان فامتازت بتربيتها لدودة القز، وإنتاج العسل<sup>(7)</sup>.

---

(1) Imamuddin, S.M.: Economic history of Spainual Umayyad, Asiatic of Pakistan- Dacca, 1963, p. 75.

(2) القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من نزهة المشتاق، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983، ص 266-264.

(3) ابن غالب، محمد بن أيوب، قطعة من فرحة النفس، نشرت في مجلة معهد المخطوطات، القاهرة 1955، المجلد الأول، 1/ 292-293.

(4) رحلة الأندلس، ص 149.

(5) قطعة من فرحة الأنفس، ص 285.

(6) القارة الإفريقية والأندلس، ص 276. ابن الوردي، سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، مطبعة الباي الحلبي، مصر، ط 2، 1939، ص 27.

(7) القارة الإفريقية والأندلس، ص 296.

وامتازت مناطق غرناطة بالغنى والخصوبة، حيث كانت تزرع فيها أشجار اللوز والعنب تسقيها جداول كثيرة، تنحدر من جبال غرناطة المرتفعة، وقد ازدادت زراعتها وتطورت حينما ازداد عدد السكان الوافدين من المناطق الأخرى بسبب الهجرات<sup>(1)</sup>.

وقد عرفت بعض المدن باستخراج المعادن الثمينة كالياقوت الأحمر في بعض مناطق مالقة<sup>(2)</sup>، واللؤلؤ بناحية برشلونة<sup>(3)</sup>، والمرجان الذي يستخرج من بحر الأندلس<sup>(4)</sup>، كما تكثر في مدن الأندلس معادن القصدير، والكحل والرصاص والنحاس والحديد والكبريت الأحمر والأصفر<sup>(5)</sup>، والزئبق في قرطبة<sup>(6)</sup>، والذهب والفضة في إلبيرة<sup>(7)</sup> ومرسية<sup>(8)</sup>.

وقد كان توافر المواد الخام الزراعية والمعدنية من العوامل التي ساعدت على ازدهار الصناعة، فالقطن والكتان والحريز متوافرة بسبب التربة الخصبة، وكذلك وجود الثروة الحيوانية التي لا توفر اللحم والحليب فقط، بل والصوف الضروري لصناعة النسيج والملابس، كما أن المعادن متوافرة ومتنوعة بالإضافة إلى جهود العاملين، وتنوع المهارات،

---

Bertrand Louis: The history of Spain, Printed in Eyre & Spottiswoode, London, (1) first publisher 1934, p. 137.

(2) أبو عبيد البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق: عبدالرحمن الحججي، دار الإرشاد، بيروت، ط1، 1968، ص126.

(3) المصدر السابق، ص129. برشلونة (Barcelona): مدينة للروم تقع على البحر وهي دار مُلك الإفرنجية، يكثر بها اليهود، الروض المعطار، ص86-87.

(4) البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا، ص129.

(5) المصدر السابق، ص129-130.

(6) القارة الإفريقية الأندلس، ص307.

(7) إلبيرة (Elvira): من كور الأندلس التي نزلها جند دمشق، تقع بين القبلية والشرق من قرطبة، كثيرة الأشجار والأنهار من مدنها غرناطة، معجم البلدان، 1/ 244. الروض المعطار، ص28.

(8) الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد: المسالك والممالك، تحقيق: محمد عبدالعال، مراجعة: شفيق غربال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة 1961، ص36.

ووجود مهندسين ذوي خبرات عالية، ومعرفة دقيقة باحتياجات كل صناعة، واشتهرت كل بلد من بلدان الأندلس بنوع أو أكثر من أنواع الصناعات<sup>(1)</sup>.

وقد عرفت ألمرية بصناعة النسيج والطرز، وصناعة الثياب من الحرير، وكان يصنع بها صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج<sup>(2)</sup> واشتهرت شاطبة بصناعة الثياب البيض التي تباع بأثمان غالية لرققتها وإبداع صنعها<sup>(3)</sup>، وامتازت شاطبة بصناعة الورق الذي لا نظير له في غيرها<sup>(4)</sup>، واشتهر ميناء دانية بإنشاء السفن<sup>(5)</sup>، كما قامت صناعة الأسلحة والصناعات الجلدية في قرطبة<sup>(6)</sup>.

وقد ازدادت الصناعات غنىً وازدهاراً يوماً بعد يوم، لوفرة المواد الخام بكثرة، واتساع بنود المطالبات لتنوع العناصر السكانية، وللثراء الواسع الذي كانت تعيشه المدن الأندلسية<sup>(7)</sup>.

ونظراً لازدهار الصناعة وتقدمها، فقد نشطت الحركة التجارية، فكانت تصدر الأغنام والخراف والأسماك والزيت والتين والورق<sup>(8)</sup> لمصر وسوريا والهند وكانت للأندلس علاقات تجارية جيدة مع المغرب وشمال إفريقيا واليونان<sup>(9)</sup> وجنوب فرنسا وإيطاليا<sup>(10)</sup>. وكانت لسياسة إسقاط المكوس والقضاء على المغارم السلطانية دور بين في تنشيط الحركة التجارية وانخفاض الأسعار وظهور فترة من الرخاء الاقتصادي<sup>(11)</sup>.

(1) Economic history of Spain, p. 178-180, 201.

(2) خريدة العجائب، ص 24.

(3) القارة الإفريقية والأندلس، ص 282.

(4) خريدة العجائب، ص 25.

(5) القارة الإفريقية والأندلس، ص 282.

(6) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 495.

(7) Economic history of Spain, p. 180.

(8) القارة الإفريقية والأندلس، ص 264، 293، 289.

(9) Economic history of Spain p. 331-332.

(10) انظر رحلة بنيامين التُّطيلي، ص 50-58.

(11) الحبيب الحنجاني: السياسة المالية للدولة المرابطية، الملتقى الرابع الإسباني التونسي، مدريد 1983، ص 44.

ولا شك في أن الاضطراب والفوضى وسقوط المدن والاستيلاء عليها، أدى إلى تفاقم الأزمة الاقتصادية، حيث اشتدت الحال، وتناهى الغلاء، وقطعت السابلة، ووقع النهب<sup>(1)</sup>. فحينما ملك العدو إفراغة<sup>(2)</sup> من بلاد شرق الأندلس سنة (611هـ) حاصرها حصاراً شديداً، حتى أكل أهلها الجيف<sup>(3)</sup>. وفي سنة (617هـ) اشتدت المجاعة والغلاء والقحط، وكثرت الفتن في معظم بلاد الأندلس<sup>(4)</sup>، ويصف الغشتالي بلاد المغرب والأندلس حينما ورد لها في القرن السابع الهجري، وقد هلك أهلها من الجوع وامتألت بالفتن<sup>(5)</sup>.

وحينما حاصر العدو أبذة سنة (631هـ)، شعر أهلها أنه ليس بمقدورهم الدفاع عنها، فطلبوا من ألفونسو تسليمها على أن يدفعوا فدية مقدارها مليون دينار، لقاء السماح لهم بالبقاء في المدينة، وقَبِلَ ألفونسو الشرط، وعاقب كل من يتخلف عن دفع نصيبه من الغرامة بمصادرة جميع أمواله وأملاكه، وأشار القس على ألفونسو بضرورة تدمير المدينة، فعمد الجند إلى تدميرها وحرق دورها، بعد خلوها من السكان<sup>(6)</sup> واقتسم النصارى أملاك مرجها ودورها المهجورة حينما غادرها أهلها مغلوبين سنة (633هـ)<sup>(7)</sup>.

واستباح الأعداء منازل بلنسية وأراضيها الخصبة بعد احتلالها سنة (636هـ) فقسموها بين رجال الدين والفرسان والبارونات<sup>(8)</sup>، مما أدى إلى تشريد أهلها، واشتداد الغلاء والجوع فيها<sup>(9)</sup>. وعانت جيان من الحرمان والجوع حينما حوصرت سنة (642هـ).

(1) عنان: عصر المرابطين والموحدين، 2/ 126.

(2) إفراغة (Fraga) مدينة من أعمال ماردة، وتقع في غربها، على نهر الزيتون. معجم البلدان، 1/ 227. الروض المعطار، ص 48.

(3) الذخيرة السنية، ص 49.

(4) المصدر السابق، ص 54.

(5) تحفة المغرب ببلاد المغرب، تحقيق وتعليقات: فرنادو دي لاجرنجا، مدريد 1974، ص 65-67.

(6) الأندلس الذاهية، 3/ 50.

(7) أشباح، تاريخ الأندلس، ص 433.

(8) المصدر السابق، ص 424.

(9) الروض المعطار، ص 101.

وأحدثت النصارى بمدينة إشبيلية سنة (645هـ) وحاصروا أهلها براً وبحراً تسعة أشهر، فمات بالجوع خلقٌ كثير، وهدمت الأطعمة من القمح والعشير، حتى أكل الناس الجلود، وفنيت المقاتلة<sup>(1)</sup>، واستصرخ أهلها المغرب يلتمسون الغوث، لكن نفاذ الأقوات واشتداد الجوع انتهى بهم إلى تسليك المدينة سنة (646هـ)<sup>(2)</sup>.

وسار ابن الأحمر سنة (665هـ) مع خليفة فرناندو بجيوشهما، وحينما وصلا قلعة شريش، بدأ جند فرناندو بانتساف الزروع، وتخريب الضياع<sup>(3)</sup>، وكان المسيحيون يغزون حدود غرناطة عدة مرات في السنة، على الرغم من معاهدات الهدنة والجزية، فيقطعون أشجار الفاكهة وينهبون الغلال والمواشي والأموال<sup>(4)</sup>.

ونظراً لأهمية مالقة، وما تتمتع به من غنى، فقد حاصرها فرناندو للاستيلاء عليها، إذ كانت الضرائب الجمركية فيها مصدراً للخزينة القشتالية<sup>(5)</sup>.

كما كانت الفتن في الأندلس عائقاً في طريق الازدهار الاقتصادي، فقد لحق الخراب والدمار بأجزاء كبيرة من بلاد الأندلس، حينما فرض أبو جميل زيان بن مرديش على رعيته مغارم كثيرة، كي يدفع نفقات الجند المرتزقة من النصارى، يقول ابن الخطيب من خلال حديثه عن ابن مردنيش: «فصالح صاحب برشلونة لأول مرة على ضريبة، وصالح ملك قشتالة على أخرى فكان يبذل في السنة خمسين ألف مثقال، وابتنى بجيشه من النصارى منازل معلومات، وحاتات للخمور، فأجحف برعيته لأرزاق من استعان به منهم، فعظمت في بلاده المغارم وثقلت»<sup>(6)</sup> وبالإضافة لذلك، فإن الحروب التي خاضها ابن

(1) البيان المغرب، 3/ 381-382.

(2) انظر: عنان، عصر المرابطين والموحدين، 2/ 482-485.

(3) الأندلس الذاهبة، 3/ 107.

(4) The History of Spain, p. 137.

(5) The history of Spain, p. 140

(6) الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1974،

124/2.



مردنيش ضد الموحدين طوال ربع قرن من الزمان، قد ألحقت الخراب باقتصاد بعض بلاد الأندلس، وأدت إلى كساد التجارة، وندرة المحاصيل الزراعية، والمنتجات الصناعية<sup>(1)</sup>.

لقد كان لهذه الإجراءات القاسية من حصار وتضييق وتخريب للمنشآت، آثارها السلبية على الحياة الاقتصادية، فقد قلت الموارد وعمدت الأقوات، وانتشرت الأوبئة، وعمّ الجوع والحرمان، واشتد غلاء الأسعار، في حين ضاعت مصادر النقد من زراعة وصناعة وتجارة<sup>(2)</sup>، نتيجة لتخريب الأراضي والعبث فيها، وهدم المصانع والمدارس، ونتيجة لقطع الأعداء طرق الاتصالات وعزل المدن.

### ج- الظروف الاجتماعية

ويقصد بها ظروف الاضطراب وانعدام الأمن نتيجة للتدجين والهجرة القسرية، وأثر هذا الاضطراب في نفوس الناس من خلال تصوير ذلك بأقلام الشعراء والأدباء.

لقد تركت الأحوال السياسية والاقتصادية، أثرها البين في الحياة الاجتماعية، من حيث الاضطراب الذي سببته في نفوس الناس، والقلق وانعدام الأمن، نتيجة لتشريدهم وبُعدهم عن مدنها، ومعاناتهم الدائمة لما آل إليه أمرهم، وما لاقوه من تطبيق قوانين ظالمة لمن بقي منهم في المدن التي استولى عليها النصارى، وأخذت تواجه شبح الفناء والاضطراب، وساد فيها القلق والفزع على مصيرها المحتوم.

وقد عومل سكان المدن الأندلسية بطريقتين: فالذي استسلموا وعقدت معهم معاهدة التسليم، سمووا بالمُدَجَّجِينَ (مسلمين في مناطق مسيحية)، وأما البلدان التي حاربت بمرارة، فقد تم طرد سكانها<sup>(3)</sup>. وقد شهد الربع الثاني من القرن السابع الهجر، الثالث عشر الميلادي، هجرة كثير من المسلمين، مما أدى إلى خلو البلاد من سكانها، وكثير

(1) هشام أبو رميلة: علاقة الموحدين بالملك النصرانية والدول الإسلامية، دار الفرقان، عمان، ط 1، 1984، ص 376.

(2) عنان، عصر المرابطين والموحدين، 2/ 627.

(3) Harvey, L.P.: Islamic Spain, 1250-1500, The University of Chicago press, Chicago and London 1990, p. 20.

من سمح لهم بالبقاء لم يبقوا، لأن تعاليم الديانة الإسلامية تحض على الهجرة إلى مناطق مسلمة، وبقي بعض الذين افترض أن يطردوا - خفية عن الأنظار - يقدمون خدمات للمسيحيين لاحتياج المناطق الجديدة إلى أيدي عاملة، فكان المسيحيون يرحبون بكل من لديه خبرة، وشجع بعض النبلاء قيام مستوطنات للمسلمين لأنهم كانوا يرغبون في تطوير ممتلكاتهم<sup>(1)</sup>.

وقد كانت الهجرات في أول أمرها داخلية، فقد نزح معظم سكان المدن التي سقطت في أيدي الفرنج إلى المناطق الغرناطية، وخاصة سكان قرطبة وإشبيلية، ثم وصل أبناء جَيَّان ومرسية<sup>(2)</sup>، وسهل الأروغونيون نزوح سكان بلنسية كما رأينا.

ولعل تعلق الأندلسيين ببلادهم، جعلهم يغالبون الرحيل عنها بصورة كلية، فكانوا إن سقطت مدينة أندلسية، ارتحلوا منها إلى أخرى، حتى لا يجدوا بعد ذلك مفراً من الارتحال النهائي عنها، فقد خرج محمد بن علي الجذامي من أركُش وهي بلدة صغيرة من أعمال شَريش، حينما أخذت النصارى قصبته إلى شَريش، فلما أخذ النصارى قصبته، ارتحل إلى الجزيرة الخضراء، ثم انتهى به الرحيل منها إلى سبتة في المغرب، ثم عاد إلى الجزيرة الخضراء، ومنها إلى حضرة غرناطة، حتى انتهى بها المطاف إلى مالقة وتوفي بها<sup>(3)</sup>.

وقد لوحظ أن موجات الهجرة الداخلية من البلاد الأندلسية، قد بدأت تتزايد على مملكة غرناطة كلما سقطت في يد الإسبان مدينة من المدن المسلمة، سواء منها الشرقية أو الوسطى، وخاصة أنهم كانوا في حالة ثوران داخلي، لذا فقد كانوا يفضلون الهجرة إلى المناطق الإسلامية على الخضوع للنصارى وقبول التدجن، وإن كان القليل منهم قد فضل مصالحه الاقتصادية وبقي في المناطق المسيحية<sup>(4)</sup>.

(1) Islamic Spain, p. 12.

(2) يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1982، ص 108.

(3) ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي: درة الحجال في أسماء الرجال، المكتبة العتيقة تونس، دار التراث القاهرة، ط 1، 1971، 83/2 - 86.

(4) Islamic Spain, p. 51.

كما كانت الأوضاع الداخلية، والفتن السائدة، مدعاة للهجرة، فقد ارتحل أبو إسحاق إبراهيم بن عيسى عن دانية، أول الفتنة المنبعثة في الأندلس سنة (621هـ) وسكن بلنسية، ثم ارتحل إلى المغرب وبقي حتى توفي بها سنة (627هـ)<sup>(1)</sup>. وتعطينا بعض كتب المتصوفة في هذا العصر، رؤية خاصة للمجتمع الداخلي في الأندلس، وتلقي باللائمة على الزمان وأهله وتصف المجتمع بالفساد والانحلال وهذا ما يصوره ابن عربي بقوله: «وهذا الزمن الذي أنت فيه زمان شرٍّ، قلَّت فيه لقمةُ الحلال، وكثُر فيه الشرُّ والكَلْبُ في قلوبِ النَّاسِ، فلا بَطْنٌ يَشْبَعُ، ولا نَفْسٌ تَقْنَعُ، ولا عَيْنٌ تَدْمَعُ ولا دُعَاءٌ يُسْمَعُ»<sup>(2)</sup>.

وكان أهل الأندلس، في حالة من الفزع والاضطراب والقلق، جعلتهم يعتقدون بالتنبؤات والأراجيف التي تتردد عن قرب ظهور رجل من أصناف الجند اسمه محمد، واسم أبيه يوسف، يتم على يديه إنقاذ أهل الأندلس وكانت هذه النبوءة هي المحرك لمحمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر بالقيام والثورة<sup>(3)</sup>.

لقد اتحدت العوامل الداخلية والخارجية، لتؤدي إلى ضياع الجزء الأكبر من الأندلس، وتشريد أهلها وإجبارهم على النزوح والجلء عن أرضهم إلى أقطار عربية وإسلامية أخرى، بعد تزايد الزحف الإسباني على المدن الأندلسية إذ أصبحت الهجرة الخارجية الجماعية أكثر من ذي قبل، حيث إن غرناطة لا يمكن لها أن تتسع لكافة هؤلاء المرتحلين، فكان لا بد من توجه المسلمين إلى المغرب والمشرق بصورة لافتة<sup>(4)</sup>. تاركين

(1) ابن الأبار أبو عبدالله القضاعي: تحفة القادم، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1986، ص189.

(2) محيي الدين ابن عربي: روح القدس في محاسبة النفس، مكتبة عبد الوكيل الدوري، دمشق 1965، ص45.

(3) أعمال الأعلام، 2/ 278.

(4) علي أحمد: الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق العربي منذ نهاية القرن الخامس، وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، رسالة جامعية، جامعة دمشق 1980، ص71.

وراءهم الدور والأراضي والزرور والكروم<sup>(1)</sup> ولعلهم بذلك كانوا سبباً رئيسياً في انهيار الحضارة الأندلسية لما هاجروا بداية من بلادهم إلى المناطق الغربية وخاصة غرناطة، فأغنوها حضارياً، وازدهرت اقتصادياً، لخبراتهم الزراعية<sup>(2)</sup>.

استقر غالبية المهاجرين إلى المشرق في المدن الرئيسية في مصر والشام وهما مركز النفوذ السياسي في المشرق، وقد كثر المرتحلون من أهل العلم والأدب، إذ إن هذه الفئة من أكثر عناصر المجتمع تأثراً بعدم الاستقرار، وهذا من الأسباب التي تقوي الظن بأن الهجرة كانت من أجل الاستقرار والأمن والاستيطان.

ويتضح ذلك من خلال وصف الكتاب والشعراء لاضطراب الأحوال في بلادهم محذرين الأندلسيين من المصير المفرع مستصرخين الملوك والحكام وهم يرون مدنهم تسقط الواحدة تلو الأخرى، يقول ابن الأبار: «فقل في يوم عصيب، رَماني بِسَهْمٍ لِلْفِرَاقِ مُصِيب، ولم يَدْعُ لي ما تَمَنَيْتِ، وَشَرَى بِثَمَنِ بَخْسٍ ما اقْتَنَيْتِ، فاستَشْرَى في مَحْوٍ ما وَحَيْتِ، وهدم ما بنيت، حتَّى عِيل الاضطِرَّ وغلَبَ الاستِغبار، للتَفَكُّرِ في بَثِّ الأشْجان، وبَثِّ الأَشْطان، والتَذَكُّرِ لِوُجُوحِ الامتحان بالخروجِ عن الأوطان، أَيانَ سَلَمَها الإسلام آيساً وتَدَرَّها التثليثُ أنساً»<sup>(3)</sup>.

ويصف أبو المطرّف بن عميرة، ما حلّ بأهل بلنسية باكيةً متحسراً يقول: «فيا لله لأتراب درجوا، وأصحاب عن الأوطان خرجوا، قصت الأجنحة وقيل طيروا وإنما هو القتل والأسر أو تسيروا، فافترقوا أيدي سبا، وانتشروا على الوهاد والرُّبا، ففي كل جانب عويلٌ وزفرة، وبكل صدرٍ غليلٌ وحسرة»<sup>(4)</sup>.

(1) الونشريسي، أحمد بن يحيى: المعيار المُعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقيا والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف د. محمد الحجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، 2/ 119.

(2) Islamic Spain, p. 13.

(3) إعتاب الكتاب، حققه وعلق عليه: د. صالح الأشر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط 1، 1961، ص 255-256.

(4) الروض المعطار، ص 98.

وقد أذكت المحن لوعة الشعراء، واستثارت قرائحهم، فبكوا مدنهم بكاءً حاراً، متفجعين على ضياعها، واصفين ما أصابها على أيدي الأعداء من خراب وتدمير، وما حاق بأهلها من صنوف الذل والعذاب، من ذلك ما يقوله أبو موسى ابن هارون أحد شعراء إشبيلية حينما استولى عليها الأعداء سنة (646هـ).

يا حمصُ أقصدك المقدورُ حينَ رَمَى  
جَرَتْ عليك يدُ للدَّهرِ ظالمةٌ  
يا سائلي عن مُصابِ المسلمين بها  
لما تفرقت الأهواءُ واضطربت  
وقد أحاطت بنا الأعداءُ فاغرةٌ  
ثم يصف ما فعلوه بأهلها متحسراً:

فكم أسارى غَدَت في القيدِ موثقةٌ  
وكم صريعٍ رضيعٍ ظلَّ مختطفاً  
عفت يدُ الشرِّ ما شاد الخلايفُ من  
أين القبابُ التي كانت محجَّبةً  
يا عينُ فابكي على حمصٍ وقلِّ لها  
لم يبقَ فينا سوى الأنفاسِ خافتةٌ  
تشكو من الذلِّ أقداماً لها حُطماً  
عن أمِّه فهو بالأمواج قد فطماً  
مَصْرٍ ومن مَصْنَعٍ ضخيمٍ حكى إرماً  
فيها الملوكةُ تفيضُ الجودَ والكرماً  
منك البكاءُ إذا لم ترسلِيه دماً  
فكلنا في وجودٍ يُشبهُ العَدما<sup>(1)</sup>

وكتب أبو جعفر بن أبي إسحاق قاضي قرطبة، قصيدة طويلة، يتفجع فيها لما حلَّ بجزيرة الأندلس، يقول منها واصفاً ما فعله الأعداء بأهلها.

ألا مُسعدٌ منجدٌ ذو فِطْنٍ  
ويندُبُ أطلالها أسفاً  
لقد جَلَّتْها حروفُ الردى  
يُبْكِي بدمعٍ معين هَتِينُ  
ويرثي من الشرع ما قد وهَنُ  
شآبيب كربٍ كمثّل الدجَنُ

(1) البيان المغرب، 3/ 382-384.

فَعَزَّيْهَا كُلَّ ذِي رِيَّةٍ      وَهَانَ الْعَزِيزُ الَّذِي لَمْ يَهْنِ  
وطلَّتْ دُمَاءٌ وَرِيَعَتْ نِسَاءٌ      وَهَنْ سَبَاءٌ بِهَا لَمْ يَكُنْ  
وَعَمَّتْ هُرُوجٌ وَعَاثَتْ عُلُوجٌ      وَهَانَتْ فُرُوجٌ بِهَا لَمْ تَهْنِ<sup>(1)</sup>

وفي حين كان المسلمون يتركون المناطق المسيحية بأعداد كبيرة، مضطهدين ممتهين، مجردين من أموالهم ودورهم، كان اليهود محميين من قِبل الملوك والنبلاء الذين كانوا مدينين لهم بقروض كبيرة، وقد تزوج هؤلاء النبلاء من الفتيات اليهوديات طمعاً في الثروة، ولتعويض خسارتهم بهجرات المسلمين، كما أعطيت لهم فيما بعد في القرن الرابع عشر الميلادي صلاحيات ممارسة طقوسهم الدينية من قِبل بوب كليمنت وذلك لأن أربعين ألفاً منهم، يساعدون المسيحيين في محاربة المسلمين، كما أن بقاءهم في المدن ضروري للتقدم الاقتصادي<sup>(2)</sup>.

أما الجموع الكبيرة من المسلمين الذين بقوا في القواعد والثغور التي استولى عليها المسيحيون والذين سموا (بالمدجنين)، فقد كانوا يتمتعون بالطمأنينة في البداية في ظل ملوك قشتالة وأراغون، وكان يسمح لهم بالاحتفاظ بدينهم وشريعتهم ومساجدهم ومدارسهم، وكان لهم حق بيع العقارات وشرائها، وكان لهم قضاة يحكمون بينهم في سائر المنازعات وفقاً للشريعة الإسلامية<sup>(3)</sup>. وكان لهم هيئة أو جمعية في المدن الكبرى،

(1) الرعيني، أبو الحسن علي بن محمد الرعيني: برنامج شيوخ الرعيني، حققه إبراهيم شيوخ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1962، ص 132-133.

Imumuddin, Apolitical history of Muslim Spain, Dacca Pakistan, Second Edition, (2) 1969, p. 280-281.

هذا لا ينفي تعرض اليهود للاضطهاد، خاصة في الفترة التي سبقت القرن السابع الهجري، وكانت حال المدجنين أفضل من حال اليهود أول الأمر، وكان كلاهما يعاونان الدولة بدفع ضريبة العشور مما كان يرضي العرش أو السادة، وينبغي الإشارة أن حركة الجلاء التي طبعت القرنين الخامس والسادس الهجريين كانت بين اليهود على أشدها، نتيجة الضيق الذي عانوه، وكان اتجاه هجرتهم نحو صقلية والمشرق، انظر الأنيس المطرب، ص 16، دولة الإسلام العصر الرابع، ص 56.

(3) دولة الإسلام، ص 4، ص 48، للنظر في القوانين التي وضعت للمدجنين، انظر كتاب: أسنى المتاجر، للنوشرسي في كتابه المعيار العرب، 2/ 119 وما بعدها.

تتولى تصريف شؤونهم، والعناية بمصالحهم، وتتكون من أعيانهم. وعلى الرغم من الحرية التي تمتعوا بها، فقد أخذ النصارى بعض مساجدهم، وحولوها إلى كنائس، ونص أحد بنود لائحة القوانين القشتالية، أن على النصارى واجب إقناع المدجنين باعتراف النصرانية دون استخدام القوة أو الضغط<sup>(1)</sup>، لكن هذه الحال أخذت في التبدل فازداد عدد المدجنين، وكانت الكنيسة تبغضهم وتنقم عليهم، وتحرض على استرقاقهم أو تنصيرهم، من ذلك ما أمر به البابا أنوسان الرابع سنة 1238م ملك أراغون خايمي الأول من وجوب استرقاق المسلمين، ولكنه لم يأبه، وسمح للمسلمين بالبقاء كمدجنين حين احتل بلنسية (636هـ)<sup>(2)</sup>.

لكن لم يدم هذا طويلاً فقد أخذوا يتعرضون للاضطهاد، بتحريض من رجال الدين النصارى الذين كانوا يلومون الملوك على إظهار تسامحهم لهم ومعاملتهم بالرأفة، ونتيجة للإلحاح في التحريض، فقد كان النصارى يسومونهم سوء العذاب، وكانوا يساقون من بيوتهم إلى سوق النخاسة ويبيعون بأبخس الأثمان، وكان الجند الذين لم يستوفوا رواتبهم من الخزينة، يأخذونها من أموال المسلمين المدجنين<sup>(3)</sup>.

وقد جاء في بعض الوثائق النصرانية، أن كثيراً من المدجنين قد لحقهم الاسترقاق، فعملوا كعبيد في فلاحة الأرض، وكخدم في بيوت النبلاء والقساوسة وفي الأديرة وفي الفرق العسكرية، كما صدر عن المجالس الكنسية التي عقدت سنة 1252م، عدة قرارات ضد المدجنين، فحرمت عليهم ارتداء ملابس ذات لون أبيض أو أخضر، أو استخدام حذاء أبيض، وحرمت عليهم إطالة شعر الرأس حتى لا يتدل على الجبهة، بينما حرمت عليهم قص اللحي حتى تطول، كما حرمت عليهم العيش في بيوت نصرانية، أو استخدام نصراني في خدمتهم، أو شراء أراضي نصرانية إلا بعد استئذان الكنيسة، وأباح قتل

(1) Callaghan, Joseph F.O: A history of Medieval Spain, First published by cornell university 1975, Forth printing, in the United States of America, 1992, p. 462-463.

(2) دولة الإسلام، ق4، ص54.

(3) الأندلس الذهبية، 3/ 127-128.

المدجن إذا اعتدى على امرأة نصرانية، وأباحوا لأهل المرأة عقابها أو حرقها إذا تزوجت أحد المدجنين<sup>(1)</sup>.

وقد آثر المسلمون سكنى الجبال على حياة الذل والمهانة، وخرجوا وكانوا يتعرضون للسلب والنهب من عصابات الإسبان أثناء خروجهم، وأنشئت فرق عسكرية تتولى طرد المسلمين وإجلاءهم عن البلاد بتأثير القُسس والرهبان وخرجت جموع النازحين بأعداد كبيرة<sup>(2)</sup>.

وثار المدجنون في مُرسية في يوم واحد، في البلاد الواقعة بين شريش ولقنت وأعلنوا ولاءهم وطاعتهم لمحمد بن الأحمر، مستولين على بعض القلاع والحصون والسهول. وكان إخماد هذه الثورة يتطلب وجود الملك شخصياً، لكنه عمد إلى حليفه ابن الأحمر، فاعتذر ابن الأحمر عن حرب أبناء دينه، فنقم عليه الملك وسارع نحو غرناطة لقتاله، فانتصر ابن الأحمر، مما رفع من معنويات المدجنين<sup>(3)</sup>.

وكتب الشعراء من أهل المغرب قصائد يستصرخون فيها المسلمين لرفع الظلم عن إخوانهم المستضعفين في بلاد الأندلس، ومنهم الشاعر مالك بن المرحل سنة (662هـ) يقول:

لَهْفًا عَلَى أَنْدَلَسٍ مِنْ جَنَّةٍ	دَارَتْ بِهَا مِنَ الْعَدَا جَهَنَّمُ
إِنْ أَمَامَ الْبَحْرِ مِنْ إِخْوَانِكُمْ	خَلَقَ اللَّهُمَّ تَلَقُّتُ إِلَيْكُمْ
وَنَحْوَكُمْ عِيُونُهُمْ نَاطِرَةٌ	لَا تَطْعُمُ النَّوْمَ وَكَيْفَ تَطْعُمُ
أَيُّنَ الْمَفْرُؤُ لَا مَفْرُؤًا	هُوَ الْغِيَاثُ أَوْ إِسَارٌ أَوْ دَمٌ <sup>(4)</sup>

(1) A history of Medieval Spain, p. 463.

(2) الأندلس الذهبية، 3/ 120، 121، 128.

(3) المصدر السابق، 3/ 121.

(4) الذخيرة السنية، ص 99-100.



هذه بعض صور المعاناة، لأهل المدن الأندلسية حين سقوطها وحصارها، وصور  
الامتهان والقسوة التي مارسها النصارى ضد المسلمين، ناقضين عهودهم بالأمان، غير  
مراعين إلا ولا ذمة حتى في النساء والأطفال والشيوخ.

كانت هذه الأوضاع - كما اتضح بصورة غير مباشرة - سبباً في هجرة الكثيرين،  
دون إيراد الأوضاع الخاصة لكل شاعر بصورة محددة إلا ما ندر. من ذلك ارتحال يوسف  
ابن عتبة الإشبيلي<sup>(1)</sup> من إشبيلية حين تولاها ابن هود واضطرت لفتنته، وقدومه مصر  
هارباً من تلك الأحوال<sup>(2)</sup>.

أما أبو الحسن الميورقي<sup>(3)</sup> فربما كان قد جيء به مع الأسرى الذين أتى بهم الفرنج  
إلى ساحل الشام، بعد احتلال جزيرة ميورقة سنة (627هـ)<sup>(4)</sup>.

وقد تعرض أحمد بن فرح<sup>(5)</sup> لأسر الفرنج سنة (646هـ) مما جعله يرتحل بعدها إلى  
المشرق، ويبقى في مصر إلى حين وفاته<sup>(6)</sup>.

وخرج أثير الدين أبو حيان<sup>(7)</sup> ملتحقاً بالمشرق، بعد أن تصدّى للتأليف في الرد على  
أبي جعفر ابن الطباع وتكذيب روايته، لأنه قد نال من ابن الزبير أستاذ أبي حيان، فرفع  
أمره إلى السلطان، ونُفذ الأمر بتنكيله<sup>(8)</sup>.

---

(1) انظر الملحق، الترجمة رقم 57.

(2) النفح، 2/ 664.

(3) انظر الملحق، الترجمة رقم 7.

(4) أبو شامة المقدسي: الذيل على الروضتين، عني بنشره وصححه عزت العطار الحسيني، دار الجيل،  
بيروت، ط2، 1974، ص159.

(5) انظر الملحق، الترجمة رقم 2.

(6) النفح، 2/ 529.

(7) انظر الملحق، الترجمة رقم 53.

(8) الإحاطة، ص46-47.

وقد خرج بعض الشعراء لأسباب شخصية، من ذلك ارتحال عبدالرحمن بن محمد ابن عبدالملك بن سعيد<sup>(1)</sup> إلى المشرق، بعدما جرى بينه وبين أقاربه ما استوجب خروجه<sup>(2)</sup>.

### الأوضاع العامة في مصر والشام وأهميتها في اجتذاب المرتحلين

ويقصد بها الظروف التي ساعدت على استقطاب الأندلسيين إلى مصر والشام، وشكلت حافزاً مشجعاً للاتجاه إلى هذه البلاد، بعد أن تهيأت لهم المعرفة المسبقة عنها، عن طريق ما قرأوه، أو سمعوه، أو شاهدوه.

فقد كانت دولة (مصر والشام) في القرن السابع الهجري، تشهد تقدماً في كافة المجالات، وانفتاحاً حضارياً متميزاً، وفر لها مستوى من الرقي والثراء واتساع فرص العمل، بالإضافة إلى تميزها بظروف طبيعية مشابهة لبلاد الأندلس، كما كان للأثر الديني وتأصله في النفوس شأن يبيّن في اجتذاب الأندلسيين وتوجههم إلى المشرق.

#### أ- الظروف الطبيعية:

يشكل التشابه الطبيعي دوراً هاماً في اجتذاب المرتحلين، فالتشابه في أحوال المناخ والغطاء النباتي بين منطقة وأخرى، يكوّن استعداداً نفسياً لدى المهجّرين في الارتحال إلى البلاد التي تشابه بلادهم ويقربها إلى نفوسهم، مما يجعل استقرارهم فيها سهلاً، كما كان حال الأندلسيين حينما ارتحلوا إلى الشام، ولعل من أدلّ الأمثلة على هذا التشابه بين مناطق الشام والأندلس، أنه أخذ بعين الاعتبار، حينما نقلت أجناد الشام إلى الأندلس، حيث أنزل أهل دمشق في كورة البيرة لشبهها بها وسميت دمشق، وأنزل أهل حمص في كورة إشبيلية، وسميت حمص، وأهل قنسرين في جيّان، وأهل الأردن في رية مالقة، وأهل فلسطين في شذونة<sup>(3)</sup>. ساعد هذا التشابه الجغرافي بين الإقليمين مؤسس الدولة الأموية

(1) انظر الملحق، الترجمة رقم 11.

(2) النفح، 370/2.

(3) لسان الدين بن الخطيب، اللوحة البدرية في الدولة النصرية، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1978، ص26.

في بناء دولته على صورة سوريا الأموية، حيث نقل إليها غرائب الغراس وكرائم الشجر من بلاد الشام<sup>(1)</sup>.

ويظهر مدى هذا التقارب بصورة واضحة، في ما يورده ابن سعيد حيث يقول: «منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطفت في بر العدو، ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبته، ثم طفت في إفريقيا وما جاورها من المغرب الأوسط، فرأيت بجاية وتونس، ثم دخلت الديار المصرية، فرأيت الإسكندرية والقاهرة والفسطاط، ثم دخلت الشام، فرأيت دمشق وحلب وما بينهما، لم أرَ ما يشبه رونق الأندلس في مياهها وأشجارها، إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى، ومدينة دمشق الشام، وفي حماة مسحة أندلسية»<sup>(2)</sup>.

وقد أعجب الرحالة الأندلسيون بمدن الشام ووصفوها وصفاً دقيقاً، فقد وصف ابن جبير مدينة دمشق بقوله: «جَنَّةُ الْمَشْرِقِ، وَمَطْلَعُ حُسْنِهِ الْمَوْنِقُ الْمَشْرِقِ، وعروس المدن... قد تَحَلَّتْ بأزاهير الرِّياحين، وتَجَلَّتْ في حُلَلٍ سُندُسيَّةٍ من البساتين... قد سَيِّمَتْ أرضُها كَثْرَةُ الماء، حتى اشتاقت إلى الظَّماء»<sup>(3)</sup>. وهناك جغرافيون آخرون سبقوا ابن جبير أتوا على ذكر الالتقاء والتشابه بين الشام والأندلس مثل البكري الذي قال: «الأندلس شامية في طبيعتها وهوائها»<sup>(4)</sup>. وسميت غرناطة بدمشق الأندلس<sup>(5)</sup>، وقد وصفت بأنها شامية في أكثر الأحوال، تشبه بعض مناطقها بالغوطة في أنهارها وجداولها وجنانها، وجمال بنائها وحسن موضعها<sup>(6)</sup>.

(1) النفح، 1/ 546.

(2) نفح الطيب، 1/ 209.

(3) رحلة ابن جبير، ص 234.

(4) جغرافية الأندلس وأوروبا، ص 70.

(5) ابن سعيد المغربي، المغرب في حُلَى المغرب، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط2، 102/2.

(6) اللوحة البدرية، ص 22-23.

وكان لطبيعة بعض مناطق مصر، أثر يّين على حركة الأندلسيين واستقرارهم، ففيها العديد من المناطق التي تشبه بعض مناطق الأندلس. فقد شبهت منطقة فحص إبيرة بمنطقة الفيوم في دلتا النيل<sup>(1)</sup>، كما أنزل جند مصر بكورة تُدْمِر<sup>(2)</sup> لمشايتها لطبيعة مصر<sup>(3)</sup>، ولعل هذا التشابه كان له أثر في سرعة التأقلم مع البيئة الجديدة.

ولا شك في أن تميز بعض المدن المصرية بخيراتها وخصبها وجمال طبيعتها شكّل عاملاً مشجعاً في انتقال الأندلسيين إليها، فالإسكندرية التي نزلها الكثير من الأندلسيين امتازت ببساتينها الأنيقة، وكثرة الفواكه والثمار ورخصها<sup>(4)</sup>، كما أن الفيوم امتازت بكثرة الفواكه والغلال<sup>(5)</sup>.

أعجب المتحلون بمصر ووصفوها بأنها «ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد»<sup>(6)</sup>. ومما كتبه أبو الصلت أمية بن عبدالعزيز الداني الذي زارها في القرن السادس الهجري عنها حينما بلغ جبل المقطم: «هذه ضالتي المنشودة، وبغيتي المقصودة، ها هنا ألبث وأقيم، فلا أبرح ولا أريم، بلدة طيبة ورب غفور، وحيث التفت فروضة وغدير، وخوّرنق وسدير، وظل ظليل، ونسيم عليل»<sup>(7)</sup>. وذكر بعض أهل العلم، أنه ليس في

(1) الروض المعطار، ص 45-46.

(2) تُدْمِر (Tudmir): كورة بالأندلس تتصل بكورة جيّان، وهي شرقي قرطبة، لها معاقل كثيرة ومدن، معجم البلدان، 2/ 19.

(3) النفح، 1/ 164.

(4) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار وممالك الأمصار، (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن)، حققها أيمن فؤاد سيد، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1985، 2/ 89-90.

(5) القارة الإفريقية والأندلس، ص 229.

(6) البلوي، خالد بن عيسى: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، مقدمة وتحقيق: الحسن بن محمد السائح، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1/ 198.

(7) الرسالة المصرية، نواذر المخطوطات، تحقيق: عبدالسلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1370هـ/ 1951م، ص 12-13.

الدنيا شجرة إلا وجدت بمصر، وفيها في كل وقت المأكول والمشوم وسائر البقول والخضر لا ينقطع منها شيء في الصيف أو الشتاء<sup>(1)</sup>.

وشابهت مصر الشام في بعض الجوانب الطبيعية، وشكلتا معاً عامل جذب للأندلسيين «فأسفل أراضي مصر شامية تمطرُ مطر الشام، وتنبت نبات الشام من الكرم والتين والموز وسائر الفاكهة والبقول والرياحين... وإنتاج اللبن والعسل»<sup>(2)</sup>.

لقد شكل التشابه بين الأندلس من ناحية، والشام ومصر من ناحية أخرى، عاملاً له أثره على حركة الأندلسيين واستقرارهم وسرعة تأقلمهم، للميزات التي تمتع بها كل منهما.

#### ب- الحج والتقديس وزيارة الأماكن المقدسة في المشرق:

لا تقل الناحية الدينية عن غيرها من نواحي الجذب الأخرى إلى الشام ومصر، ذلك أن المكانة الدينية المتميزة التي حظيت بها كل منهما، جعلتها محط أنظار الأندلسيين في اتخاذها مكاناً للاستقرار.

وتبين العديد من الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة مكانة الشام الدينية، التي كان الأندلسيون على دراية بها، لتضلّعهم في علوم القرآن والحديث. فهناك على سبيل المثال أحاديث تحض المسلمين على الهجرة إلى الشام، إذا ما تعرضوا للمحن، ولعل ما عاناه المسلمون في الأندلس جعل لهذه الأحاديث صدى عميقاً في نفوسهم، وتأثيراً عليهم في الاتجاه للشام من ذلك ما روي عن عبدالله بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون هجرة بعد هجرة، فخير أهل الأرض، ألزمهم مهاجر

(1) جلال الدين السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة الموسوعات بمصر، 1321هـ، 2/192.

(2) حسن المحاضرة، 2/192.

إبراهيم، ويبقى في كل أرض إذ ذاك، شرار أهلها، تلفظهم أرضوهم، تقدّرهم نفس الله عز وجل، وتحشّروهم النار مع القردة والخنازير (والمهاجر)»<sup>(1)</sup>.

(والمهاجر): الموضع الذي يهاجر إليه، ومهاجر إبراهيم خليل الله ﷺ هو الشام، فأراد بالهجرة الثانية في قوله: «ستكون هجرة بعد هجرة» الهجرة إلى الشام، يرغب في المقام بها<sup>(2)</sup>. وفي حديث آخر يبين الرسول ﷺ فضل الشام الاقتصادي والديني، مفضلاً إياها على غيرها، فيما رواه عبدالله بن حوالة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «سيصير الأمر إلى أن تكونوا جنوداً مجندة، جند بالشام، وجند بالعراق، فقلت: خِر لي يا رسول الله إن أدركت ذلك، فقال: عليك بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يحبتي إليها خيرته من عباده، فأما إن أبيتم فعليكم بيمنكم، واسقوا من غدركم، فإن الله توكل لي بالشام وأهله»<sup>(3)</sup>.

كما اختصت الأحاديث بعض مناطق الشام وأكدت على فضلها، وأهمها القدس ودمشق، القدس هي القبلة الأولى، وهي أرض الإسراء والمعراج، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: 1]، وقد أكدت الأحاديث النبوية على هذه المكانة، حيث نصّ بعضها على فضل الصلاة في المسجد الأقصى، كقوله ﷺ: «لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا»<sup>(4)</sup>، وفي هذه الصلاة غفران وتكفير للذنوب كما جاء في قوله ﷺ: «من خرج إلى بيت المقدس لغير حاجة إلا الصلاة، فصلّى

(1) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي: سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ج 3، رقم 2482 في باب الجهاد، ص 4.

(2) ابن الأثير الجزري، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد: جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبدالقادر أرناؤوط، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1983، 9/349-350.

(3) الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة: سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 1987، ج 5، رقم 3954 في المناقب، ص 690.

(4) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، تحقيق عبدالعزيز البابز وآخرون، دار الفكر، بيروت، ج 4، رقم 1846 في الصيد، ص 73.

فيه خمس صلوات، صباحاً وظهراً وعصراً ومغرباً وعشاءً، خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه»<sup>(1)</sup>.

وربطت الأحاديث الشريفة بين أداء الحج والعمرة في الحجاز وزيارة بيت المقدس حتى يكون الحج كاملاً، كما في قوله ﷺ: «من أهلَّ بحجٍّ أو عمرة من المسجد الأقصى الشريف إلى المسجد الحرام غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ووجبت له الجنة»<sup>(2)</sup>. فاغتفار الذنوب أمر له قيمة عند المسلمين، وهذا مما دعا الأندلسيين إلى تطبيق مضمون الحديث، والارتحال إلى هذه الأماكن المقدسة، التي يتوقون إليها في المشرق، وقد اتخذت عادة الإقامة في المسجد الأقصى وزيارته والصلاة فيه، والانطلاق منه إلى الحج صفة الخلود عند الأندلسيين، ولعل عامل الجذب هذا قد ازداد لدى الأندلسيين في هذه الفترة المتأخرة، بعد قيام الدولتين الأيوبية والمملوكية، حيث كان المشرق ساحة جهاد ضد الصليبيين والتتار، مما زاد في تأثير عامل الجذب الديني، إذ عُدَّ الدفاع عن بيت المقدس واجباً دينياً، وقد ازداد تدفق الزوار إلى بيت المقدس حينها حررها صلاح الدين، وليس أدلَّ على ذلك من رحلة ابن جبير الثانية للمشرق<sup>(3)</sup>، والتي كان فتح بيت المقدس من أقوى أسبابها.

وكما اختصت الأحاديث الشريفة بيت المقدس، فقد اختصت دمشق عن غيرها من المدن، قال ﷺ: «إن فُسطاطَ المسلمين يومَ الملحمة بالغُوطَة، إلى جانبِ مدينَةِ يقالُ لها دِمَشق، من خيرِ مدائن الشام»<sup>(4)</sup>، وقد فضلت دمشق على سائر بقاع الشام ما عدا بيت المقدس، مما يدل على بركتها وفضيلة أهلها.

- 
- (1) ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني: سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث، القاهرة، 1975، ج 1، رقم 1408، ص 451-452.
- (2) سنن أبي داود، ج 2، رقم 1741 في المواقيت، ص 144.
- (3) الذيل والتكملة، ج 5، ق 2، ص 605-606.
- (4) سنن أبي داود، ج 4، رقم 4298 في الملاحم، ص 111.

ويظهر اهتمام الرحالة وخاصة الأندلسيين بالمساجد والمشاهد والمزارات، فقد أعجبوا بالجامع الأموي، فوصفوه بدقة واستفاضة، مبينين مساحته وتاريخ تأسيسه وفضائله، وما روي فيه من أحاديث، كما وصفوا قبته وزواياه وما يقام فيه من حلقات علم<sup>(1)</sup>، فهو لا يخلو في معظم الليل والنهار، من تال لكتاب الله، أو مصلاً، أو ذاكر أو عالم أو مجتهد<sup>(2)</sup>، وقد تنقلت الأقوال الكثيرة في رؤية الخضر عليه السلام يصلي كثيراً في الجانب الشرقي منه<sup>(3)</sup>. كما ذكروا مغارة الدم التي قتل فيها قابيل هابيل، ومغارة آدم عليه السلام وهما في جبل قاسيون بدمشق<sup>(4)</sup>. وهناك أمر آخر كان الأندلسيون يعظمون دمشق من أجله، وهو وجود نعل النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كانت موجودة عند بني أبي الحديد، ثم نقلت للمدرسة الأشرفية<sup>(5)</sup>.

وهناك مدن غير دمشق حظيت بمكانة دينية عن الأندلسيين، لما فيها من مزارات ومشاهد وقبور أنبياء، من ذلك ما يرويه الرحالة ابن بطوطة حيث يقول: «عسقلان فيها مشهد رأس الحسين قبل نقله للقاهرة...، وفي قبلة المزار مسجد كبير يُعرف بمسجد عمر، وفي القبلة منه بئر إبراهيم. وفي ظاهر عسقلان وادي النمل المذكور، الوارد ذكره في القرآن... أما الرملة ففي قبلة الجامع الأبيض منه ثلاثمائة من الأنبياء مدفونين.. وفي عكا قبر النبي صالح وبشرقا عين ماء تُعرف بعين البقر، يقال إن الله تعالى أخرج منها البقر

(1) انظر، رحلة ابن جبير، ص 235-246.

(2) عز الدين أبو محمد بن عبد السلام: ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام، تحقيق: محمد شكور، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط 1، 1987، ص 41. وانظر المخطوط، شريط رقم 4605، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، ورقة 13.

(3) ابن الحوراني، عثمان بن أحمد: الإشارات إلى أماكن الزيارات، تحقيق: بسام الجابي، مكتبة الغزالي، دمشق 1981، ص 22.

(4) الهروي، علي بن أبي بكر: الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: جانين سورديل، المعهد الفرنسي، دمشق 1953، ص 11.

(5) المقرئ التلمساني: فتح المتعال في مدح النعال، (ميكروفيلم) مصور عن بيتي، رقم 3113، الجامعة الأردنية، ورقة 6. وقد نقل المقرئ شعراً للمغاربة والأندلسيين الذين امتدحوا النعل الشريفة.



لآدم عليه السلام ، وكان عليه مسجد بقي منه محرابه<sup>(1)</sup>. وفي طبريا قبر النبي شعيب، وعلى القرب منه الجب الذي أنزل فيه يوسف، وفي الخليل مشاهد وقبور الأنبياء والصالحين ومساجد كثيرة<sup>(2)</sup>.

ومهما كانت درجة صحة الأحاديث والأقوال التي تنوقلت، فقد وصلت للأندلسيين واشتهرت عندهم، وعملت بصورة إيجابية، على ترغيب أهل الأندلس في التوجه إلى الشام والاستقرار في مدنه.

وتحتل مصر مكانة دينية عند مسلمي الأندلس، قد لا تصل إلى الدرجة التي وصلتها الشام لاعتبارات كثيرة أشير إليها، مما ساعد على حركة نشطة للأندلسيين إليها، فلمصر ذكر طيب في القرآن الكريم في عدة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسَأً ثُمَّ﴾ [البقرة: 61] وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس: 87]. وورد ذكرها في الأحاديث الشريفة، من ذلك ما روي عن أبي ذر رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال: «ستفتحون مصر وهي أرض يُسَمَّى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمةً ورحماً»<sup>(3)</sup>.

وعدّ ابن جبير قرافة القاهرة من عجائب الدنيا، لما تحتوي عليه من مشاهد الأنبياء عليهم السلام، وأهل البيت والصحابة والتابعين والزهاد والعلماء. ومن هذه المشاهد، مشهد رأس الحسين بن علي، وقد وصفه ابن جبير ووصف البنيان الذي يحيط به مجلاً، كما شاهد قبر النبي صالح، وقبر روبيل بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وقبر آسيا امرأة

(1) رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4، ص78-81.

(2) انظر: المصدر السابق، ص704-779.

(3) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: صحيح مسلم بشرح الإمام محيي الدين النووي المسمى المنهاج، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1994، ج16، رقم 6441 في الفضائل، ص314.

فرعون، ومشاهد أهل البيت، مبيناً اتصال الجرايات كل شهر في هذه الأمكنة<sup>(1)</sup>، ومن المشاهد الأخرى مشهد السيدة أم كلثوم، ومشهد علي بن الحسين، ومشهد السيدة زينب ابنة يحيى بن زيد، ومشهد معاذ بن جبل، ومشهد الإمام الشافعي وغيرها من المشاهد<sup>(2)</sup>. كما أشار العبدري إلى وجود عدة وافرة من المزارات الشريفة<sup>(3)</sup>، وجملة من قبور الصالحين وصدور السلف والخلف في مصر ما لا يضبطه الحصر<sup>(4)</sup>.

وذكر الكندي أماكن دينية في مصر، نقلها عنه السيوطي، فذكر النيل المبارك، والنخلة التي ولد عيسى عليه السلام تحتها، وقبري موسى وهارون، كما ذكر دخول الكثير من الأنبياء مصر ومنهم إدريس وإبراهيم الخليل وإسماعيل ويعقوب ولوط، وعيسى وأيوب وشعيب عليهم السلام<sup>(5)</sup>.

وفي مصر المساجد القديمة العريقة مثل مسجد عمرو بن العاص للملكية، وخصصت بعض المساجد المشهورة للعناية بالغرباء من المغاربة مثل مسجد ابن طولون الذي خصصه السلطان لهم، مجرياً عليهم الأرزاق<sup>(6)</sup> فاجتمع بذلك فيه عاملاً جذب ديني واقتصادي.

ولا شك أن قوافل الحج التي كانت تمر بمصر، لم يكن الهدف منها أداء فريضة الحج فقط، وإنما اقترن هذا بفكرة الجهاد، والاعتقاد بأن الإقامة في الربط والحياة في الثغور نوع

(1) رحلة ابن جبير، ص 20.

(2) المصادر السابق، ص 21-23، معجم البلدان، 5/ 142-143.

(3) العبدري، محمد بن علي بن أحمد: رحلة العبدري المسماة: الرحلة المغربية، تحقيق: محمد الفاسي، وزارة الدولة، الرباط 1968، ص 149.

(4) رحلة ابن بطوطة، ص 55-56.

(5) حسن المحاضرة، 1/ 25-26.

(6) رحلة ابن جبير، ص 24-26.

من الجهاد، وأن من يموت أثناء إقامته فيها يعدّ شهيداً، لذلك جذبت الإسكندرية عدداً كبيراً من علماء المسلمين عامة، ومن علماء المغرب والأندلس خاصة<sup>(1)</sup>.

### ج- الظروف السياسية :

يعدّ القرن السادس الهجري من العصور الذهبية في تاريخ بلاد الشام على الصعيد السياسي، فقد كان عصر نور الدين الذي وحد الشام سياسياً، وقضى على الدويلات الضعيفة، ومهد لصلاح الدين الأيوبي توحيد مصر والشام بعد قضائه على دولة الفاطميين.

ولعل دراسة سياسة نور الدين وصلاح الدين تجاه الأندلسيين في مصر الشام، تسهم في إبراز أثر هذه السياسة على حمل صورة حسنة لدى المرتحلين عن سياسة الزنكيين والأيوبيين، مما جعلها عامل جذب لعدد كبير من المغاربة للارتحال إلى مصر الشام في القرن السابع الهجري، الذي كان يشهد فترات اضطراب وفتن في الأندلس.

فقد بعث نور الدين زنكي المذهب السني في دمشق، بعد قضائه على المذهب الشيعي، وأقام فيها المدارس واستحضر العلماء، وكان حريصاً على إقامة وحدة مذهبية، تكون عاملاً مدعماً للوحدة السياسية<sup>(2)</sup>. وقد وجد الأندلسيون بذلك المغريات التي تلائم عقيدتهم المذهبية، خاصة وأنهم مالكيون، ووجد حكام الشام في الأندلسيين عنصراً ملائماً لتطبيق سياستهم، فهم مالكية عاشوا في جو تسوده الوحدة المذهبية، إذ لم تقم في الأندلس قائمة لأي مذهب تعتبر السنة خارجاً عنها<sup>(3)</sup>.

---

(1) ابتسام مرعي خلف الله: العلاقات بين الخلافة الموحدة والمشرق الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، 1985، ص 348.

(2) صلاح الدين المنجد: المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، دار الكتاب الجديد، بيروت 1963، ص 22.

(3) علي أحمد: الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن لتاسع الهجري، دار طلاس، دمشق، ط 1، 1989، ص 104.

وقدم نور الدين زنكي للمغاربة الغرباء التسهيلات، ووقف عليهم الأوقاف، وأحسن وفادتهم، وقدم لهم ما يحتاجونه، وبلغ من اهتمامه بهم «أنه عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك أوقافاً كثيرة، منها طاحونتان، وسبعة بساتين، وأرض بيضاء، وحمّام ودكانان بالعطارين، وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه، وهو أبو الحسن بن سردال الجلياني المعروف بالأسود، أن هذا الوقف المغربي يغلّ إذا كان النظر فيه جيداً خمسمائة دينار في العام»<sup>(1)</sup>.

وقد أولى نور الدين افتكاك أسر المغاربة أهمية خاصة، وذلك لأنهم بعيدون عن بلادهم، ولا مخلص لهم، يقول ابن جبير. «وقد كان نور الدين رحمه الله، نذر في مرضة أصابته، تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة، فلما استبل من مرضه، أرسل في فدائهم، فسيق فيهم نفرٌ ليسوا من المغاربة... فأمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم من المغاربة، وقال: هؤلاء يَفْتَكُهُمْ أهلُهم وجيراهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم»<sup>(2)</sup>.

واستمر الأيوبيون في سياستهم العادلة، وحسن معاملتهم للمغاربة، ولعل مآثر صلاح الدين لا تحصى في هذا المجال، فقد سار على نهج نور الدين، ووقف الأوقاف على المغاربة، «وأمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا لذلك، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقّدون أحوالهم، وخداماً ينظرون في مصالحهم، وعين لأبناء السبيل منهم خبزتين لكل إنسان في كل يوم غير ما عينه من زكاة العين لذلك»<sup>(3)</sup>. وكان طيبب صلاح الدين الخاص، من الأندلسيين، وهو عبد المنعم الجلياني الذي كان يرافقه في حله وترحاله<sup>(4)</sup>.

(1) رحلة ابن جبير، ص 257.

(2) المصدر السابق، ص 280.

(3) المصدر نفسه، ص 15-6 ذ.

(4) نفسه، ص 255.

وكان صلاح الدين معنياً بشؤون المغاربة والأندلسيين، متتبعاً لأحوال ملوكهم ودولهم، حتى رغب إلى طبقة من الكتاب والمؤرخين بالتصنيف في أخبارهم، فصنف له محمد بن أيوب الأنصاري كتاباً في أحوال المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية، وصنف له كتاباً آخر في شعراء المغرب والأندلس<sup>(1)</sup>، وكان يطلب إلى سفرائه استقراء أحوال البلاد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، والتعرف على أوضاع أهلها، ونواحي حياتهم، جاء ذلك في إحدى وصاياه لسفير له وهذا نصها: «يُسْتَقْرَى فِي الطَّرِيقِ وَفِي الْبِلَادِ مِنْ أَخْبَارِ الْقَوْمِ فِي أَحْوَالِهِمْ، وَأَدَابِهِمْ وَأَشْغَالِهِمْ، وَأَفْعَالِهِمْ، وَمَا يَجْبُونَ فِي الْقَوْلِ نَزْرَهُ أَوْ جَمَّهُ، وَاللِّقَاءِ مُنَبِّسَةً أَوْ مُنْقَبَضَةً، وَمِنْ الْقَعُودِ بِمَجَالِسِهِمْ مُحَقَّقَةً أَوْ مُطَوَّلَةً، وَمِنْ التَّحِيَّاتِ الْمُتَهَادَاةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ مَا صِفَتُهُ وَمَا مَوْقَعُهُ، أَهْيَ السَّنَنِ الدِّينِيَّةِ، أَمْ الْعَوَائِدُ الْمُلُوكِيَّةِ»<sup>(2)</sup>.

وعمق من اهتمام صلاح الدين بشؤون الأندلسيين اشتراكهم بالحرب معه ضد الصليبيين، فقد استقبل صلاح الدين الأسير الأندلسي الذي قدمه الصليبيون هدية لصلاح الدين بحفاوة وتقدير وإعجاب<sup>(3)</sup>، كما كان المغاربة يرافقون الجيوش لتقديم الخدمات، مثل تحضير الطعام، وتجهيز الحمامات للجنود من أجل الاغتسال<sup>(4)</sup>.

سار أبناء البيت الأيوبي على نهج صلاح الدين من تقدير المغاربة وحسن معاملتهم، وإنشاء المرافق لهم، فقد أوقف الملك الأفضل ابن صلاح الدين المدرسة الأفضلية على

(1) محمد رضا الشيبني: أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة 1961، ص 37.

(2) أبو شامة المقدسي شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الجيل، بيروت، 2/ 17.

(3) العماد الأصفهاني الكاتب: الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح: محمد محمود صبح، الدار القومية، القاهرة 1965، ص 502.

(4) المقرئزي، أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه، محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ط 2، 1956، ج 1/ ق 1/ 94.

فقهاء المالكية، وبجوارها أوقف قطاعاً من المدينة بجوار المسجد، أضحى معروفاً باسم حارة المغاربة على طائفة من المغاربة على اختلاف أجناسهم، ذكورهم وإناثهم<sup>(1)</sup>.

أما الماليك، فقد قربوا الأندلسيين والمغاربة وأحسنوا إليهم واعتنوا بحجاجهم، وقد نقل التجيبي في رحلته صورة من صور هذه العناية، عن السلطان المملوكي المنصور أبو الفتح لاجين في قوص، يقول: «كان ملك مصر والشام السلطان الأجل حسام الدين والدنيا أبو الفتح لاجين الملقب بالمنصور... يعتني بالحجاج، ويأمر بتسهيل طريقهم، ويوصي بذلك عمّاله ونوابه، ... ومما عايناه نحن من ذلك وسمعناه بأذاننا، وذلك في أول جمعة جمعناها بقوص المحروسة، في الثامن عشر لجمادي الثانية، المذكور من سنة ست وتسعين وستماية، إثر فراغنا من صلاة الجمعة قام رئيس المؤذنين، وأمر الناس بالعود لسماع مرسوم كريم وصل من قبل السلطان إلى الفتح ... وكان مضمونه «أن لا يتعرض أحد من عمّاله ولا نوابه لأحد من الحجاج، وأن تسقط عنهم الملازم كلها التي تؤخذ منهم بقوص وغيرها من بلاده، وأن يُترك التعرض لهم جملة»<sup>(2)</sup>. كما يصف العبدري معاملة الماليك لهم بالقاهرة ويمتدحهم بأنهم أصحاب العقائد السليمة، والتفضل على الفقراء، والتسهيل على الحجاج والمسافرين من المغاربة يقول: «وهم ركن الإسلام، نفعهم الله وأحسن عونهم، وقد رأيت من خدمتهم للركب، واحتياطهم وصبرهم .... ما تعجبت منه ....»<sup>(3)</sup>.

ولعل تقريب الماليك للأندلسيين والمغاربة كان نابعاً من أهدافهم في تدعيم حكمهم بتقريب العلماء، ومن عرفوا بالفضل والدين، وقد وجدوا في الأندلسيين ما يبحثون عنه لتمسكهم الكبير بسلفيه الدين<sup>(4)</sup>، وأكد ابن بطوطة ذلك في رحلته حينما ذكر

(1) الحنبلي، أبو اليمن القاضي مجير الدين: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان - الأردن، 1973، 2/ 397.

(2) التجيبي، القاسم بن يوسف السبي: مُستفاد الحلة والاغتراب، تحقيق: عبدالحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس 1957، ص 174-175.

(3) رحلة العبدري، ص 128.

(4) الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، ص 107.

أن بدمشق فاضلاً من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصري، من عاداته أنه متى سمع عن وصول مغربي دمشق، بحث عنه وأحسن إليه، فإن عرف منه الدين والفضل أمر بملازمته، وكان يلزمه منهم جماعة، وعلى هذه الطريقة سار غيره<sup>(1)</sup>.

وهذه الحادثة تؤكد سبب اهتمام الممالك بالعلماء والمهتمين بالتدريس أو الفقه من المغاربة والأندلسيين، وهو أن هؤلاء يشكلون دعامة لحكمهم، لأن هذا الاهتمام لم يكن ليشمل العامة، لأنهم لا طائل منهم في تحقيق تلك الأهداف السياسية.

#### د- الظروف الاقتصادية والعلمية :

##### 1- تنوع الزراعات والصناعات واتساع التجارة والثراء :

وصف الوضع الاقتصادي في مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك بالانتعاش نظراً لتوافر الأسس الاقتصادية من تنوع زراعات، ووفرة إنتاج، وقيام صناعات مختلفة، وقد هيأت هذه الظروف لتجارة رائجة، كان لها تأثير في اتخاذ الأندلسيين لكل من مصر والشام دار إقامة، لأن هذه البلاد تشكل مصدر رزق للكثير منهم.

فقد عرفت الشام بزكاء منابتها، واعتدال هوائها، وجودة مناخها، وملاءمتها لطبائع الثمار كلها<sup>(2)</sup>، حيث كانت أرضها مصدراً للحبوب والبقول على اختلاف أنواعها، والفواكه المتنوعة كالوز والبرتقال التفاح والرمال والعنب، كما يوجد في أرضها القطن والفسق والقنب والكتان والحرير والنيل والدخان وقصب السكر، وتصلح مراعيها لتربية ضروب الماشية<sup>(3)</sup>.

وقد برع الشاميون في استغلال أراضيهم بذكائهم وبعدهم نظرهم في توطيد النباتات الآسيوية والإفريقية فيها<sup>(4)</sup>.

(1) رحلة ابن بطوطة، 1/ 119-120.

(2) محمد كرد علي: خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط3، 1983، 4/ 138-139.

(3) مسالك الأبصار، مصر والشام، ص 25-26.

(4) خطط الشام، 4/ 147.

لا شك أن توافر العديد من الموارد الزراعية الأولية والموارد المستخرجة من الأرض، وفر لقيام صناعات عديدة أشهرها الغزل، والحياكة والنساجة والنجارة والدباغة وصناعة الجلد والصدف والرخام والسجاد والحصير وغيرها<sup>(1)</sup>.

لم يقصر دور مصر عن الشام في التقدم الاقتصادي، نظراً لتوافر عوامل الزراعة الناجحة، من تنوع أقاليم وأراضٍ وزراعات، فأراضي مصر عدة أصناف بعضها يجود بالقمح والشعير، ويُنتج بعضها البطيخ واللّوبيا، ويزرع الباذنجان والمشمش والخوخ في بعضها الآخر وهكذا<sup>(2)</sup>، وقد كان هذا التنوع الزراعي أساساً لصناعات عديدة كصناعة المنسوجات المتنوعة، وصناعة السكر والصابون التي تكثرت في الفسطاط<sup>(3)</sup>. وقد طبقت في مصر النظم الاقتصادية المتعلقة بالزراعة والصناعة بمستوى عالٍ من الدقة<sup>(4)</sup>، مما وفر لاقتصادها النجاح والتميز.

وقد تميزت الأسواق في كل من مصر والشام بالضخامة وتنوع ما يعرض فيها، ويصف ابن جبير ما وصلت إليه أسواق دمشق من الارتقاء حين مرّ بها بقوله: «من أحفل الأسواق وأحسنها انتظاماً، وأبدعها وصفاً ... وهي مرتفعات كأنها الفنادق، مسقفة كلها بأبواب حديد، كأنها أبواب القصور، كغيرها من أسواق الشام»<sup>(5)</sup>.

وكانت هناك سوق خاصة لكل سلعة، مثل سوق الأبارين، وسوق النحاسين، وسوق الرطابين، بحيث تعرف أنواع المهن التي امتنوها من خلال أسماء أسواقهم<sup>(6)</sup>.

(1) انظر: خطط الشام، ص 199-227.

(2) المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي: المواعظ والاعتبار بذكر الخط والآثار المعروف بالخطط المقرئزية، دار صادر، بيروت، 1/100-103.

(3) المغرب، الخاص بمصر، ص 11.

(4) أرشيبالد لويس: القوى الحرة والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة: محمد شفيق، مكتبة النهضة، القاهرة 1960، ص 326.

(5) رحلة ابن جبير، 261-262.

(6) ابن عساكر، الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن: تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي بدمشق 1954، ج 2، ق 1/227.



وعرضت في هذه الأسواق في الشام ومصر الثياب والمنسوجات التي أبهرت الصليبيين، فأقبلوا على شرائها وتوريدها إلى أوروبا، كما أمّ هذه الأسواق الكثير من التجار، ومنها انطلقت القوافل المحملة بالديباج والأقمشة مختلفة الأنواع<sup>(1)</sup>.

شكلت مدن الشام محطات تجارية بالغة الأهمية بين الشرق والغرب، إذ كانت ثرواتها موضع اهتمام تجار الفرنجة بصفة عامة، وتجار البندقية بصفة خاصة<sup>(2)</sup>، وقد أدى إعطاء صلاح الدين تسهيلات لتجار البندقية وجنوة وبيزة، إلى وجود تنافس قوي بين تلك المدن، كان له أثر بيّن في تنشيط حركة التجارة، إذ كانت موانئ ساحل الشام مسرحاً للصراع بين هذه الجاليات، لأسباب تتعلق بالمسائل التجارية والكسب<sup>(3)</sup>.

وكان موقع مصر المتميز على البحر المتوسط الذي يصل منذ القديم بين الشرق والغرب، من العوامل التي ساعدتها على التحكم في مياه البحر المتوسط وجزره وسواحلها، والمساهمة في تجارة المشرق بدور كبير، لكثرة قواعدها وطول سواحلها<sup>(4)</sup>، ولم تنقطع حركات القوافل التجارية من مصر إلى دمشق، ومن دمشق إلى عكا<sup>(5)</sup>، إذ كانت عكا أعظم مرفأً بين الموانئ، وقاعدة للتجار ومرسى للسفن، وكان اتصال أوروبا بها أكثر من اتصالها بسواها<sup>(6)</sup>، وانفردت الشام ببعض المنتوجات التي كانت تحمل إلى الديار المصرية، مثل قصب الذهب، وقمر الدين من المشمش، والقنب، والقراصيا<sup>(7)</sup>، وحمل

---

(1) نجاة باشا: التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة، منشورات الجامعة التونسية، 1976، ص 48.

(2) عادل زيتون: أضواء على العلاقات التجارية بين السلطنة الأيوبية وجمهورية البندقية، بحث في مجلة الدراسات التاريخية، جامعة دمشق، سوريا 1980، العدد 2، ص 135.

(3) فايد حمّاد: العلاقات بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي في العصر الأيوبي، دار المعارف بمصر 1980، ص 174، 119.

(4) تاريخ البحرية الإسلامية، 1/ 271.

(5) رحلة ابن جبير، ص 260.

(6) خطط الشام، 4/ 244-245.

(7) البدري، أبو البقاء عبدالله بن محمد: نزهة الأنام في محاسن الشام، المكتبة العربية، بغداد 1341 هـ، 364.

الزيت والخروب من نابلس إلى مصر، كما حمل إليها التين والزبيب من صيدا، والفواكه من بيروت<sup>(1)</sup>.

ومما زاد من أهمية التجارة، اعتماد المدن الصناعية في مصر والشام على بعض السلع المستوردة اللازمة لصناعتها، فشكلت بعض مدن مصر والشام مراكز تجارية لهذه السلع، ومن أشهرها: الفسطاط، والإسكندرية ودمياط وعينذاب، وطرابلس وصيدا وصور، وبعض المدن الداخلية في الشام<sup>(2)</sup>. وقد وصف التجيبي أحد هذه المراكز، وهو مدينة قوص إذ يقول: «هي مدينة عظيمة، أهلة عامرة، من أكبر المدن المشهورة التي رأيناها بهذا الصعيد، من أحفلها بناءً، وهي أرتب من مصر وأتقن، غزيرة المرافق، كثيرة الخلائق، يجتمع فيها الصادر والوارد من التجار، الواصلين من اليمن والهند والحبشة ... ومن المصريين والإسكندريين، ويوجد فيها من بضائع الهند ما لا يكاد يوجد في غيرها من المدن العظام»<sup>(3)</sup>.

ومما ساعد في تقدم التجارة أيضاً، حماية الأيوبيين والمماليك لمصالحها الخارجية، وخاصة الارتباط بالأسواق البعيدة مثل الهند والصين شرقاً، ومناطق القوقاز والقرم شمالاً، والمدن التجارية الإيطالية والفرنسية والإسبانية غرباً<sup>(4)</sup>.

فقد استغلت دولة المماليك فرصة أمن الملاحة والتجارة في شمال البحر الأحمر وجنبه، وعملت جاهدة على جذبها إليها، يؤكد ذلك المنشور الذي أذاعه السلطان المنصور قلاوون سنة (689هـ) على التجار الذين يصلون إلى مصر من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم إذ يقول: «وَمَنْ يُؤْثِرُ الْوُرُودَ إِلَى مَمَالِكِنَا إِنْ أَقَامَ أَوْ تَرَدَّدَ - النِّقْلَةَ لَهُ فِي ذَلِكَ الْخَيْرِ وَالْخَيْرَةُ وَيَحْضُرُ إِلَى بِلَادٍ لَا يَحْتَاجُ صَاحِبَهَا إِلَى مِيرَةٍ، وَلَا إِلَى

(1) رحلة ابن بطوطة، 1/ 80، 81، 82.

(2) تاريخ البحرية الإسلامية، 1/ 162.

(3) مستفاد الرحلة والاغتراب، ص 173.

(4) أحمد صادق سعيد: مصر في عهد الأيوبيين والمماليك، مقال في مجلة دراسات عربية، السنة 15، العدد 6، 1979، ص 32.

ذخيرة، لأنها في الدنيا جنة عدن لمن قطن، ومسلة لمن تعرب عن الوطن، ونزهة لا عليها بصر، والمقيم بها في ربيع دائم، وخير ملازم، ويكفيها أن من بعض أوصافها، أنها شامة الله في أرضه ... فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم، فليأخذ الأهبة في الارتحال إليها، والقدوم عليها ليجد الفعال من المقال أكبر، ويرى إحساناً يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر ويحل منها في بلدة طيبة ورب غفور ... وفي السلامة في النفس والمال، وسعادة تجلي الأحوال، وتمول الأموال»<sup>(1)</sup>.

## 2- التقدم العلمي والفكري والمستوى الحضاري وتوفيره فرص عمل للمرتحلين:

بلغت الدولة في مصر والشام مستوى حضارياً رفيعاً في النواحي العلمية والعمرانية والاجتماعية، حيث أدى الثراء الاقتصادي الناتج عن نشاط التجارة، إلى الاهتمام بهذه المنشآت العلمية والحضارية كالمساجد والمدارس ودور الحديث، والفنادق والحمامات. وكان لهذه المنشآت أثرها في استقطاب الأندلسيين المرتحلين من علماء متخصصين، وصوفية زاهدين، وباحثين عن مصدر رزق وعيش.

حظيت كل من دمشق والقاهرة بتنوع العلوم، وكثرة المشتغلين بها، بعد هجرة كثير من علماء العراق إليهما، لما خرجت بغداد على يد التتار سنة (656هـ) وقد كثر على إثر ذلك العلماء المتخصصون، وتعينت المسائل العلمية، وتنوعت العلوم، وتوفر المشتغلون بها، ونبغ من الشام طبقة عالية، عُدَّت تأليفهم من الأمهات في خزانة كتب الأمة العربية<sup>(2)</sup>، وكانت دمشق مركزاً علمياً للشرق كله، وسبقت القاهرة في هذا المضمار، وأقيمت فيها المدارس، واستحضر العلماء وقصدها الطلبة، وتدفع إليها الكثير من المغاربة يعملون ويدرسون ويجاهدون ويتاجرون<sup>(3)</sup>. وقد شهد هذا العصر بناءً نشطاً للمدارس

(1) القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرحه وعلق عليه: محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987، 13/339-340.

(2) خطط الشام، 4/38.

(3) المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين، ص22-23.

ودور العلم المتخصصة في مختلف العلوم، ويتضح ذلك من قول ابن بطوطة: «وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس»<sup>(1)</sup>.

بدأ الاهتمام بإنشاء دور العلم منذ عصر نور الدين، فقد بنى المدارس والربط والخانقاهات، ووقف عليها الأوقاف، وبنى المدارس الجليلة للحنفية والشافعية، منها المدارس النورية في كل من دمشق وحمص وحلب وحماة، وعمر المساجد الكثيرة والربط للصوفية<sup>(2)</sup>، وأنشأ أول دار حديث بدمشق وهي الدار النورية<sup>(3)</sup>.

سار صلاح الدين والأيوبيون من بعده على هذا النهج في إنشاء دور العلم، ووقفوا عليها الأوقاف، فقد أعاد صلاح الدين كنيسة صُنْدَحْتَه في القدس مدرسة للشافعية وهي المدرسة الصلاحية ووقف عليها الأوقاف، مفوضاً التدريس فيها لبهاء الدين بن شداد<sup>(4)</sup>. ووقف الملك المظفر عيسى بن أيوب على المدرسة المعظمية الحنفية سنة 606هـ، قرى ومزارع<sup>(5)</sup> وبنى الملك الكامل المدرسة الكاملية بمصر، التي كملت عمارتها سنة (621هـ)، وجعل شيخها أحد المرتحلين الأندلسيين، وهو أبو الخطاب ابن دحية، ووليها بعده أخوه<sup>(6)</sup>. وبنى الملك الصالح نجم الدين أيوب في القاهرة أربع مدارس للمذاهب الأربعة سنة (639هـ) منها المدرسة الكاملية التي عدت من أجمل مدارس القاهرة<sup>(7)</sup> كما اهتم المماليك بإنشاء المدارس، فقد بنى الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية القديمة لتدريس

(1) رحلة ابن بطوطة، ص 104-105.

(2) ابن واصل، محمد بن سالم: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، وزارة المعارف، مطبعة جامعة فؤاد الأول القاهرة 1953، 1/ 281-283.

(3) النعيمي، عبد القادر بن محمد: الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، مطبعة الترقى، دمشق، 1948، 1/ 99.

(4) مفرج الكروب، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة 1957، 2/ 230، 407.

(5) محفوظات رئاسة الوزراء، طابو دفترى القدس، نابلس شريط رقم 522، مركز المخطوطات، الجامعة الأردنية، ص 49.

(6) حسن المحاضرة، 2/ 159. انظر عن حياة أبي الخطاب ابن دحية، الملحق، الترجمة رقم 16.

(7) المصدر السابق، ص 159.

الحنفية والشافعية وإقراء القراءات<sup>(1)</sup>. وبنيت الجوامع وما فيها من حلقات العلم، ووقفت عليها الأوقاف، ولعل أشهرها الجامع الأموي بدمشق وحلقاته وشيوخه والأسواق التابعة له ومشاهده التي خصص لكل مشهد منها أوقاف معينة من بساتين وأراضٍ<sup>(2)</sup>، كما عين لكل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه أوقاف تقوم بها وبساكنيها، حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق كل ما فيه<sup>(3)</sup>. ومن أشهر المساجد في مصر المسجد الكبير المنسوب إلى أبي العباس ابن طولون، وقد جعل مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويخلقون فيه، وأجريت عليهم أرزاق واسعة، وقد جعلت لهم الحرية في تطبيق أحكامهم، من قبل أحد المختصين منهم، وبذلك لا يكون لأحد يد عليهم. وقد كثرت المساجد والمدارس بصورة تتعدى الوصف، ففي الإسكندرية وحدها شيد اثنا عشر ألف مسجد، إلى غير ذلك من المعاهد والمفاخر<sup>(4)</sup>.

لم يقتصر التدريس في دور العلم على العلوم الدينية، بل درست علوم العربية، وازدهرت العلوم الحكومية وأصول المنطق<sup>(5)</sup>. وقد انفرد القرن السابع الهجري بإنشاء ثلاث مدارس للطب ومدرسة للهندسة في دمشق، وكان في هذه العاصمة أعظم جامعة إسلامية اشتملت على العلوم الدينية والدنيوية، لا تقصر عن القاهرة بأزهرها، ولا عن بغداد بمدرستها النظامية<sup>(6)</sup>.

ولعل توفر الأسباب المعيشية للمتعلمين، جعلهم يقبلون على العلم، وجعل إنشاء المدارس والقيام على شؤون طلابها من الأعمال التي يتقرب بها إلى الله تعالى كما يقول البدرى عن أهل الشام: «وتقرب إلى الله تعالى أهلها ببناء المدارس، رغبة في جوار المُجَرَّد الفقير البائس، ورتبوا له من الخبز واللحم الطعام، والزيت والحلو والصابون والمصروف

(1) حسن المحاضرة، 160.

(2) الدارس في تاريخ المدارس، 2/ 371، 416، 47، 123.

(3) رحلة ابن جبير، ص 248.

(4) تاج المفرق، 1/ 200.

(5) مفرج الكروب، تحقيق: حسنين محمد ربيع، تقديم: سعيد عاشور، دار الكتب، 1972، 4/ 78، 79.

(6) خطط الشام، 4/ 44.

في كل شهر على الدوام، فيجلس الطالب في شباكها ينظر إلى الماء والخضرة والوجه الحسن، فكيف لا ينبعث إلى طلب العلم ويتحرك من فهمه ما سكن»<sup>(1)</sup>، ولعل هذا من العوامل الرئيسة في جعل هذه البلاد مقصداً للكثير من الأندلسيين، حيث غدت منهلاً خصباً للحصول على أسباب الحياة ووسائل العيش، ولعل الرحالة الأندلسيين خير من صور بلاد الشام من ناحية توافر المصادر المعيشية، فقد زار ابن جبير العديد من مناطق الشام، وصورها بقوله: «وكلُّ من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد، يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ناعم البال، وينهال الخير عليه من أهل الضيعة، ويلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء، ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى...»<sup>(2)</sup>.

وقد كانت هذه دعوة صادقة للأندلسيين بالتوجه إلى الشام، والتفرغ لطلب العلم، لوجود أسباب المعيشة لطالبيه دون عناء يصرفهم عن طلبه، يقول: «فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام، وتغنم الفراغ والانفراد، قبل علق الأهل والأولاد... ولو لم يكن بهذه البلاد المشرقية كلها إلا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء، وإيثار الفقراء لا سيما أهل باديتها، فإنك تجد من يبادر إلى كرم الضيف عجباً، كفى بذلك شرفاً لهم»<sup>(3)</sup>. وهذا ما يؤكده ابن بطوط حينما زار دمشق إذ يقول: «... وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق، لا بد أن يتأتى له وجه من المعاش من إمامة مسجد، أو قراءة بمدرسة، أو ملازمة مسجد يحییء إليه فيه رزقه، أو قراءة قرآن...»<sup>(4)</sup>.

كما كثرت الربط والزوايا والخانقاهات، فقد وقف صلاح الدين الأوقاف على أول خانقاه عملت بمصر، وهي خانقاه سعيد السعداء ونعت شيخها بـ «شيخ الشيوخ»<sup>(5)</sup>،

(1) نزهة الأنام، ص 70-71.

(2) رحلة ابن جبير، ص 259.

(3) المصدر السابق، ص 258.

(4) رحلة ابن بطوطه، 1/ 105.

(5) حسن المحاضرة، 2/ 158.

ثم بنى الناصر محمد بن قلاوون خانقاه سرياقوس، ورثب للصوفية والفقراء طعاماً وخبزاً ولحماً<sup>(1)</sup>، ووقف الشيخ عمر بن عبدالله المغربي زاوية على فقراء المغاربة بأعلى حارتهم في القدس، وأنشأها من ماله<sup>(2)</sup>، وقد كان نور الدين قد عين لهم زاوية بجامع دمشق وأوقف عليها أوقافاً كثيرة، تغل خمسمائة دينار في العام<sup>(3)</sup>. وكانت كل زاوية بمصر لطائفة معينة من الفقراء وكان لكل زاوية شيخ وحارس، وطعام أهل الزوايا مرتان في اليوم، ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف<sup>(4)</sup> وأنشئت الربط للصوفية وكان صلاح الدين قد وقف الأوقاف على الدار المعروفة بدار البطرك، وجعلها رباطاً للواردين من سائر البلاد الشاسعة، وللصوفية بحيث يكون شيخ منهم، ناظراً عليهم، يصرف عليهم من ريع الجهات الموقوفة<sup>(5)</sup>.

وقد تولى التدريس والإقراء في هذه المنشآت العلمية الكثير من الأندلسيين الذين كان لهم دور في الارتقاء بالحركة العلمية، وبلغوا شأواً بعيداً في هذا المجال، فلم يكتف هؤلاء العلماء بأخذ العلم وتلقيه وسماعه، بل شاركوا في التدريس، وترأسوا حلقة الدرس، ومنهم المحدث أحمد بن تميم بن هشام الذي خرج من الأندلس إلى المشرق، وبقي يعمل في ميدان الحديث في دمشق حتى وفاته سنة (625هـ)<sup>(6)</sup>. كما يعد محمد بن يوسف البرزالي من رجال الحديث المتميزين، إذ خرج من إشبيلية وزار عدة مدن إسلامية، وسمع بالحجاز ومصر والعراق وخراسان ودمشق وقد استقر في دمشق يقرئ

(1) حسن المحاضرة، ص 158.

(2) الأنس الجليل، 2/ 46.

(3) رحلة ابن جبير، ص 257.

(4) رحلة ابن بطوطة، 1/ 54.

(5) سجلات المحاكم الشرعية بالقدس، مركز المخطوطات، الجامعة الأردنية، سجل رقم 95، ص 426-427، ومحفوظات رئاسة الوزراء، طابو دفتری القدس. شريط رقم 342، ص 10.

(6) الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد: العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد ابن بسيوني زغلول. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1985، 3/ 195.

الحديث وأفاد الكثيرين إلى أن توفي سنة 636هـ<sup>(1)</sup>. كما تميز المحدث قاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الشافعي حفيد زكي الدين الذي خرج من إشبيلية في أواخر القرن السابع الهجري، وسمع من عدة شيوخ في الحجاز ومصر ودمشق والقدس وحلب وحماة والإسكندرية، وأجيز من الكثيرين، وانتهى به المطاف إلى دمشق، فأقام فيها وتولى مشيخة دار الحديث في المدرسة الأشرفية<sup>(2)</sup>.

ومن الأئمة المغاربة بمدرسة الكلاسة الملتصقة بالجامع الأموي التي جددتها صلاح الدين الأيوبي، وخصصت للملكية، أبو الحسن إسماعيل بن أبي جعفر القرطبي وكان قارئاً محدثاً، توفي سنة (631هـ)<sup>(3)</sup>. كما عمل أبو الحسن المغربي مؤدباً في المدرسة العادلية بدمشق حتى وفاته سنة (626هـ)<sup>(4)</sup>.

ومن المنشآت الحضارية البيمارستانات التي عدها ابن جبير مفخراً من مفاخر الإسلام<sup>(5)</sup>، ووصف ابن جبير بيمارستان السلطان صلاح الدين في القاهرة بأنه «قصرٌ من القصور الرائعة حُسناً واتساعاً»<sup>(6)</sup>، ولهذا البيمارستان قيمٌ من أهل المعرفة، لديه خزائن العقاقير والأدوية بمختلف أنواعها، وفيه قسم خاص للنساء<sup>(7)</sup>. وفي دمشق بيمارستان

---

(1) الكتبي، محمد بن شاکر: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1974، 2/ 263-264. ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، القاهرة، 1942، 9/ 319. ابن العماد الحنبلي، عبدالحی أبو الفلاح، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار المسيرة، بيروت، ط2، 1979، 122/6.

(2) الكتبي، محمد بن شاکر: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1974، 2/ 263-264. ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، القاهرة، 1942، 9/ 319. ابن العماد الحنبلي، عبدالحی أبو الفلاح، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار المسيرة، بيروت، ط2، 1979، 122/6.

(3) الذيل على الروضتين، ص162.

(4) المصدر السابق، ص157.

(5) رحلة ابن جبير، ص256.

(6) المصدر السابق، ص26.

(7) السابق، ص26.



كان قد بناه نور الدين ووقف عليه الأوقاف، وهو وقف على الفقراء والمساكين، ولا يمنع منه الأغنياء إن لم يجدوا دواءً لعللهم إلا فيه<sup>(1)</sup>، كما جدد البيمارستان في حلب، ووقف عليه الأوقاف<sup>(2)</sup>، وقد بلغ هذا البيمارستان درجة من التنظيم زمن صلاح الدين الأيوبي<sup>(3)</sup>.

خدم في هذه البيمارستانات كبار الأطباء، مثل مهذب الدين الدُّخوار<sup>(4)</sup> شيخ الأطباء، ونجم الدين ابن اللبّودي<sup>(5)</sup> الذي أظهر قدرة في العلوم الطبية، وخدم بعض الأطباء الأندلسيين في هذه البيمارستانات، ولعل أشهرهم ابن البيطار ضياء الدين عبدالله ابن أحمد المالقي صاحب كتاب الأدوية المفردة، والذي تحققت عنده معرفة النبات وصفاته وقد خدم في البيمارستان الذي أنشأه العادل<sup>(6)</sup>، كما كان الملك الكامل يعتمد عليه في الكثير من الشؤون الطبية<sup>(7)</sup>، وعمل عبدالمنعم الجلياني الذي قدم من جليانة إحدى مناطق غرناطة في البيمارستان السلطاني أيام صلاح الدين حتى وفاته سنة (603هـ)<sup>(8)</sup>.

---

(1) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن عبدالواحد: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبدالقادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1963، ص 170. رحلة ابن جبير، ص 255.

(2) خطط الشام، 6/ 160-161.

(3) رحلة ابن جبير، ص 255.

(4) مهذب الدين الدُّخوار، أبو محمد عبدالرحيم بن علي المعروف بالدخوار، كان أوحد عصره وفريد دهره كتب كتباً كثيرة، توفي بدمشق سنة (628هـ)، ودفن بقاسيون، انظر، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت 1965، ص 728-733.

(5) نجم الدين ابن اللبّودي: الحكيم أبو زكريا يحيى بن الحكم، وُلد بحلب سنة 607هـ، وخدم الملك المنصور إبراهيم بن الملك أسد الدين شيركوه، واستوزره، انظر عيون الأنباء، ص 663-671.

(6) عيون الأنباء، ص 671.

(7) ابن سعيد المغربي: الغصون اليناعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف مصر، ط 2، 1945، ص 104-106.

(8) رحلة ابن جبير، ص 255.

كما كثرت الحمامات، وقد ذكر أن في الإسكندرية وحدها أربعة آلاف حمام<sup>(1)</sup> كما أن الإربلي حينما زار دمشق أعجبه من خصائصها حسن العماير وكثرة الحمامات، وحسن تقسيم المياه التي تدخل إليها<sup>(2)</sup>.

وقد كان من اتساع اعتناء صلاح الدين بالمغاربة تعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا لذلك، وتولى المغاربة الحمامات في عكا زمن صلاح الدين، فقد «كان في العسكر أكثر من ألف حمام...، وفي كل حمام يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة، ويحفرون ذراعين فيطلع الماء، ويأخذون الطين فيعملون منه حوضاً وحائطاً ويسترونه بحطب وحصير، ويقطعون حطباً من البساتين التي حولهم، ويحْمُونَ الماء في قدور، وصار حماماً يغسل الرجل رأسه بدرهم وأكثر»<sup>(3)</sup>.

وكان للمغاربة وجوه واسعة للعمل، بالإضافة إلى عملهم في الحمامات، فقد يكون الواحد منهم ناظوراً في بستان، أو حافظاً لأبواب داخلية، أو أميناً على طاحونة، أو كافلاً لصبيان يؤديهم إلى محاضرهم ويضربهم إلى منازلهم، وقد كانوا يؤتمنون لأنهم قد علا لهم صيتٌ، وطار لهم ذكرٌ في أمانتهم<sup>(4)</sup>.

لقد أتاح المستوى العلمي والحضاري فرص العيش والعمل للمغاربة، الذين أقبلوا على المشرق لأنهم وجدوا فيه الأمن والانفتاح والرفق والحرص على الرعاية الاجتماعية. كونت مثل تلك الظروف استعداداً نفسياً للاتجاه إلى المشرق منذ فترة سبقت القرن السابع الهجري الذي تغيرت فيه أحوال الأندلس بصورة واضحة، وإن كانت الأحداث

(1) تاج المفرق، 1/ 200.

(2) محاسن دمشق وحماماتها ومدارسها (مخطوط)، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق شريط رقم 6692، ورقة 146. وقد طبع هذا الكتاب بمطبعة دمشق سنة 1948، وقام بتحقيقه محمد أحمد دهمان، وذلك ما أثبتته علي أحمد في مصادر كتابه (الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام) ولم تعثر الباحثة على المطبوع.

(3) السلوك، 1/ ق/ 94.

(4) رحلة ابن جبير، ص 251.

التي سبقت الاجتياح تنذر بمصير الأندلس، إلا أن نية الارتحال إلى المشرق موجودة عند أهل الأندلس لاعتبارات وظروف وقفنا عندها، ويشير ابن بقي الطليطلي (ت 540هـ) إلى ذلك بقوله:

وَلِيْهِمْ سَتَقْدِفُ بِيْ بِلَادًا      نَأَتْ إِمَّا الْعِرَاقَ أَوْ الشَّامَا  
وَالْحَقُّ بِالْأَعَارِبِ اعْتِلَاءٌ      بِهِمْ وَأَجِيدُ مَدَحُهُمْ اهْتِمَامًا<sup>(1)</sup>

ولعل هذا الحنين للاتصال بالأعريب في المشرق ومدحهم، يؤكد مدى الارتباط الوجداني والتواصل بين المشاركة والمغاربة، وقد وردت إشارة بذلك لتاج الدين السرخسي<sup>(2)</sup> من المشرق في رحلة مفقودة له، إذ يقول: «إني وإن كنتُ حُرَاسانيّ الطينة، فإني شاميّ المدينة، وإن كانت العمومة من المشرق، فإن الخؤولة من المغرب»<sup>(3)</sup>.

فلم يقتصر هذا الإحساس بالارتباط والتواصل على الأندلسيين وحدهم أو على المشاركة وحدهم كما تبيننا، بل هو اتجاه مشترك، يؤكد التواصل العلمي والفكري والأدبي والاجتماعي، الذي سنتبينه في دراسة موضوعات الشعر، وما تحمله من أثر هذا التواصل في مناحٍ شتى.

(1) صلاح جرار، يحيى بن بقي حياته وأدبه، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1977، ص 356.

(2) السرخسي: تاج الدين بن همويه، وُلد سنة 572هـ، كان فاضلاً نزيهاً، زار الأندلس والمغرب. الذيل على الروضتين، 174.

(3) النفح، 3/ 101.

## الفصل الثاني موضوعات شعر النازحين

### علاقة الشعراء بالملوك والسلاطين وكبار رجال الدولة

كان ارتحال الشعراء الأندلسيين من بلادهم، نتيجة اختلال الأوضاع السياسية في الأندلس وغير ذلك من العوامل كما بيّنا في الفصل الأول، وقد ساهمت بيئة مصر والشام الجديدة في توجيه شعر هؤلاء وجهات معينة، نتيجة للأحوال التي عايشوها في موطنهم الجديد. فقد أكثروا من مدح الأمراء والحكام والقضاة والوزراء طالبين منهم النصرة في ديار غربتهم. كما تفاعل الشعراء مع الأحداث السياسية في المشرق، وعبروا عن نقيمتهم على الصليبيين، وامتدحوا قواد المشرق من خلال ذلك.

امتدح الشعراء ملوك الأيوبيين الذين كانت لهم اليد الطولى في الإحسان إليهم، بعد أن تباعدت بهم الديار، وأضحوا غرباء ينشدون منهم رفع الضيم فكانوا أوفياء لفضلهم، لديهم الولاء لهم، كما يقول ابن دحية في امتداح الملك الكامل بن العادل الأيوبي (ت 635هـ) بكمال الأوصاف، وعظم الملك وإقامة العدل:

شَجَنِي شَوَاجٍ فِي الْغُصُونِ سَوَاجِعُ	فَفَاضَتْ هَوَامٍ لِلْجُفُونِ هَوَامِعُ
وَلَا حَاكِمٌ أَرْضَاهُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا	سِوَى حَاكِمٍ دَهْرِي لَهُ الْيَوْمَ طَائِعُ
يُدَافِعُ عَنِّي الضَّيْمَ قَائِمٌ سَيْفِهِ	إِذَا عَزَّ مِنْ الضَّيْمِ عَنِّي يُدَافِعُ
هُوَ الْكَامِلُ الْأَوْصَافِ وَالْمَلِكُ الَّذِي	تَشِيرُ إِلَيْهِ بِالْكَامِلِ الْأَصَابِعُ

وبيضُ أبايديه الكريمة في الوري قلائد في الأعناق وهي الصنائع<sup>(1)</sup>

كان هذا الولاء للأيوبيين ينبع من عدلهم، وحسن معاملتهم واحترامهم للعلماء لا سيما علماء المغاربة، وقد كان ابن دحية قد حظي بمكانة خاصة عند الأيوبيين فقربوا مكانه، وجمعوا له علماء الحديث، وحضروا له مجلساً، وأقروا له بالتقدم، وكان الملك الكامل قد بنى له دار الحديث الكاملية بين القصرين والقاهرة<sup>(2)</sup> فقيده بإحسانه، إذ يقول:

ولو لم يقيّدني نذاك لكان لي مجالٌ فسيحٌ في البسيطة واسِعُ  
فأنت الذي لي والأعادي كثيرةٌ فويق مكان النجم في الأفق دافع<sup>(3)</sup>

وقد بالغ الشعراء في مدح الأيوبيين حتى شبهوهم بالملائكة لشدة تقواهم، يقول ابن خروف القرطبي<sup>(4)</sup> في مدح الملك الظاهر أبي الفتح غازي بن صلاح الدين صاحب حلب:

شمس الهداية في أنباء أيوبٍ أخت النبوة في أنباء يعقوب  
هم الملائك في زي الملوك وهم أسد الخروب وأقطاب المحارب<sup>(5)</sup>

وكتب ابن سعيد على تفاحية أهديت للملك الصالح نجم الدين أيوب، إذ يقول بلسان حالها:

أنالون الشباب والخال أهديت لمن كسا الزمان شبابا  
ملك العالمين نجم بني أيوب ولا زال في المعالي شهابا

(1) الغبريني: أبو العباس أحمد بن عبدالله: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت، ط 1، 1969، ص 275-276. النفح، 2/ 101.

(2) السلوك، ج 1، ق 2، ص 258. حسن المحاضرة، 2/ 3، النفح 2/ 102.

(3) النفح، 2/ 102.

(4) انظر الملحق، الترجمة رقم (25).

(5) الغصون الياينة، ص 139.

جئتُ ملأى من الثناء عليه      من شكور إحسانه والثوابا  
لستُ ممن له خطابٌ ولكن      قد كفاني أريجُ عَرَفِي خطاباً<sup>(1)</sup>

ولعلَّ الملك الناصر صاحب حلب، من أكثر ملوك الأيوبيين الذين امتدحهم الشعراء، لما أولاه للشعراء من اهتمام، فقد كان يقول الشعر ويمجيز عليه<sup>(2)</sup>، وبلغ الشعراء عنده حظوة ومكانة، بالإضافة إلى ما يتصف به من حلم وعدل وحُسن خلق، وعطاء كما يقول ابن سعيد في قصيدة ناصرية طالباً العطاء:

جُدْ لي بما ألقى الخيال من الكرى      لا بُدَّ للضيف المِلْم من القرى  
الناصرُ الملكُ الذي عَزَمائِهِ      أبداً تكونُ مع العساكرِ عَسْكَرا  
الَّذِينَ أَصْلَحَهُ وَعَمَّ صَلَاحُهُ الدُّنْيَا وَأَصْبَحَ نَاصِراً وَمُظَفَّراً  
فَكَأَنَّ كَيْتَهُ غَدَتْ مَوْضُوعَةً      مِنْ رَبِّهِ وَالْوَصْفُ مِنْهُ مُقَرَّراً  
فلا غرابة أن يجمع كلُّ هذه الصفات، وهو من بني أيوب، أهل الفضل والرياسة والمعالي والشجاعة:

من مَعَشَرَ خَرَوْا الزمانَ رِياسَةً      وسياسةً حَلَّوا الذرى حُمْرَ الدَّرَا<sup>(3)</sup>  
سَمُّ العُدَاةِ على حِياءٍ فِيهِمْ      لا تَعَجَّبَنَّ كَذَاكَ آسَاذُ الشَّرَى  
حَتَّى ظَبَاهُمْ فِي الحِياءِ مِثْلَهُمْ      أَبَدَتْ وَقَدْ أَرَدَتْ مُحْيَا أَحْمَرا  
وَبِيضِهِمْ قَدْ تَوَجَّعُوا أَعْدَاءَهُمْ      حَتَّى العِدا حَلَّوا لَكَيْما تَشْكُرا<sup>(4)</sup>  
كما امتدحه ابن المناصيف القرطبي<sup>(5)</sup> في قصيدة أولها:

(1) النفع، 2/ 266.

(2) العبر، 3/ 297.

(3) الدَّرَا: الكنف والحماية. لسان العرب، مادة دَرَوَ.

(4) المغرب، 2/ 175. الإحاطة، 2/ 156.

(5) انظر الملحق، الترجمة رقم (52).

دَانَتْ لَكَ الْعُرْبُ طَوَّعَ الْحَقِّ وَالْعَجَمُ وَأَصْبَحَ الدَّهْرُ مِنْ عَلَيْكَ يَتَسِمُ<sup>(1)</sup>

ويمتدح الشاعر يحيى بن سليمان بن شاذول الطليطلي<sup>(2)</sup> الأشرف موسى<sup>(3)</sup> الأيوبي بآسسه وعزمه وكرمه، وراداً على الذين أنكروا على يهودي مثله امتداح الملك الأشرف، ردّاً عقائدياً لطيفاً:

بَسِیُوفَ عَزَمَتِكَ الْقَضَاءُ يَصُولُ وَمَضَاءُ بِأَسِّكَ فِي يَدَيْهِ نُصُولُ  
لِفِرْنَدِ سَيْفِكَ مِنْ بَهَائِكَ رَوْنَقُ بَكْلَاهُمَا مَاءُ الْجَلَالِ يَجُولُ  
لَكِنَّ وَصْفَكَ مُفْجِحٌ أَهْلَ النَّهْيِ سَيَّانَ فِيهِ عَالَمٌ وَجْهٌ وَوَلُ  
قَالَ الْعَدَا، مَا لِلْيَهُودِ وَلِلنَّدَى فَأَجَبْتُهُمْ أَخْطَاكُمْ التَّحْصِيلُ  
مَا شَقَّ مُوسَى بِحَرَ جُودٍ لِلْوَرَى إِلَّا لِيَعْبُرَ فِيهِ إِسْرَائِيلُ<sup>(4)</sup>

وقد عُني الشعراء بالأحداث السياسية في المشرق، وعبروا عن روحهم الانتصارات التي يحققها ملوك الأيوبيين، ولعل من أبرزها الانتصار الذي حققه الأيوبيون باستردادهم دمياط من الفرنج سنة (618هـ)، إذ كان المعظم عيسى من أحرص الناس على خلاصها، وسار مع أخيه الملك الأشرف موسى إلى مصر، والتقى بالملك الكامل بن العادل الذي لجأ إلى خطة أوقعت بالفرنج، فقد فتح المسلمون عليهم التُّرع وأحدقت بهم العساكر وقطعت عنهم الميرة، فبعثوا يطلبون الصلح مقابل تسليم دمياط<sup>(5)</sup>، وقد عبّر الفتح بن حماد<sup>(6)</sup> عن ذلك، مهنئاً الملك الأشرف إذ يقول، متهجاً بالنصر، وإحقاق الحق:

(1) المغرب، 105/1. لم يكمل ابن سعيد القصيدة، بل ذكر أولها فقط.

(2) انظر الملحق، الترجمة رقم (55).

(3) الأشرف موسى: أبو الفتح موسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، توفي سنة (635هـ) بقلعته في دمشق، تولى دمشق بعده أخوه الملك الصالح إسماعيل. انظر الذيل على الروضتين، ص 165. السلوك، ج 1، ق 1، ص 256.

(4) ابن الشعار الموصلي، عقود الجهاد في شعراء هذا الزمان (مخطوط)، مكتبة الجامعة الأردنية، ج 9، ورقة 228-229.

(5) الذيل على الروضتين، ص 128-129، الصفدي، خليل بن أيك: الوافي بالوفيات، باعتناء هلموت ريتز. فرانز شتاينر بليسبادن، ط 2، 1962، 1/196.

(6) انظر الملحق، الترجمة رقم (31).

اللهُ أَكْبَرُ هَـذِي أَكْبَرُ الرُّتَبِ      شَاهَتْ لَهَا أَوْجُهُ الْأَوْثَانِ وَالصُّلْبِ  
وَحَصَّحَصَ الْحَقُّ وَانْجَابَتْ غِيَاهِبُهُ      وَاجْتُنَّتْ دَابِرُ أَهْلِ الشَّرِكِ وَالرَّيْبِ

ثم يُبَيِّنُ حُسْنَ تَدْبِيرِ الْمُلُوكِ، وَإِحْكَامِهِمْ خُطَّةَ الْمَعْرَكَةِ، وَيَمْدَحُهُمْ مَوْرِيًّا بِأَسْمَائِهِمْ:

يَا لِلْعَجَايِبِ عَيْسَى وَهُوَ عِنْدَهُمْ      رَبُّ دَاعَاهُمْ إِلَى التَّقْوَى فَلَمْ تُجِبْ  
وَلَمْ يَزَلْ وَهُوَ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْذَرُهُمْ      آيَاتِ مُوسَى وَمَا فِيهَا مِنَ الْعَجَبِ  
فَجَاءَ عَيْسَى رَسُولًا مِنْ مُحَمَّدِهِ      إِلَى أَبِي الْفَتْحِ مُوسَى الْبَطْشِ وَالرَّهَبِ  
فَجَاءَ مُوسَى لِدِمْيَاطٍ عَلَى قَدَرٍ      وَالنَّصْرُ يَقْدُمُهُ فِي جِحْفَلٍ لِحَبِ

ثم يصف ما آل إليه الرنج من القتل الذي حاولوا الهروب منه، لكن السيف كان بانتظارهم، فأرغموا على تسليم دمياط:

وَصَالَ مَا بَيْنَ دِمْيَاطٍ وَبَيْنَهُمْ      بَكْلٌ مَرْتَقِبٌ لِلْهَوْلِ مُرْتَكِبٌ  
مُسْتَيْقِنِينَ بِأَنَّ اللَّهَ خَائَهُمْ      وَأَنْ مَرَجِعَهُمْ لِلسَّيْفِ وَالْهَرَبِ  
وَأَيْنَ يُهْرَبُ مِنْ مُوسَى وَفِي يَدِهِ الدُّنْيَا جَمِيعًا وَخَيْلُ اللَّهِ فِي الطَّلَبِ      فَلَسَلُمُوهَا وَمَا جَادُوا بِهَا كَرَمًا  
لَكُنْهُمْ قَدْ فَدُّوا الْمَسْلُوبَ بِالسَّلْبِ<sup>(1)</sup>

ويمتدح ابن سعيد الملك الناصر، حينما فتح دمشق، بعد موت الملك الصالح نجم الدين أيوب، يقول واصفًا دمشق ملقيةً قيادها إليه، غير ممتنعة على ما كانت فيه من التحصين:

أَمَّا دِمَشْقُ فَقَدْ أَلْقَتْ أَرْمَتَهَا      عَلَى يَدَيْكَ عَلَى حُسْنٍ وَتَحْصِينِ  
لَمْ تَمْتَنِعْ عِنْدَمَا قَارَبْتَ سَاحَتَهَا      وَجَالَ جَيْشُكَ فِي تِلْكَ الْمِيَادِينِ  
لَمْ نَهَضْتَ إِلَيْهَا وَهِيَ عَاصِيَةٌ      تَلَفَعَتْ مِنْ حِيَاءٍ بِالْبَسَاتِينِ

(1) انظر القصيدة، عقود الجمان (ميكرو فيلم)، رقم الشريط 1855، ج 5، ورقة 259.



مثل العروس تجلّت في ملابسها بكل ما جلّ من حسن وتزيين<sup>(1)</sup>  
وتعاطف ابن سعيد مع ما حدث للملك المعظم تورانشاه<sup>(2)</sup>، لما سار من حصن  
كيفاً وآل أمره إلى الملك، ثم القتل والهلاك، يقول:

ليت المعظم لم يسّر من حصنه يوماً ولا وافى إلى أملاكه  
إنّ العناصر إذ رأته مكمّلاً حسدته فاجتمعت على إهلاكه<sup>(3)</sup>  
وهناك إشارة إلى مدح ابن خروف للملك الأفضل ابن الملك الناصر صلاح الدين،  
والملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر<sup>(4)</sup>.

كما اتصل المرتلون بالوزراء والقضاة، ممتدحين ما أولوهم إياه من رعاية وأمن، وهو  
أحوج ما يكونون إليه في غربتهم، من ذلك ما يقوله أبو عبدالله الغماري<sup>(5)</sup> في مدح الوزير  
أبي نصر إبراهيم بن يوسف الشيباني بحلب:

وقد جمعت نفرة الطربي وبطش الأسدي  
وليس لي منك حمى إلا حمى المؤيد  
فقال لي كُن آمناً وابشر بنيل المقصد  
إنّ المؤيد الذي استجدت خير منجد

ثم يثني على كرمه وطيب أصله، مؤكداً على فضائله في رعايته وإعزاز جاره:

- 
- (1) ابن سعيد المغربي، اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلّى، اختصره أبو عبدالله محمد بن خليل،  
تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1980، ص7.
- (2) الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، كانت إقامته بحصن  
كيفاً (بديار بكر) نائباً عن أبيه. لما توفي سنة (647هـ)، استدعته شجرة الدر إلى مصر فجاء واسترد  
دمياط، فحرّضت عليه المماليك البحرية فقتلوه سنة (648هـ). انظر، وفيات الأعيان، 86/5.
- البداية والنهاية، 13/192.
- (3) النفح، 2/303.
- (4) انظر الوافي بالوفيات، 22/90.
- (5) انظر الملحق، الترجمة رقم (50).

أشهرُ أهلِ الأرضِ في مَكَمِ وسوسِ وُدِدِ  
أطهرُهم في شرفِ الأصْلِ وطيبِ المحتدِ  
أعزُّهم جِـاراً وأوفى أهماً بحسنِ الموءِدِ  
دامتْ لهُ النعمةُ والسَّعةُ دوامَ الأبـِدِ<sup>(1)</sup>

أما القاضي كمال الدين بن أبي جراحة<sup>(2)</sup>، فقد غدا مأوى الغريب، وراحة المسكين،  
وحمى لكل ضعيف بعيد عن أهله، كما يقول يحيى بن غانم<sup>(3)</sup> ممتدحاً إياه:

وتركتُ للشوقِ الدِّيارَ وأهلَها وقصدتُ مُتَجِعاً كمالَ الدِّينِ  
العالمِ الصِّدْرَ الَّذِي بِفنائِهِ مَأوى الغريبِ وراحةُ المسكينِ  
طَلَقَ المُحيّا سيِّداً مُتَواضِعاً بادي السَّكينةِ شامِخَ العِرنينِ

ثم يدعو له أن يُوقى أسبابَ الفراق، حتى لا يعاني ما عاناه هو من آلام الفراق:

وَقِيَتْ أسبابَ الفراقِ ودمتَ في دَعَاٍ ولا حَمَلَتْ مِثْلَ شُجُونِي  
وبقيتَ في حَلَبٍ على رُغمِ العِدا في كُلِّ خَطْبٍ مُنْجِدِي ومُعِينِي<sup>(4)</sup>

ويردد الشعراء معاني الاستجارة والحماية وطلب العون من رجال الدولة في قصائدهم،  
من ذلك أيضاً القصيدة الطويلة التي يمدح بها الفتح بن حمّاد أحد قضاة حلب<sup>(5)</sup>.

(1) عقود الجمان، ميكروفيلم، رقم الشريط (1855)، ج7، ورقة 218.

(2) هو كمال الدين بن أبي جراحة، المعروف بابن العديم، مؤرخ محدث، ولد بحلب ورحل إلى دمشق وفلسطين والحجاز والعراق. توفي في القاهرة سنة 660 هـ. انظر فوات الوفيات، 3/ 126-129.

الوفاي بالوفيات، 22/ 421-426. النجوم الزاهرة، 7/ 208-209.

(3) انظر الملحق، الترجمة رقم (56).

(4) عقود الجمان، ميكروفيلم، رقم الشريط (1045)، ج10، ورقة 21-22.

(5) انظر القصيدة عقود الجمان، ميكروفيلم، رقم الشريط (1855)، ج5، ورقة 256-258. الخط غير واضح.

ولم يتورع بعض الشعراء، من وصف القضاة بانعدام الذوق الأدبي، كما كان من ابن الجتن الشاطبي<sup>(1)</sup>، الذي أنشد عند القاضي شمس الدين ابن خلكان وهو ينوب في الحكم بالقاهرة أبياته التي يقول فيها:

عَرَفُ النِّسَمِ بِعَرَفِكُمْ يَتَعَرَّفُ      وَأَخُو الْغَرَامِ بِحُبِّكُمْ يَتَشَرَّفُ  
شَرَفُ الْمُتَسَيِّمِ فِي هَوَاكُمُ أَنَّه      طَوْرًا يَنْوُحُ وَتَارَةً يَتَلَهَّفُ  
لَطَفْتُ مَعَانِيهِ فَهَبَّ مَعَ الصَّبَا      فَرَقِيئُهُ بِمُحِبِّهِ لَا يَعْرِفُ  
وَإِذَا الرَّقِيبُ دَرَى بِهِ فَلَأَنَّه      أَخْفَى لَدَيْهِ مِنَ النَّسِيمِ وَالْطَّفُ  
وَلَأَنَّه يَعْدُو النَّسِيمُ دِيَارَهُمْ      وَلَهُ عَلَى تِلْكَ الرُّبُوعِ تَوَقَّفُ

فقال القاضي شمس الدين: يا شيخ فخر الدين لطفتُ إلى أن عادَ لا شيء، فالتفت وقال بلسانه ... بما معناه، أن القاضي ... ما له ذوق<sup>(2)</sup>.

لقد كانت تجمع الشعراء المرتحلين بكبار رجال الدولة علاقات، تقوم في معظمها على التكسب والاستعطاف وطلب الحماية، ولا ينفي ذلك تقدير الملوك والقواد والقضاة لعلمائهم، وإدراك فضلهم، وإعزاز جانبهم، وإغداق الخيرات عليهم، ولعل الأحوال التي عايشها المرتحلون في الوطن الجديد، والتي لم تخل من المضايقات، والشعور بألم الغربة، والحاجة إلى العون ممن هم في موقع الأمر والنهي، أدت إلى توجيه معظم شعرهم السياسي هذه الوجهة.

### الغربة، والحنين إلى الوطن

يكاد الشعور بالغربة يشمل معظم قصائد الأندلسيين في أغراضها المختلفة، في علاقاتهم بالملوك والوزراء والقضاة، وفي علاقاتهم بالمدن والجزر والأنهار في المشرق، وفي مطارحاتهم ومجالسهم. فكل ما يروونه في المشرق يذكرهم بأندلسهم الذي فقدوه، فيقارنون بين أيامهم الماضية في وطنهم، وبين الظروف التي يعانونها في مدن المشرق، فقد

(1) انظر الملحق، الترجمة رقم (41).

(2) انظر الأبيات والحادثة في فوات الوفيات، 3/ 263-264.

أصبحت الغربية هاجساً يسكنهم، يرددون ألفاظها ومعانيها المختلفة في معظم ما يكتبون،  
مكثرين فيه من الحنين الدائم لفردوسهم الذي فقدوه، وتناؤوا عنه.

لقد ارتبطت الغربية بالرحيل القسري الذي باعد بين الأندلسيين ووطنهم، بعد  
توالي سقوط المدن الأندلسية، وإذا كان الوطن قد انتزع فالشعور بالغربة والألم والشكوى  
والتحسر على فوات المطالب لا ينفك يلازمهم.

حرص المغاربة أن يعطوا أفضل انطباع عنهم في ديار الغربية، وهذا شأن الغريب في  
غير وطنه، لقد كانوا أفراداً فاعلين في كافة المجالات في المجتمع المشرقي كما تبيّن في  
الفصل الأول من خلال دورهم في الحياة العلمية والحضارية، ووظائفهم في الحمامات  
والبيمارستانات والمرافق الأخرى. وقد كانت هذه الغربية كما رأينا، تزيد من حرصهم على  
التقرب من ذوي الشأن، وهذا قد يفسر مدحهم واستعطافهم للملوك والوزراء والقضاة،  
وقد اشتملت وصية موسى بن عبد الملك بن سعيد<sup>(1)</sup> لابنه علي على معظم هذه الجوانب،  
حين أراد النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة، فكانت أبياته إماماً ودليلاً له في  
الغربة، إذ يقول:

أودعُكَ الرَّحْمَنَ فِي غُرْبَتِكَ	مُرْتَقِباً رُحْمَاهُ فِي أُوبَتِكَ
فليس يُدرى أَضْلُ ذِي غُرْبَةٍ	وإنما تُعرَف من شِيَمَتِكَ
وكلُّ ما يفضي لَعْدِرٍ فلا	تَجْعَلُهُ فِي الْغُرْبَةِ مِنْ إِرْبَتِكَ
ولا تجادِلْ أبداً حاسداً	فإنَّه أدعى إلى هَيْبَتِكَ

ثم ينصحه بالتقرب إلى ذوي الشأن من رجال الدولة مفسراً ذلك:

ولا تَكُنْ تَحْقِرُ ذَا رُتْبَةٍ	فإنَّه أنْفَعُ فِي غُرْبَتِكَ
حيثما خِيَمَتْ فاقصِدْ إلى	صحبة من ترجوه في نُصْرَتِكَ <sup>(2)</sup>

(1) انظر الملحق، الترجمة رقم (54).

(2) النسخ، 2/ 353-354.

ثم دعا ابن سعيد ابنه إلى التحلي بحسن الخلق، ورجاحة العقل، مدعماً ذلك بأقوال الشعراء في الغربة، يقول أحدهم:

يزينُ الغريبَ إذا ما اغترَبَ      ثلاثُ فمَنهنَّ حَسَنُ الأدبِ  
وثانيَّةٌ حُسْنُ أخلاقِهِ      وثالثَةٌ اجتنابُ الرِّيبِ  
ويقول آخر:

يَعْدُ رَفِيعَ القومِ من كان عاقلاً      وإن لم يكن في قومِهِ بحَسِبِ  
إذا حلَّ أرضاً عاش فيها بعقلِهِ      وما عاقِلٌ في بلدةٍ بغريبِ<sup>(1)</sup>

لكن كيف عبّر الشعراء عن غربتهم؟ وهل كانت رجاحة العقل، وحسن الخلق مخرجاً للتغلب على الصعوبات التي واجهتهم؟ وهل وجدوا في البيئة الجديدة سلوهم وأنسهم؟ لقد ربط الشعراء في قصائدهم ومقطعاتهم، الغربة بصور مشؤومة، موحشة، كالغراب، والذئب، أو بما يدل على الرحيل كالجمل، كما في قول ابن عتبة الإشبيلي:

أما الغرابُ فإنه سَبَبُ النوى      لا ريبَ فيه وللنوى أسبابُ  
يدعو الغرابُ وبعد ذاك يجيئُهُ      جَمَلٌ وتعوي بعد ذاك ذئابُ<sup>(2)</sup>

وينذرُ صوت الغراب بفراق وشيك، عندها ينقطع الرجاء من التواصل والعودة، يقول ابن سعيد في صورة مستقصية لما في الغراب مما يُتطيّر به:

إذا ما غرابُ البينِ صاحَ فقلْ لَهُ      ترفَّقْ رماكَ اللهُ يا طيرُ بالبُعدِ  
تصبحُ بنوحٍ ثمَّ تعثُرُ ماشياً      وتبرزُ في ثوب من الحزنِ مُسودَّ  
متى لَحَّتْ صَحَّ البينُ وانقطعَ الرجا      كأنَّكَ من وشكِ الفراقِ على وَعْدِ<sup>(3)</sup>

(1) النفح، 2/ 355.

(2) المصدر السابق، 2/ 112.

(3) رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات، دمشق، ط1، 1987، ص180. وقد ورد البيتان الأول والثاني فقط في النفح، 2/ 267.

ولعل ابن سعيد من أكثر الشعراء تعبيراً عن الغربة وما تبعته في النفوس من ألم وشكوى بكل صورها، ويكاد يتجاذب شعره طرفان مترابطان هما: الشكوى من الغربة، والحنين إلى الوطن. لذا فإننا نرتكز في بيان معظم صور الغربة والحنين على دراسة الشعور بالغربة في شعره، ومدى تباين درجاتها في البيئات التي عاش فيها ابن سعيد بحكم ترحاله الدائم.

يلاحظ من خلال شعر ابن سعيد أن الإحساس بالغربة عنده كان مبكراً جداً وقبل أن يغادر بلاده إلى تونس أو المشرق، من ذلك القصيدة التي قالها بقرمونة<sup>(1)</sup> متشوقاً إلى غرناطة، والتي جاء في بعض أبياتها قوله:

أَغْنِي إِذَا غَنَى الْحَمَامُ الْمُطَرَّبُ      بِكَأْسِهَا وَسَوَاسُ فِكْرِي يُنْهَبُ  
وَمِلْ مِيلَةً حَتَّى أَعَانِقَ أَيْكَةً      وَأَلْتُمُ ثَغْرًا فِيهِ لِلصَّبِّ مَشْرَبُ  
فَأَيْنَ زَمَانٌ لَمْ يُخْنِي سَاعَةً      بِهِ وَهُوَ مِنِّي فِي التَّعْنُمِ أَرْغَبُ  
فِي أَلَيْتَ مَا وَلَّى مُعَادُ نَعِيمُهُ      وَأَيُّ نَعِيمٍ عِنْدَ مَنْ يَتَغَرَّبُ؟!<sup>(2)</sup>

لقد عدَّ ابن سعيد بعده عن غرناطة غربة، وحنَّ إلى أيام أُنْسِهِ ونعيمه فيها، ثم لا يلبث أن يبكي زماناً تقضى فيها، ويحنُّ إليه، إذ يقول:

حَبَّذَا عَيْشٌ قَطَعْنَاهُ لَدَى      مَعْطَفِ الْخَابُورِ مَا فِيهِ نَصَبُ  
أَيُّ عَيْشٍ سَمَحَ الدَّهْرُ بِهِ      كُلُّ نُعْمَى ذَهَبَتْ لَمَّا ذَهَبَ<sup>(3)</sup>

وتزداد صورة الحنين في شعره وضوحاً، حينما يترك ملاعب صباه في إشبيلية ويذهب إلى مالقة، فيضحى أسير شوق، ساهراً ليله، باحثاً عن أترابه، يقول متشوقاً إلى الجزيرة الخضراء الإشبيلية:

(1) قرمونة (Carmona): مدينة كبيرة تقع شرق إشبيلية، تمتاز بحصانتها، وفيها آثار كثيرة ودار صناعة. الروض المعطار، ص 461.  
(2) النفح، 2/ 283، 284، 285.  
(3) المصدر السابق، 2/ 289.

يا نسيماً من نحو تلك النواحي      كيف بالله نورُ تلك البطاح  
يا زماني بالحاجيةِ إنِّي      لستُ من سُكرٍ ما لقيتُ بصاحي  
آه مما لقيتُ بعدَكَ من همٍّ وشوقٍ وغربةٍ وانتزاح  
أينَ قومُ ألفتُهُم فيكَ لما      قَرَبَ الدهرُ أذنوا بالزواج  
تركوني أسيرَ وجِدٍ وشوقٍ      ما لِقَلبي من الجوى من سراح  
أشهرُ الليلَ لستُ أغفي لُصُبحِ      أترى النومَ ذاهباً بالصباح  
إنَّ يومَ الفراقِ بدَّدَ شملِي      طائراً ليتَّه بغيرِ جناح<sup>(1)</sup>

وفي مرسية بشرق الأندلس، يزداد إحساسه، بالاغتراب، ويصور مكابדתه ومساءلته  
عن ربوع إشبيلية، طالباً من الحمام أن يعيره جناحاً ليطير به إليها، يقول:

أقلِّقْهُ وجِدُّهُ فباحا      وزاد تبريُّحُهُ فَناحا  
ورام يثنِّي الدَموعَ لما      جَرَتْ فزادت له جِماحا  
يكابدُ الموتَ كُلَّ حينٍ      لو أنَّهُ ماتَ لاستراحا  
يَنزُو<sup>(2)</sup> إذا ما الرياحُ هبَّتْ      كأنَّهُ يعشقُ الرِّياحا  
كم قد بكى للحمام كيما      يُعيرُهُ نحوَهَا جناحا<sup>(3)</sup>

ولعل تنقل ابن سعيد المبكر مع والده وخروجه من إشبيلية، ومرافقة والده في رحلاته، قد أوجد مثل هذه النزعة في شعره، كما أن حياته في إشبيلية كان فيها من الاستقرار ما جعله يتعلق بها، بالإضافة إلى أنه وُلد في الفترة التي بدأ فيها الزحف الإسباني يقترب بعد موقعة العقاب سنة (609هـ) مما كوّن استعداداً نفسياً لدى

(1) النفح، 2/ 308.

(2) ينزو: يثور ويتحرك ما في داخله من الوجد، المعجم الوسيط، مادة: نَزَوَ.

(3) النفح، 2/ 307.

الأندلسيين للاغتراب<sup>(1)</sup>. إلى جانب طبيعة تكوين ابن سعيد، التي جعلت لديه استعداداً للتشبع بشعور الغربة والحنين.

إذا كان الشعور بالغربة، والبكاء على أيام الأنس والصبا في شعر ابن سعيد وهو داخل حدود الأندلس، فإنه اتسع وازداد حينها حلّ مع أبيه في بلاط السلطان الحفصي أبي زكريا في تونس، وتقلبت به الأحوال وكثرت القلاقل والوشايات، مما زاد من شعوره الحادّ بالغربة التي يساويها بالموت، لا سيما حينما اشتد الخلاف بينه وبين ابن عمه الرئيس أبي عبدالله ابن الحسين<sup>(2)</sup>، إذ يقول في بعض أبيات قصيدته:

هل الهجرُ إلا أن يطولَ التجنُّبُ      ويبعدَ من قد كانَ منه التقرُّبُ  
إلى الله أشكو غدرَكم وملاكُكم      وقلبا له ذاك التعذُّبُ يعذُّبُ  
فهلاً رعيتمُ أنَّهُ في ذراكمُ      غريبٌ وليس الموتُ إلا التغرُّبُ<sup>(3)</sup>

ثم يشكو أصحاب المنافقين الذين فضلت الغربة على مصاحبتهم إن قورنت بهم فهم داءٌ دفين، وذئاب تُخفي حقدَها بالسنة معسولة، فعدت غربته غربتين؛ غربة البُعد عن الوطن، وغربة العالم المتأدب بين قوم جُهل، يقول:

صاحبٌ هم الداءُ الدفينُ فليتني      ولم أذنْ منهم للذائبِ صُحوبُ  
كلامُهُمُ شهيدٌ ولكنَّ فعلُهُم      كسَمِّ له بين الضلوعِ ديبُ  
سأرحلُ عنهم والتجارِبُ لم تدعْ      بقلبي لهم شيئاً عليه أثيبُ  
إذا اغترَب الإنسانَ عمن يسوؤه      فما هو في الإبعاد عنه غريبُ

(1) محمد جابر الأنصاري: التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب في آثار ابن سعيد المغربي، دار المغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص260.

(2) انظر تفصيل ذلك في النفح، 2/ 277.

(3) النفح، 2/ 279.



فَالَيْتَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ مُتَأَدِّبًا      وَلَمْ يَكُنْ لِي أَصْلٌ هُنَاكَ رَسُوبٌ<sup>(1)</sup>

ويرتحل ابن سعيد لمصر، ويكون الاغتراب المرير الذي يصل حدّ التأزم والألم الممض، وتزيده المعاملة التي يقابل بها المغاربة بصورة عامة في مصر، وهو ما أشار إليه العديد من المرتحلين، من ذلك ما أورده ابن جبير من معاملة أهل الإسكندرية للحجاج المغاربة وتفتيشهم، وإدخال الأيدي في أوساطهم بحثاً عما فيها، وهذا كما يقول لا يخل بسياسة العدل عند صلاح الدين الذي لو علم بذلك لأزاله<sup>(2)</sup>. ونقل العبدري في رحلته بعض ما شاهده أو سمعه عن غلظة أهل القاهرة في معاملتهم للغرباء من المغاربة، وشبه أهل الإسكندرية «بجسم لا روح فيه» لسوء أخلاقهم في معاملة الغرباء<sup>(3)</sup>. وإن كان العبدري قد تطرّف في نقمته على المصريين، إلا أن ذلك لا ينفي عدم رضا المغاربة بصورة عامة عن أهل مصر ومعاملتهم. لكن ذلك لا يعدم وجود صور مشرقة لتعامل المصريين مع المغاربة، من ذلك ما نقله التجيبي في رحلته عن حسن معاملة الحجاج في قوص<sup>(4)</sup>.

على ضوء الصور الموجزة لآراء بعض الرحالة في مصر، نعود إلى معاناة ابن سعيد، والانطباعات التي حملها في رحلته إلى مدن مصر. فقد تداخلت عدة عوامل جعلت غربته تزداد حدة، فهو غير راضٍ عن بعض جوانب الحياة في مصر من حيث المستوى الحضاري، وطباع الناس، وتعذر حجه، ومقارنته ذلك كله بحياته في الأندلس، مما يضاعف في مرارته وكمده.

فالفسطاط كما صورها ابن سعيد في القرن السابع الهجري ضيقة الأسواق، غير مستقيمة الشوارع، مغبرة الآفاق، والقاهرة لا تقل حظاً عنها في كثرة الزحام، وسوء التنظيم، وراعه سلوك الناس والتهامهم الطعام في الأسواق غير محتشمين<sup>(5)</sup>. ويسير في

(1) النفح، 2/ 276-277.

(2) انظر: حلة ابن جبير، ص 13-14.

(3) انظر: رحلة العبدري، ص 126-127، ص 92-93.

(4) انظر الدراسة، ص 49-50.

(5) انظر: المغرب القسم الخاص بمصر، ص 4-12. النفح، 2/ 337-339.

طرقات مصر، فيجد كل ما يراه غريباً، يتمتعن في وجوه الناس فلا يجدها مألوفاً، بل تزيد من غربته وشعوره بالضيق والوحشة التي تلف الألفاظ، يقول:

أصبحت أعرّض الوجوه ولا أرى ما بينهما وجهاً لمن أدريه  
عَوْدِي عَلَى بَدَنِي ضَلالاً يَبِينُهُمْ حَتَّى كَأَنِّي مِنْ بَقَايَا التِّيهِ<sup>(1)</sup>

وتتبدى له عندها صورة إشبيلية التي يشتد تحسره وبكاؤه على مفارقتها، يقول:

هَذِهِ مِصرُ فَأَيْنَ المِغربُ؟ مُذْنَأَى عَنِّي دُمُوعِي تَسْكُبُ  
أَيْنَ حِصْرُ؟ أَيْنَ أَيامي ههنا؟ بَعْدَهَا لَمْ أَلَقْ شَيْئاً يُعْجِبُ  
ويقوده ذلك إلى تذكّر أيام لهوه وانسه في ربوع إشبيلية:

كَمْ تَقْصِي لِي ههنا مِنْ لَذَّةٍ حَيْثُ لِلنَّهْرِ خَرِيرٌ مُطْرِبُ  
وَحَمَامُ الْأَيْكِ تَشْدُو حَوْلَنَا وَالْمِثْلَانِي فِي ذَرَاهَا تَصْحَبُ  
وَالنَّوَاعِيرُ التِّي تَذْكُرُهَا بِالنَّوَى عَنْ مَهْجَتِي لَا تُسَلِّبُ  
بِلَدَّةٍ طَابَتْ وَرَبُّ غَافِرٌ لَيْتَنِي مَا زِلْتُ فِيهَا أُذْنِبُ<sup>(2)</sup>

وكأنما أراد ابن سعيد حينما ربط بين الحديث عن الغربة وبين وصف مجالس اللهو في الأندلس، المقارنة بين حياته المنعمة في الأندلس، وحياته في مصر وما يلاقي فيها من ضنك ومشقة.

ويصف ابن سعيد اضطرابه ركوب الحمار من باب زويلة في القاهرة إلى الفسطاط، وينقل هذا المشهد بصورة كاريكاتورية ساخرة، مثيرة للضحك والألم في آن:

لَقِيتُ بِمِصرَ أَشَدَّ البَوَارِ رُكُوبَ الحِمَارِ وَكُحْلَ العُبَارِ  
وَحَلَفِي مُكَارِيفُوقَ الرِّيحِ لَا يَعْرِفُ الرِّفْقَ مَهْمَا اسْتَطَارَ

(1) الإحاطة، 4/ 154-155، النفح 2/ 262..

(2) النفح، 2/ 281.

أُنَادِيهِ مَهْلًا فَلَا يَرْعَوِي إِلَى أَنْ سَجَدْتُ سُجُودَ الْعِثَارِ<sup>(1)</sup>

ويعرّض ابن سعيد هذه الحادثة، حينما يصف ركوبه زورقاً في نهر إشبيلية، حيث تتبدى المفارقة بين البيتين:

أَيْنَ حُسْنِ النَّيْلِ مِنْ مَهْرِهَا	كُلَّ نَغَمَاتٍ لَدَيْهِ تَطْرِبُ
كَمْ بِهِ مِنْ زُورَقٍ قَدْ حَلَّهْ	قَمَرٌ سَاقٍ وَعُودٌ يُضْرِبُ
كَمْ رَكِبْنَاهَا فَلَمْ تَجْمَحْ بِنَا	وَلَكَمْ مِنْ جَامِحٍ إِذْ يُرَكَّبُ
طَوْعَنَا حَيْثُ اتَّجَهْنَا لَمْ نَجِدْ	تَعَبًا مِنْهَا إِذَا مَا نَتَعَبُ
قَدْ أَثَارَتْ عَثِيرًا يَشْبَهُهُ	نَثْرُ سِلْكٍ فَوْقَ بُسْطٍ يُنْهَبُ <sup>(2)</sup>

وقد تركت معاملة المصريين في نفسه أشدَّ الأثر، حينما نظروا إليه كأبي فرد مغربي، وهو ينتسب إلى أرفع الأسر الأندلسية، وله دوره السياسي والعلمي المتميز، فقد تعجبوا من خطه المغربي، غير آبهين بذكائه، ونباهته وطيب أصله:

هَآ أَنَا فِيهَا فَرِيدٌ مُهْمَلٌ	وَكَلَامِي وَلِسَانِي مُعْرِبٌ
وَأَرَى الْأَحْظَاظَ تَنْبُو عِنْدَمَا	أَكْتُبُ الطَّرْسَ أَفِيهِ عَقْرِبٌ؟
وَإِذَا أَحْسِبُ فِي الدِّيَوَانِ لَمْ	يَدْرِ كُتَابُهُمْ مَا أَحْسِبُ
وَأُنَادِي مَغْرِبِيًّا لِيَتَنَبَّي	لَمْ أَكُنْ لِلْمَغْرِبِ يَوْمًا أَنْسَبُ
نَسَبٌ يُشْرِكُ فِيهِ خَامِلٌ	وَنَبِيَّةٌ أَيْنَ مِنْهُ الْمَهْرِبُ؟
أَتُرَانِي لَيْسَ لِي جَدٌّ لَهُ	شَهْرَةٌ؟ أَوْ لَيْسَ يُدْرِي لِي أَبٌ؟

عندها يدرك قيمة الوطن الذي فارقه جهلاً كما يقول:

فَارَقْتَهُ النَّفْسُ جَهْلًا إِنَّمَا يُعْرِفُ الشَّيْءُ إِذَا مَا يَذْهَبُ<sup>(3)</sup>

(1) المغرب، القسم الخاص بمصر، 1/ 6، النفع، 2/ 340.

(2) النفع، 2/ 282.

(3) المصدر السابق، 2/ 283.

ويتبدى ضياع آماله ومقاصده حينما يتعذّر عليه الحج، يقول شاكياً:

قَرُبَ المَزَارُ ولا زَمَانٌ يُسَعِدُ      كَمَ ذَا أَقْرَبُ مَا أَرَاهُ يَبْعُدُ  
وَارْحَمَةً لِمَتَيْمٍ ذِي غَرْبَةٍ      وَمَعَ التَّغْرُبِ فَاتَهُ مَا يَقْصِدُ  
يَا سَائِرِينَ لِيُثْرِبِ بُلْغَتُمْ      قَدْ عَاقَنِي عَنْهَا الزَّمَانُ الْأَنْكَدُ  
أَعْلَمْتُمْ إِنْ طَرْتُ دُونَ مَحَلِّهَا      سَبْقاً؟ وَهَذَا أَنَا إِذْ تَدَانِي مُقْعَدُ<sup>(1)</sup>

وكما ضاعت آماله في الحج، فقد ضاع عمره في الغربة كما يقول:

إِنْ عَادَلِي وَطَنِي اعْتَرَفْتُ بِحَقِّهِ      إِنْ التَّغْرُبَ ضَاعَ عُمْرِي فِيهِ<sup>(2)</sup>  
ويظهر ابن سعيد بعد الشكوى المريرة استعداداً لاستعادة مكانته، ويبرر أن ما آل إليه في مصر من ضعة، إنما كان لأنه كالأسد خارج عرينه، وكالسيف الذي لا يلام إن وقع في يد جبان، يقول:

فإِنْ كُنْتُ فِي أَرْضِ التَّغْرُبِ غَارِباً      فَسَوْفَ تَرَانِي طَالِعاً فَوْقَ غَارِبِ  
فَصُمُصَامُ عَمْرٍو حِينَ فَارَقَ كَفَّهُ      رَمَوْهُ وَلَا ذَنْبٌ - لِعَجْزِ الْمُضَارِبِ  
وَمَا عِزَّةُ الضَّرْغَامِ إِلَّا عَرِينُهُ      وَمَنْ مَكَّةَ سَادَتْ لُؤْيُ بْنُ غَالِبِ<sup>(3)</sup>  
ثم يثني ابن سعيد عزمه على العودة إلى المغرب، بعد ما وجد أن ما في مصر برق خادع كما يقول:

سَوْفَ أَثْنِي رَاجِعاً لَا غَرَنِي      بَعْدَ مَا جَرَيْتُ بَرْقُ خُلْبِ<sup>(4)</sup>  
وحينما ينتقل ابن سعيد إلى الشام، يدخل شعره مرحلة جديدة، ولا نرى في شعره هذا الأثر الحاد للشكوى، والشعور بالغربة، بل كان شاعراً يعكس إعجاباً وانسجاماً مع

(1) النفح، 2/ 313.

(2) المصدر السابق، 2/ 262.

(3) المصدر السابق، 2/ 267.

(4) المصدر السابق، 2/ 283.

تلك البيئة الجديدة<sup>(1)</sup>، وربما كان ذلك لشدة التقارب والشبه بين البيئة الأندلسية والبيئة الشامية. بالإضافة إلى ما وجده ابن سعيد من احتفاء به في البيئة الحلبية، واتصاله بالملك الناصر الأيوبي. وسنقف عند وصف ابن سعيد لمدينة الشام وبيئاتها في موضعه من الدراسة إن شاء الله.

وشكا الشعراء المرتحلون من الغرب كأثير الدين أبي حيّان، ولكنه لم يصل في شكواه إلى الحد الذي وصل إليه ابن سعيد، فنراه يشكو انعدام الأصدقاء في مصر بعد إقامته فيها عشرين سنة، يقول:

فَلَمَّا نَلَّ مِنْهَا مَدَى الدَّهْرِ طَايلاً      وَلَمَّا نَجَدْ فِيهِمْ صَدِيقاً نَوَادِدُهُ  
ويعتز بنفسه وبالأندلسيين، من خلال حديثه عن دورهم في إحياء علم النحو وقراءتهم لكتبه، يقول:

وَمَا زَالَ مَنَا أَهْلَ أَنْدَلَسٍ لَهُ      جِهَابٌ ذُبُودِي فَضْلُهُ وَتَنَاجِدُهُ  
أَثَارَ أَثِيرِ الْغَرْبِ لِلنَّحْوِ كَامِناً      وَعَاجِلُهُ حَتَّى تَبَدَّتْ قَوَاعِدُهُ  
إِذَا مَغْرِبِيٌّ حَطَّ بِالْغَرِّ رَحْلُهُ      تَيَقَّنَ أَنَّ النَّحْوَ أَخْفَاهُ لَا حُدَّهُ

ثم يتبع هذا لأبيات بالشكوى من خايلي الذهن، الذين نبّه ذكرهم في مصر، ونالوا ما لا يستحقون، بينما كان المغاربة هم الأولى بذلك، لإعطائهم هذا العلم حقه:

لَقَدْ أُخِّرَ التَّصْدِيرُ عَنْ مُسْتَحَقِّهِ      وَقُدِّمَ غَمَرٌ خَامِدُ الذِّكْرِ هَامِدُهُ  
عَلَا عَقْلَهُ فِيهِمْ هَوَاهُ فَمَا دَرَى      بِأَنَّ هَوَى الْإِنْسَانِ لِلنَّاسِ قَائِدُهُ<sup>(2)</sup>

ويبدو في ذلك متعصباً للأندلسيين، فالمشاركة هم الأصل في وضع قواعد هذا العلم، كما أورد في بداية القصيدة مبرزاً دور الخليل وسيبويه وغيرهم، فكيف يرى أن المغاربة أقدر على دراسته واستجلاء مسائله، منكرّاً دور المشاركة في ذلك؟

(1) التفاعل الثقافي، ص 267.

(2) الإحاطة، 4/ 55-56. انظر القصيدة كاملة ص 50-56. لم ترد هذه القصيدة في الديوان.

ويشتد شوق أثير الدين للأندلس، ويشكو الفارقة والبُعد عنها، يقول:

يا فرقةً أبدلتني بالسُرور أسى      وأسهرت ناظراً قد طالما نَعَسَا  
أَنْى يكونُ اجتماعٌ بين مُفترِقٍ      جسمٌ بمصرٍ وروحٌ حلَّ أندلساً<sup>(1)</sup>

ويستذكر المرتحلون من المغاربة هذه الأبيات، لأنها تعبّر عن وحشتهم في ديار الغرب، وفقدانهم الوطن، فنرى القلصادي يردد هذه الأبيات في رحلته للمشرق في القرن التاسع الهجري، إذ يقول: «ولما زال عنا وعشاء السفر، حنّت النفس إلى الوطن، وتشوّف الخاطر إلى الظعن، واستحضر الخيال قول أبي حيان...»<sup>(2)</sup> ثم يورد الأبي. مما يدل على استمرارية تأثير الغربة فيهم، واستذكار ما قاله إخوان لهم ارتحلوا قبلهم، وشكوا شكواهم.

ويتردد صدى الشكوى من الانتزاع والبعاد وتمني الاجتماع بالأهل في شعر معظم المرتحلين، من ذلك ما يقوله عيسى بن سليمان الرُّعَيْنِي<sup>(3)</sup>:

هذا كتابُ قصيّ الدارِ مُتَحَنٍ      بفرقةِ الأهل والإخوانِ والوَطَنِ  
يشكو البعادَ وما قد ظلَّ يرمُّهُ      من سوءِ فعلِ النوى في السرِّ والعَلَنِ  
فالله يجبرُّ نكلي ثمَّ يجمعُني      قبلَ المماتِ بمن أهوى بِلا مَحَنِ<sup>(4)</sup>

وكما شكّا الشعراء ضياع العمر في الغربة، فقد شكوا فوات المطالب متمنين عودة الماضي، يقول يحيى بن غانم:

خليلي ما للوالهِ المتغرَّب      بأرضِكُما قد فاتَهُ كُلُّ مَطْلَبٍ

(1) ديوان أثير الدين أبي حيان، تحقيق: أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1969، ص224.

(2) رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1987، ص148.

(3) انظر الملحق، الترجمة رقم (29).

(4) عقود الجمان (مخطوط)، ج5، ورقة 229.

خَلِيلِيَّ قَوْلَا وَالْحَدِيثُ كَمَا حَكُوا      شُجُونًا وَدَهْرِي سَاخِرٌ بِكُمَا وَيِ  
هَلْ الزَّمَنُ الْمَاضِي بِمَا قَدْ مَضَى بِهِ      يَعُدُّ وَلَوْ مِنْ كُلِّهِ بِالتَّقَرُّبِ<sup>(1)</sup>

ومن الطريف أن الشعراء قد قسّموا حروف الغربة، وجعلوا لكل حرف معنى يشاكل ما في نفوسهم من أسى وغم، وذلك ما ورد عن عيسى بن سليمان الرّعيني مما أنشده إياه عبدالله بن أحمد بن أبي بكر القرطبي<sup>(2)</sup>:

وَحُرُوفُهَا مِنْ كُلِّ بؤْسٍ رُكِبَتْ      لَتَعَمَّ مِنْ تَغْشَاهُ بِالْأَشْجَانِ  
فَالْغَيْنُ مِنْ غَمٍّ وَغَيْنٍ دَائِمٍ      وَالرَّاءُ مِنْ زُرْءٍ عَلَى الْأَوْطَانِ  
وَالْبَاءُ مِنْ بُرَحٍ وَبَيْنٍ وَبَلَى      وَالْهَاءُ مِنْ هَمٍّ وَهُلْكِ دَانٍ<sup>(3)</sup>

وقد وردت إشارات كثيرة للشكوى من ألم البعاد والحنين والشوق للوطن، وقد ارتبط أحياناً بالتوسل بالرسول ﷺ<sup>(4)</sup>، ولا تخرج في معظمها عن المعاني التي وردت.

لقد امتزجت الغربة بنفوس الشعراء، فعبروا عنها في كل مواقفهم، وجعلوها مبرراً لكل ما يلاقونه من مصاعب في ديار الغربة، ورسموا لها صوراً صادقة تعبر عما في نفوسهم، وصلت حدّ المبالغة أحياناً، وهذا شأن الغريب.

### وصف مدن المشرق، والمظاهر الحضارية فيها

لقد شكّا الشعراء من الغربة والانتزاح وفوات المطالب في بلاد المشرق، لكن هل كانوا راضين عن مدنها. والمظاهر الحضارية فيها؟ وما هي الانطباعات التي حملوها عن هذه البلاد؟ وكيف تعاملوا مع مظاهرها الحضارية من جزر وأنهار وبرك وبساتين؟ وما الذي عكسته صفاتها في نفوسهم وما ارتبطت به هذه الصفات مما شاهدوه وعاشوه في

(1) عقود الجمان، ج 10، ورقة 20.

(2) ورد ذكره من خلال الحديث عن عيسى بن سليمان الرّعيني، حيث عاصره وأنشده، ويرجع من الأخبار أنه من المرتحلين، لكن لم ترد له ترجمة. انظر: عقود الجمان، ج 5، ورق 227-228.

(3) عقود الجمان، ج 5، ورقة 228.

(4) انظر: الإحاطة، 2/ 464، الوافي، 2/ 14، النفح، 2/ 609-611.

ديارهم البعيدة في الأندلس؟ وهل وجدت مفارقة بين رأيهم بمدن مصر ورأيهم بمدن الشام؟

لنبدأ بمصر ومدنها ومظاهرها الحضارية، ثم ننتقل إلى الشام، حتى نستطيع أن نخلص إلى المقارنة بين انطباعاتهم عن بعض مدنها.

فابن سعيد يعرض جانبين متباينين في وصفه لمدينة الفسطاط، فقد عاين ما كرهه منها مثل كثرة الغبار الأسود الذي دَسَّ ثيابه حينما طار به الحمار في ظلمة الأزقة، وضيق الشوارع، وقد سبق إيراد شعره في ذلك<sup>(1)</sup> ثم يذكر إدبار المسرة عنه حينما دخلها، وقاسى من ازدحام الناس فيها، وما عاينه من ضيق الأسواق حول مسجد الجوامع، وهذا ضد ما وجدته كما يقول في جامع إشبيلية، كما راعه عدم احتشام الناس حينما يأكلون في عدة أمكنة، والصبيان حينما يلعبون في ساحة المسجد ويكتبون على حيطانه، ويأتي للمقارنة مرة أخرى بينه وبين جامع إشبيلية وما فيه من الزخرفة والأناقة، والبساتين في صحنه، إلا أنه كان يصف بصدق شعوره بالارتياح والأنس في جامع الفسطاط، لارتباطه بالصحابة ووقوفهم في ساحته<sup>(2)</sup>.

ومع كل هذه الصور التي لم تعجبه في الفسطاط، إلا أنه وصف مشاهدتها، والليلة التي باتها في طيارة وهي نوع من القوارب على جانب النيل، حيث بدت المراكب كأسراب قطا وسط أمواجه الرقراقة الرطبة، يقول:

نزلنا من الفُسطاطِ أحسنَ منزلٍ      بحيثُ امتدادُ النيلِ قد دار كالعقْدِ  
وقد جُمِعَتْ فيه المراكِبُ سُحرةً      كسِرْبِ قِطَا أضْحى يَرفُ على وِردِ  
وأصْبَحَ يطفو الموجُ فيه ويرتمي      ويَطْرَبُ أحياناً ويلعَبُ بالنَّردِ  
ثم يصف ماءه العذب:

حلا ماءؤه كالزَّيْقِ ممَّنْ أحْبُه      فمُدَّتْ عليه حُلَّةٌ من حُلَى الحَدِّ

(1) انظر الدراسة، ص 79.

(2) انظر المغرب، قسم مصر، ص 6-7. النفح، 2/ 340-341.



وقد كان مثل النهر من قبل مدّه فأصبح لما زاده المدُّ كالوَرْدِ<sup>(1)</sup>  
ونراه يعلل وصفه هذا لماء النيل بقوله: «لأنني لم أذُق في المياه أحلى من مائه، وإنّه  
كون قبل المد الذي يزيد به ويفيض على أقطاره أبيض، فإذا كان عابب النيل صار  
أحمر»<sup>(2)</sup>.

ويمتدح ابن سعيد أهل الفسطاط باللطافة ولين الكلام، وكثرة المازحة، ويفضلهم  
في ذلك على أهل القاهرة<sup>(3)</sup> دون إيراد شعر له فيهم، لكنه يدل على ذلك بشعر لأحد  
معاصريه، وهو أيدمر المحيوي<sup>(4)</sup>، إذ يقول:

حَبَّذا الفُسطاطُ من والدَةِ  
يَرْدُ النيلُ إليها كَدِراً  
جَنَّبْتُ أولادَهَا دارَ الجفَا  
لَطْفُوا فالزُّن لا تَأْلِفُهُمْ  
فإذا مازَجَ أهلُها صَفا  
خَجَلًا لما رَأَتْهُمُ الطُّفَا<sup>(5)</sup>

وهذا الشعر يعكس رأي ابن سعيد فيهم.

ويفاضل ابن سعيد بين الفسطاط والقاهرة فيرى «أن الفسطاط أكثر أرزاقاً،  
وأرخص أسعاراً من القاهرة، لقرب النيل من الفسطاط، فالمرائب التي تصل بالخيرات  
تخطُّ هناك ... والقاهرة أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط، لأنها أجل مدارس،  
وأضخم حانات، وأعظم دياراً لسكنى الأمراء فيها لأنها المخصوصة بالسلطنة»<sup>(6)</sup>، لكنه

(1) المغرب، قسم مصر، ص 8. النفج، 2/ 342.

(2) المغرب، قسم مصر، ص 8/ 1، النفج، 2/ 342.

(3) المغرب، الخاص بمصر، 9/ 1.

(4) أيدمر المحيوي: أيدمر بن عبدالله التركي المكنى بعلم الدين، شاعر له قصائد وموشحات، اعتقه  
يحيى الدين بن ندى، نعت ابن شاعر الكتبي بفخر الترك (ت 674 هـ). الفوات، 1/ 208. الزركلي:

الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط 9، 1990، 2/ 34.

(5) المغرب، قسم مصر، ص 9. لم ترد هذه الأبيات في ديوانه.

(6) الخطوط، 1/ 367.

لا يستثني القاهرة من المشاهد التي عاين بعضها في لفسطاط من كدرة وزحام وجو مغبر «فتنقبض نفسه، ويفرُّ أنسه»<sup>(1)</sup>، ويقول راداً على رفاقه الذين يحضونه على العود إليها:

يقولون سافر إلى القاهرة ومالي بها راحة ظاهرة  
زحام وضيق وكرب وما تُشير بها أرجل سائرة<sup>(2)</sup>

وقد صور العبدري الزحام فيها بقوله: «والزحام متصل، والطرق غاصة بالخلق حتى ترى الماشي فيها ما له سوى التحفظ من دؤس الدواب إياه، ولا يمكنه تأمل شيء في السوق، لأن الخلق يندفعون فيها مثل اندفاع السيل»<sup>(3)</sup>.

ولا يفوت ابن سعيد المقارنة بينها وبين بلاد المغرب، «فأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة، كثيرة التراب والأزبال، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيّقت مسلك الهواء والضوء بينهما، ولم أر في جميع بلاد المغرب أسوأ حالاً منها في ذلك»<sup>(4)</sup>، ولا يخفى ما في هذا الرأي من تعصب ومبالغة.

كما صور ابن سعيد تعذر المعاش فيه ونزرتها على لسان أحد شعرائها في القرن السابع الهجري وهو أبو الحسن النور بن سعيد، إذ يقول:

كم ذا تُقِيمُ بمصر مُعذَّباً بذباً بذوبها  
وكيف ترجو ندامهم والسُّخْبُ تبخل فيها<sup>(5)</sup>

وقد نقل عن العبدري في ذلك أن رسولاً من قبل الروم وصل إليها، فأمر الملك أن يدوروا به بعد العصر حتى يرى عمارة البلد، فداروا به فقال لهم: «إن بلدهم هذا

(1) الخطط، 1/ 366.

(2) النفح، 2/ 346.

(3) رحلة العبدري، ص 128.

(4) الخطط، 1/ 366.

(5) النفح، 2/ 350.

ضعيف»، فقالوا: كيف؟ أو ما ترى المخلوق الذي به<sup>(1)</sup>. فهو لم يكن يقصد كثرة الناس، بل قلة الموارد وشراء الناس حاجياتهم يوماً بيوم. وفي ذلك قال عنها ابن بطوطة: «إنها محط رحل الضعيف والقادر»<sup>(2)</sup>.

ولا ينسى ابن سعيد وصف مواضعها الحسنة، ولا سيما أرض القُرط<sup>(3)</sup> والكتّان، يقول:

سقى الله أرضاً كلما زرت روضها      كساها وحلاها بزيتته القُرطُ  
تجلّت عروساً والمياه عقودها      وفي كل قطرٍ من جوانبها قُرطُ<sup>(4)</sup>

كما وصف الشعراء نهر النيل الذي عُدّ من عجائب الدنيا، لخصوبة أراضيهِ وكثرة محاسنه<sup>(5)</sup>، يقول ابن خروف القرطبي معجباً بالجنان التي تحيط به، واصفاً زيادته:

ما أعجبَ النيلَ ما أحلى شمائله      في ضفّتيهِ من الأشجارِ أدواحُ  
من جنّة الخلدِ فياضٌ على تُرعٍ      تهبُّ فيها هبوبَ الرّيحِ أرواحُ  
ليست زيادته ماءً كما زعموا      وإنّما هي أرزاقُ وأرواحُ<sup>(6)</sup>

وقال بعض الحكماء عن هذه الزيادة: «لولا ما جعل الله في نيل مصر من حكمة الزيادة زمن الصيف على التدريج، حتى يتكامل ري البلاد وهبوط الماء عنها عند بدء

(1) رحلة العبدري، ص 128.

(2) رحلة ابن بطوطة، 1/ 53.

(3) القُرط: نبات كالرّطبة إلا أنه أجل منها وأعظم ورقاً، تعلّفه الدواب. انظر: محمد حسن آل ياسين: مُعجم النبات والزراعة، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1986، 1/ 481.

(4) النفح، 1/ 346.

(5) الهروي، الإشارات، ص 50. الخطط، 1/ 63.

(6) الوافي، 22/ 92. السيوطي: بغية الدعاة في طبقت اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، ط 2، 1979، 2/ 204. الأرواح: جمع رَوْح الله، أي رحمته بعبادته. لسان العرب، مادة: رَوْح.

الزراعة لفسد إقليم مصر، وتعذر سكناه، لأنه ليس فيه أمطار كافية، ولا عيون جارية»<sup>(1)</sup>.

ويقارن ابن سعيد بين نهر النيل ونهر إشبيلية، إذ تكثر التماسيح في النيل، بينما يُسَبَّح في نهر إشبيلية دون خوف لخلوه من التيارات والتماسيح:

يَا نَيْلَ مِصْرَ أَيْنَ حِمَصُ وَنَهْرُهَا      حَيْثُ الْمُنَاطِرُ أَنْجَمٌ تَلْتَأَحُ  
فِي كُلِّ شَطٍّ لِلنَّوَاطِرِ مَسْرَحُ      تَدْعُو إِلَيْهِ مَنَازِرُهُ وَبَطَاحُ  
وَإِذَا سَبَحْتُ فَلَسْتُ أَسْبَحُ خَائِفًا      مَا فِيهِ تَيَّارٌ وَلَا تَمْسَاحُ<sup>(2)</sup>

وقد ذكر المقرئزي عن كثرة التماسيح وعن فرس البحر التي تعترض المراكب وتلاحق تلك التماسيح وعن الكثير من الأسماك المؤذية<sup>(3)</sup> التي تعيق السباحة.

ولعل من الطريف أن نورد هنا أبياتاً لأثير الدين أبي حيان في وصف تماسيح النيل وطبائعها، وطريقة أكلها والتهامها لفريستها، راسماً لها صورة لا تخلو من الرهبة:

وَخَلَقَ غَرِيبَ الشَّكْلِ فِي مِصْرَ نَاشِئٍ      وَمَا هُوَ فِي أَرْضٍ سِوَى مِصْرَ يُوجَدُ  
هُوَ السَّبْعُ الْعَادِي بِنَيْلٍ صَعِيدِهَا      يَقَافِصُ<sup>(4)</sup> مِنَ الْمَاءِ فِي النَّيْلِ يَقْصِدُ  
وَيَخْطِفُهُ خَطْفَ الْعُقَابِ لَصِيدِهَا      وَيَفْصِلُهُ عِضْوًا فَعِضْوًا وَيَزْرَدُ  
وَمَا مِنْ شَخْصٍ النَّيْلِ خَلَقَ لَهُ يَدٌ      وَرَجُلٌ سِوَاهُ وَهُوَ فِي الْبَرِّ يَضَعُدُ  
لَهُ ذَنْبٌ مُرَخًى طَوِيلٌ يُقِيمُهُ      يَلْفُ بِهِ مَنْ كَانَ لِلنَّاسِ يُفَقِّدُ  
وَأَسْنَانُهُ أَتَى عَلَى ذِكْرِ أَتَتْ      لِكَسْرِ الْعِظَامِ الصُّلْبِ مِنْهَا تُفَقِّدُ  
وَيَحْفَرُ فِي رَمْلٍ وَيَدْفَنُ بِيَضَّهُ      يَعَاهِدُهَا غِبًّا إِلَى حِينٍ تَوَلَّدُ  
وَلَا تَعْمَلُ الْأَسْيَافُ فِيهِ كَأَنَّمَا      عَلَى جَلْدِهِ مِنْهُ صَفِيحٌ مُسَرَّدُ

(1) الخطط، 1/ 63.

(2) النفح، 2/ 306.

(3) انظر، الخطط، 1/ 65-67.

(4) يقافص: يشتبك ويجتمع، لسان العرب، مادة (قفص).

ولكنَّ تحتَ الإبطِ لَيِّنٌ جلدُهُ  
ويقتُلُهُ الجَماموسُ فهو إذا دَرى  
ويخدَعُهُ الإنسانُ حتى يصيدَهُ  
فمنها المنايا دونَهُ تتصعَّدُ  
بِهِ فرَّ منه وهو في السَّبحِ يجهَدُ  
ويربطُهُ كالغنزِ بالحبلِ تُصَفَّدُ<sup>(1)</sup>

وإذا انتهت زيادة النيل، فتحت منه خلجان وترع<sup>(2)</sup>، وقد وصف ابن سعيد من هذه  
الخلجان خليج القاهرة الذي يمرُّ غربها، وتقع بظاهره مدينة الفسطاط<sup>(3)</sup>، حيث يبدو  
الكتَّان على جوانبه يرمقه بأحداقه:

أنظر إلى النهرِ والكتَّانُ يرمُّهُ  
رأته سيفاً عليه للصبِّ شطْبُ  
وأصبحت في يد الأرواح تنسُجُها  
من جانيه بأجفانٍ لها حَدَقُ  
فقابلته بأحداقٍ بها أَرْقُ  
حتى غَدَت حَلَقاً من فوقها حَلَقُ<sup>(4)</sup>

لكنه يعرِّض بها يحدث في الخليج في بعض الأحيان من الفواحش والتهكم  
والمخالفة، حتى إن بعض المحتشمين لا يجيزون عبوره في مركب، ويصفه ابن سعيد مُحذراً  
من ركوبه في النهار:

لا تـركـبـنْ خـلـيـجَ مـصـرٍ  
فقد علمت الذي عليه  
صفان للحرب قد أطلا  
يا سيدي لا تـسـرَّ إليه  
والليل سترٌ على التـصـابي  
لله كم دوحـة جـنـينا  
إلا إذا أَسَدَل الظلامُ  
من عالم كلُّهُم طغامُ  
سلاح ما بينهم كلامُ  
إلا إذا هـَـوَمَ النيامُ  
عليه من فضله لثامُ  
هناك أثمارها الأثامُ<sup>(5)</sup>

(1) الديوان، ص 150-151.

(2) الخطط، 1/ 70.

(3) المصدر السابق، 2/ 139.

(4) النفح، 2/ 347.

(5) الخطط، 1/ 368. النفح، 2/ 349.

وقد أشار المقرئ إلى شيء من ذلك في وصفه للخليج، ووصف ما قاله ابن سعيد بالتحامل<sup>(1)</sup>.

وقد كثرت في القاهرة المتنزهات التي كان الناس يخرجون إليها رغبة في القصف والعزف، ولا يبقى صغيرٌ ولا كبير إلا خرج متنزهاً إلى بركة الحبش، وهي من أشهر برك مصر، يأكلون ويتفكهون وينعمون ويقضون أربهم من النزهة واللهو<sup>(2)</sup>، وقد خرج ابن سعيد إليها أيام فيض النيل فرأى منها أبهج منظر، ثم زارها أيام غاض الماء وبقيت فيها مقطعات، بين خضر من القُرط والكتان يتفنن الناظر فيها، يقول:

يا بركة الحبش التي يَومي بها	طَوَلَ الزمانَ مُبارَكٌ وسعيدٌ
حتَّى كأنَّكَ في البسيطة جَنَّةٌ	وكانَ دهري كُلُّهُ بِكَ عيدٌ
يا حُسْنَ ما يبدو بِكَ الكَتانُ في	نَوَّارِهِ أو زَرَّةَ معقودٌ
والماءُ مِنْكَ سَيوفُهُ مَسْلُوكَةٌ	والقُرطُ فيكَ رُواقُهُ ممدودٌ
وكانَ أبراجاً عَلَيْكَ عرائسُ	جَلَّيْتُ وطيرُكَ حولَهَا غَرِيدٌ
يا لَيْتَ شعري هل زَمَانُكَ عائدٌ	فالشوقُ فِيهِ مُبْدئٌ ومُعِيدٌ <sup>(3)</sup>

ومما قيل في هذه البركة أنها «ميدانُ رهان، وجنانُ نخل، وبستانُ شَجَر، ومنازك سُكنى .. ونهرٌ عجاج، وأرضُ زرع، ومرتعٌ خيلٌ وساحلُ بحر»<sup>(4)</sup>.

وهناك بركة الفيل التي تقع بين مصر والقاهرة، وهي كبيرة جداً، عمر الناس حولها، وأصبح فيها في القرن السابع الهجري مساكن من أعظم مساكن مصر<sup>(5)</sup>، وقد وصف ابن سعيد جمالها في الليل، حيث بدت بدائرتها كالقدر، والمناظر فوقها كالنجوم، يقول:

(1) الخطط، 2/ 368.

(2) المصدر السابق، ص 2/ 152، 155.

(3) المغرب، قسم مصر، ص 10.

(4) الخطط، 2/ 153.

(5) المصدر السابق، 2/ 164.

أنظرُ إلى بركة الفيل التي اكتنفتُ بها المناظرُ كالأهداب للبرصِ  
كأنها هي والأبصارُ ترمقُها كواكبٌ قد أداروها على القمرِ<sup>(1)</sup>

أما حينما قابلتها الشمس بالغدو، فقد غدت في صورة أخرى، يقول:

أنظرُ إلى بركة الفيل التي فجرتُ لها الغزاةُ فجراً من مطالعِها  
وخلَّ طرفك مجنوناً ببهجتها يهيمُ وجداً وحُباً في بدائعِها<sup>(2)</sup>

ومن المتنزهات الأخرى، جزيرة الروضة الصاحية، وهي متنزه ملوكي، قد أنشأه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وفيها القلعة المشهورة بقلعة الروضة أو قلعة الجزيرة، وقد أصبحت في زمانه تثير الإعجاب، لكثرة زخرفتها، وحسن سقوفها المزينة، وبديع رخامها<sup>(3)</sup>، وقد وصف ابن سعيد حسن هذه الجزيرة وقلعتها، ومعانقتها للنيل، إذ يقول:

تأملُ الحُسنِ الصاحيةَ إذ بدتْ مناظرُها مثلَ النجومِ تلالاً  
وللقلعةِ الغراءِ كالبدْرِ طالِعاً تفجَّرَ صدرُ الماءِ عنه هلالاً  
ووافى إليها النيلُ من بعد غايةٍ كما زارَ مشغوفٌ يرومُ وصالاً  
وعانقها من فرطِ شوقٍ بحُسنِها فمدَّ يميناً نحوها وشمالاً  
جرى قادمًا بالسَّعدِ فاخطَّ حولها من السَّعدِ إعلاماً بذلك دالاً<sup>(4)</sup>

لقد كان ابن سعيد في وصفه للفسطاط والقاهرة وما فيها من أتربة وغبار وشوارع ضيقة، أو ما فيها من متنزهات وخلجان وبرك، شديد الملاحظة أميناً دقيقاً، وكان منفتح العين على العادات والتقاليد والطبائع، ولا تفوته الطرفة وخفة الروح في وصف البلد

(1) الخطط، 2/ 367. النفح، 2/ 347.

(2) المصدران السابقان نفسهما. وفي الخطط: نحرث لها الغزاة نحرأ.

(3) انظر الخطط، 2/ 181-183.

(4) النفح، 2/ 269-270.

وأحوال أهله<sup>(1)</sup>، مقارناً بين مشاهداته في مصر، ومشاهداته في المغرب. وقارن غيره من الشعراء بين مصر وبلاد المغرب، مفضلين مدنهم على ما فيها من أحوال مضطربة، فقد فضل ابن عتبة اشبيلي الرجوع إلى إشبيلية على الرغم مما فيها من الأحوال المتردية وثورة ابن هود، لما عاينه في مصر من أشغال النصارى واليهود في الدولة<sup>(2)</sup>، يقول شاكياً:

أَصْبَحْتُ فِي مِصْرَ مُسْتَضَاماً      أَزُقُّصُ فِي دَوْلَةِ الْقُرُودِ  
وَاضْئِيعَةَ الْعَمْرِ فِي أَخِيرِ      مَعَ النَّصَارَى أَوْ الْيَهُودِ  
بِالْجِدِّ رِزْقُ الْأَنْهَامِ فِيهِمْ      لَا بِبَذَوَاتٍ وَلَا جُدُودِ  
لَا تُبْصِرُ الدَّهْرَ مِنْ يُرَاعِي      مَعْنَى قَصِيدٍ وَلَا قَصُودِ  
أَوْدَ مَنْ لَوْ مِثْمَهُمْ رُجُوعاً      لِلْغَرْبِ فِي دَوْلَةِ ابْنِ هُودِ<sup>(3)</sup>

أما وصف الشعراء المرتحلين لمدن الشام، فقد نحا الشعراء فيه منحى آخر تختلف فيه إحساساتهم عند مشاهداتهم لما في مصر، في العديد من الجوانب. فحينما كان ابن سعيد على سبيل المثال يذكر نيل مصر ويصفه فإنه كان لا ينسيه نهر إشبيلية، إلا أنه حينما رأى العاصي على اختلاف ما بين النيل والعاصي من حيث الامتداد والجمال، نسي نهر إشبيلية وتفاعل مع هذا النهر ونواعيره في حماة، وأصبح هذا المشهد ممتزجاً بنفسيته وهواه، فقد غدا عاصياً مثله، ويغلب النواعير رقصاً، واصفاً حماة وجمال خمائلها، حيث يحلو اللهو والقصف:

حَمَى اللَّهُ مِنْ شَطِيْ حِمَاةٍ مُنَاطِراً      وَقَفْتُ عَلَيْهَا السَّمْعَ وَالْفِكَرَ وَالطَّرْفَا  
تُغْنِي حِمَامٌ أَوْ تَمِيلُ خُمَائِلُ      وَتَزْهِي مَبَاهٍ تَمْنَحُ الْوَاصِفَ الْوَصْفَا  
يَلُومُونَ أَنْ أَعْصِيَ التَّصَوُّنَ وَالنُّهَى      بِهَا وَأَطِيعَ الْكَأْسَ وَاللَّهُوَ وَالْقَصْفَا

(1) محمد عبدالغني حسن: ابن سعيد المغربي، المؤرخ - الرحالة - الأديب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص 127.

(2) اختصار القدح المعلق، ص 164.

(3) المصدر السابق، ص 164.



إذا كَانَ فِيهَا النهرُ عاصٍ فكيف لَا      أحاكِيهِ عَصِياناً وأَشْرِبُهَا صِرْفاً  
وأشدُّ وَلدى تلكِ النواعيرِ شَدْوَهَا      وأغلبُهَا رَقْصاً وأشْبَهُهَا عَزْفاً<sup>(1)</sup>  
كما يصف ابن الجَنان الشاطبي حماة ونهرها العاصي الذي لَا يطيع إِلَّا النسائم  
العليلة:

نهرُها العاصي تَنَدَّى مُطيعاً      حيثُ مَالَ النسيمُ أَضحى يَمِيلُ  
ومُحَيَّا الحبيبِ شَمْسِي فِيهِ      ووجوهُ العشاقِ فِيهِ أَصِيلُ  
وعليلُ السقامِ فِيهِ صَحِيحُ      وصَحِيحُ النسيمِ فِيهِ عليلُ<sup>(2)</sup>

ولعل الشبه الكبير بين الشام والأندلس، كان له أثرٌ في التعلق بمدن الشام والحنين إليها، والاستئناس بها، كما أن معاملة أهل الشام للمغاربة وإحساسهم بطبيعتهم في حب الجمال، كان عاملاً رئيساً في حب أهل الأندلس للشام وأهله، من ذلك ما يرويهِ ابن سعيد عن كمال الدين بن العديم رئيس الأصحاب بحلب بقوله: «ولما وصلتُ معه إليها، أنزلني في دار بيستان ماءٍ جارٍ، وقال لي: أنت أندلسي، وقد عرفت أن دياركم لَا تخلو من هذا»<sup>(3)</sup>.

وقد أصبحت حلب ملاذ ابن سعيد وقبلة أشواقه، وليست مفرأً للحنين إلى الوطن البعيد، كما كان حاله في مصر، يقول:

حادي العيسِ كم تُنَيِّحُ المطايا      سُقُ فروحي من بعدهم في سياقٍ  
حَلَبٌ إِنَّهَا مَقَرُّ غرامي      ومَرَامِي وقبلةُ الأشواقِ

(1) النفح، 2/ 326.

(2) اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد: ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد، الدكن، الهند، ط1، 1961، 2/ 202.

(3) المقتطف من أزاهر الطُرف، تحقيق: سيد حنفي حسين، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1983، ص 199-200.

كَمْ بِهَا مَرْتَعٌ لَطَرْفٍ وَقَلْبٍ      فِيهِ يُسْقَى الْمُنَى بِكَأْسٍ دِهَاقٍ<sup>(1)</sup>  
وَقَدْ حَلَّتْ فِي قُلُوبِ الْمُرْتَحِلِينَ إِلَيْهَا، كَمَا يَقُولُ الْفَتْحُ بْنُ حَمَادٍ:

هِيَ فِي الْقَلْبِ لَا بَلَّ الْقَلْبُ فِيهَا      جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَ قَلْبِي وَعَيْنِي<sup>(2)</sup>  
وَتَصَفُّوْا فِي حَلْبِ نَفْسِ ابْنِ خُرُوفِ الْقُرْطُبِيِّ، إِذْ يَقُولُ:

حَلَبْتُ السَّدْهَرَ أَشْطَرُهُ      وَفِي حَلَبٍ صَفَا حَلْبِي<sup>(3)</sup>  
كَمَا أَعْجَبَ الْمُرْتَحِلُونَ بِدَمَشَقٍ، لَشَبْهِهَا بِمَدَنِ الْأَنْدَلُسِ بِسَاتِنِهَا الْأَنْيَقَةِ، وَبِرُكْهَا الْعَمِيقَةِ، وَبِحَيْرَاتِهَا الْمَمْتَدَّةِ، وَجَدَاوِلِهَا الرِّقَاقَةَ وَغُصُونَهَا الْمُتَمَايِلَةَ<sup>(4)</sup>، حَيْثُ تَغْرِيدُ الْأَطْيَارِ، وَحَفِيفِ الْأَشْجَارِ، يَقُولُ أَحْمَدُ بْنُ مُفَرَّجِ الْإِسْبِيلِيِّ<sup>(5)</sup>:

خَيْمٌ بِجَلَّتْ بَيْنَ الْكَأْسِ وَالْوَتْرِ      فِي جَنَّةٍ هِيَ مَلَأُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ  
وَمَتَّعَ الطَّرْفَ فِي مَرَأَى مُحَاسِنِهَا      تَرَوْضُ فِكْرَكَ بَيْنَ الرَّوْضِ وَالزَّهْرِ  
وَانْظُرْ إِلَى ذَهَبِيَّاتِ الْأَصِيلِ بِهَا      وَاسْمَعْ إِلَى نَغَمَاتِ الطَّيْرِ فِي الشَّجَرِ<sup>(6)</sup>  
وَيَطْنِبُ ابْنُ سَعِيدٍ فِي وَصْفِ مُحَاسِنِهَا الَّتِي مَلَأَتْ الْخَوَاطِرَ، يَقُولُ:

وَإِنِّي لَوْ نَظَرْتُ بِأَلْفِ عَيْنٍ      لَمَا اسْتَوَفْتُ مُحَاسِنَهَا الْعَيُونَ<sup>(7)</sup>  
وَيَجِدُ فِيهَا وَطَنَهُ الَّذِي يَسْتَطِيعُ الْغَرِيبُ مِثْلَهُ أَنْ يَبْنِيَ بِهِ، يَقُولُ:

(1) النفح، 2/ 326.

(2) ذيل مرآة الزمان، ط1، 1955، 2/ 329. الكتبي، محمد بن شاكر: عيون التواريخ، تحقيق: د. فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم، دار الرشيد للنشر، العراق، 1980، 20/ 328.

(3) رايات المبرزين، ص138. الغصون، ص138. المغرب، 1/ 138.

(4) مسالك الأبصار الخاص بمصر والشام، ص113.

(5) انظر الملحق، الترجمة رقم (4).

(6) اختصار القدح، ص181. الإحاطة، 2/ 213.

(7) اختصار القدح، ص181.

أَمَّا دَمَشْقُ فَجَنَّةٌ يَنْبِي بِهَا الْوَطَنَ الْغَرِيبُ<sup>(1)</sup>

على حين وجدنا ابن سعيد في مصر، تتوحش ألاحظه، وتتباعد الألفة بينه وبين الوجوه. ثم يصف يوم السبت الذي اختصه أهل دمشق للغناء واللهو واللعب حيث لا مشرب فيها ولا منتقد ولا منغص، يقول:

لله أَيَّامُ السُّبُوتِ بِهَا وَمَنْظَرُهَا الْعَجِيبُ  
أَنْظُرْ بِعَيْنِكَ هَلْ تَرَى إِلَّا مَحَبَّاءَ أَوْ حَبِيبُ  
كُلُّ يَبْلَغُ نَفْسَهُ مَا تَشْتَهِي مَرْحاً وَطِيبُ  
أَرْضٌ خَلَّتْ مِمَّنْ يَنْغُصُ أَوْ يَرِاقِبُ أَوْ يَعِيبُ<sup>(2)</sup>

ويصف من رياضها روضةً تلوّنت أزهارها بعد أن رواها السحابُ بهائه:

لله مِنْ أَقْطَارِ جَلَّقَ رَوْضَةً رَاقَتْ لَنَا حِينَ السَّحَابُ تُرَاقُ  
وَتَلَوَّنَتْ أَزْهَارُهَا فَكَأَنَّهَا نَزَلَتْ بِهَا الْأَحْبَابُ وَالْعَشَّاقُ<sup>(3)</sup>

ويصور ابن الجنتان جنةً أخرى على أحد أنهار دمشق، الذي ترقصه النسائم العليلة، وتميل عليه الأغصان<sup>(4)</sup>.

وتصفو النفس في دمشق، حيث الأدواح المتنوعة، والأرواح المتضوّعة والغوطة الغناء، فيكتمل النعيم كما يقول ابن سعيد:

أَمَّا دَمَشْقُ فَمَا فِي الْأَرْضِ مُشَبِّهُهَا  
بِهَا النِّعِيمُ غَسَدًا لِلنَّاسِ مَكْتَمَلًا  
جَنَاتُ عَدْنٍ بِهَا مَا يَشْتَهِي الْبَشَرُ  
مُطَوَّلًا وَهُوَ فِي الْآفَاقِ مَخْتَصَرُ  
وَالنَّشْرُ مَرْتَفَعٌ وَالْمَاءُ مَنْحَدِرُ  
الْقَضْبُ رَاقِصَةٌ وَالطَّيْرُ صَادِحَةٌ

(1) الغصون، ص 143.

(2) المصدر السابق، ص 143-144.

(3) الفوات، 3/ 104. الوافي، 22/ 255.

(4) انظر اختصار القدح، ص 208.

وقد تجلّت من اللذات أوجهها      لكنّها بظلال الدّوح تستر<sup>(1)</sup>  
ويتشوق أحمد الشريشي<sup>(2)</sup> وهو بمصر إلى الشام ومغانيها وسفوحها، وكأنه الحنين  
إلى الأندلس وطنه الأول، يقول:

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبرٌ      فإنّ قلبي بنار الشوق يستعرُ  
بعذت عنكم فلا والله بعدكم      مالدّ للعين لا نوم ولا سهرُ  
إذا تذكّرت أوقاتاً ومضت      بقرّبكم كادت الأحشاء تنفطرُ  
كأنني لم أكن بالنيرين<sup>(3)</sup> ضحى      والغيم يبكي ومنه يضحك الزهرُ  
والسّفح أين عشيّاتي التي سلفت      لي منه فهي لعمري عندي العمرُ<sup>(4)</sup>

وعلى شدة إعجاب الشعراء المرتحلين بمدن الشام، إلا أن المادة الشعرية، التي بين  
أيدينا، تُعدّ قليلة إذا ما قورنت بما نقله المؤرخون والرحالة عنها، لكنها على قلتها تؤكد  
إعجاب الشعراء المرتحلين بمدن الشام، وصفو نفوسهم فيها، واستيلائها على طبائعهم،  
وندره حديثهم عن الغربة وشكواهم منها.

#### المجالس والمطارحات والمساجلات والمعارضات الأدبية بين الشعراء المرتحلين والشعراء المشاركة

لعل هذا الموضوع من أهم الموضوعات التي تعكس مدى التفاعل الأدبي بين  
الشعراء الأندلسيين المرتحلين والشعراء المشاركة، والذي تشهد به تلك اللقاءات في  
المجالس الأدبية بشقيها المجالس الأدبية في حضرة الملوك ومنادمتهم، والمجالس الأدبية  
التي يتحاور فيها الشعراء على سبيل المشاركة والمطارحة.

(1) الغصون، ص 144. الفوات، 3/ 104. الوافي، 22/ 256.

(2) انظر الملحق، الترجمة رقم (1).

(3) النّيرين (النّيرب): قرية مشهورة بدمشق وسط البساتين. معجم البلدان، 5/ 330. وهي الآن

القسم الغربي من أقسام الصالحية. ديوان ابن عنين، تحقيق: خليل مردم، دار صادر، بيروت، ط 2،

1959، ص 11، الحاشية رقم 2.

(4) النفح، 2/ 116.

فقد قرب السلاطين الشعراء والأدباء، وأحاطوهم بالرعاية، وشاركوهم أحياناً، ولعل أبرز الملوك الذين كان لهم دور في تنشيط الحركة الأدبية، الملك الناصر الأيوبي، الذي كان يحاضر الأدباء والفضلاء، وكان للشعر شأن كبير في أيامه<sup>(1)</sup>، يشهد بذلك ما ورد عن علاقته بابن سعيد وبغيره من الشعراء، فحينما ارتحل ابن سعيد بصحبة كمال الدين ابن العديم إلى حلب، ودخل على الملك الناصر، أنشد ابن سعيد القصيدة التي أولها:

جُدِّي بِمَا أَلْقَى الْخِيَالُ مِنَ الْكَرَى لَا بُدَّ لِلضَّيْفِ الْمُلَمِّ مِنَ الْقَرَى<sup>(2)</sup>

فقال كمال الدين، «هذا رجل عارف، ورى بمقصوده من أول كلمة»<sup>(3)</sup>. واختار الناصر له لقباً يليق بحسن صوته، وهو البلبل، متبعاً إياه بالخلع الملوكية والأعطيات والأرزاق<sup>(4)</sup>.

وفي بلاط الناصر، التقى ابن سعيد بشخصيات علمية وشعرية، كابن العديم، والشهاب التلعفري<sup>(5)</sup>، وعون الدين ابن العجمي<sup>(6)</sup>، والتاج ابن شقير<sup>(7)</sup>، والشرف

(1) الفوات، 4/ 362.

(2) النفح، 2/ 272.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) المصدر السابق، 2/ 273.

(5) الشهاب التلعفري: محمد بن يوسف الشيباني، نسبته إلى (تل أعفر) بين سنجار والموصل، سافر إلى دمشق، كان من شعراء الأشرف موسى، اتصل بالملك الناصر الأيوبي، كان يستجدي بشعره ويقامر، توفي سنة (675هـ). انظر، معجم البلدان، 2/ 39. والفوات، 4/ 62.

(6) عون الدين ابن العجمي: سليمان بن عبدالمجيد بن حسن، الأديب الحلبي البار، وُلد سنة (606هـ)، كان مترسلاً شاعراً، ولي الأوقاف بحلب، تقدم عند الملك الناصر، توفي سنة (656هـ)، انظر: الفوات، 2/ 66-67. الوافي، 15/ 399.

(7) التاج ابن شقير: نصر الله بن عبدالمنعم التنوخي، أديب من رجال الحديث، ولي وقف العادلية بدمشق، توفي سنة (673هـ)، انظر: الفوات، 4/ 186. ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالحريم تاريخ ابن الفرات، تحقيق: قسطنطين زريق، جامعة بيروت، 1942، 7/ 37. الشذرات، 5/ 341.

سليمان الإربلي<sup>(1)</sup> وطائفة أخرى<sup>(2)</sup>.

وجمع ابن سعيد للملك الناصر كتاب (ملوك الشعر) ذاكرة فيه مكانة الشعراء، وخاصة الشهاب التلعفري الذي حظي بمكانة خاصة في هذا المجلس<sup>(3)</sup>. كما امتدحه بقصائد كثيرة، بلغت أبياتها خمسة آلاف ورفعها إليه، راغباً في أن يترك سراحه للحج، فأنعم عليه، وأمر له بخلعة لم يكن معها زاد، فكتب إليه:

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي نَفَعَ الزَّمَانَ بِهِ وَضَرَ  
أَهْلِي دِيَارِ الشَّرِيفِ لَكِنَّ دُونَهُ زَادُ السَّفَرِ  
فَكَأَنَّمَا أَهْلُ دِيَارِ دِيَارِ الرِّبْعِ بِلا مَطَرِ

وحيثما عاد من الحج، أحس بالضيق، وأراد العود إلى المغرب، فكتب للناصر العديد من المقطعات، لكنه لم يستجب، إلى أن حضر مجلسه وأنشد مستعظفاً:

بِاللَّهِ يَا أَكْرَمَ مَنْ قَدْ رَأَتْ عَيْنَايَ بِالْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ  
أَنْظُرْ لِقَوْلِي مِنْ صَفَاءِ مُفَكِّرٍ حِينَا وَعَوِّقْ بَعْدُ أَوْ أَطْلِقْ  
قَضَيْتُ خَيْرَ الْعُمْرِ فِي أَرْضِكُمْ فَمَتَّعُوا أَهْلِي بِمَا قَدْ بَقِيَ

فارتاح وظهر منه الحنان، وقال لأmirه جمال الدين بن يغمور<sup>(4)</sup>، «صدق، يُسرح بما يكفيه من الإحسان»<sup>(5)</sup>.

(1) الشرف سليمان الإربلي: سليمان بن بنيهان بن أبي الجيش شرف الدين، شاعر محسن له شعر ونوادر ومدايح في الملك الناصر، توفي (686هـ). انظر: الفوات، 2/ 57. الوافي، 15/ 356. النجوم الزاهرة، 7/ 372-373. الشذرات، 5/ 395.

(2) النفح، 2/ 273.

(3) المصدر السابق، 2/ 295.

(4) جمال الدين موسى بن يغمور، سمع الحديث، وتنقل في أعمال الولايات، مثل نيابة السلطنة في القاهرة ودمشق، كان جواداً ممدحاً، وله ألف ابن سعيد (رايات المبرزين وغايات المميزين)، وكان شاعراً، توفي سنة (663هـ). انظر: المغرب، الخاص بمصر، ص 301. النجوم الزاهرة، 7/ 218-219.

(5) انظر الحادثة والأبيات في اختصار القدح، ص 7-8.

كما كان له اتصال بالملك المعظم تورانشاه بدمشق، وقد دخل مجلس خلوته، وتعاف معه حينما قتل في حصن كَيْفَا<sup>(1)</sup> كما مرَّ<sup>(2)</sup>.

قد تجري في مجالس الملوك، مطارحات بينهم وبين الشعراء، من ذلك ما وقع بين ابن دحية والملك الكامل الأيوبي، حيث كتب له ابن دحية قصيدة ابتدأها بمقدمة غزلية، ثم يمتدح صفاته، إذ يقول:

مالي أسائلُ برق بارقٍ عنكمُ      من بعد ما بُعِدْتُ ديارِ منكمُ  
والعدْلُ بالملكِ الهُمامِ محمدٍ      بادي المنارِ لكلِّ من يتظلمُ  
عزَّ الملوكِ الكاملِ الشرفِ الذي      لعلائهِ السبعُ الكواكبُ تحمُ<sup>(3)</sup>

فكافأه السلطان مجيباً إياه بنظم يبتدئه بمقدمة غزلية أيضاً:

وهيَّجن شوقي للأجارع باللوى      وأين اللوى مني وأين الأجارعُ  
رعى الله أياماً ولو أنَّها      إليَّ وقد ولى الشبابُ رواجعُ<sup>(4)</sup>

ثم يُثني بالإجابة على أبيات ابن دحية نثراً، مميّزاً إياها بالحسن والصفاء بقوله: «الحمد لله وليّ الحمد ... وليس من البديع أن يقذفَ البحرُ دُرّاً، أو ينظم الخليل شعراً، وقد أخذت الورقة لأنتزه في معانيها، وأستفيد بها أودعه فيها، فالله تعالى لا يخلينا من فوائد فكرته، وصالح أدعيته والسلام»<sup>(5)</sup>.

ويرد الحافظ ابن دحية على الأبيات مستخدماً القافية والبحر نفسيهما، بقصيدة يكثر فيها من التغزل، يقول:

(1) حصن كَيْفَا: ويقال كَيْبَا، وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر، وكانت ذات جانبين، وعلى دجلتها قنطرة عظيمة. معجم البلدان، 2/ 265.

(2) انظر الدراسة، ص 68.

(3) عنوان الدراية، ص 272، 273.

(4) النفح، 2/ 101.

(5) عنوان الدراية، ص 275. النفح، 2/ 101.

شجّنتني شواجٍ في الغُصُونِ سواجُ      ففاضتْ هوامٌ للجفونِ هوامُ  
وما محتني في الحبِّ غيرُ عزيزةٍ      هي البدرُ في ليلِ النوائِبِ طالعُ  
ثم ينتقل إلى مدح الملك الكامل مشيداً بفضائله الحربية والخلقية:

يدافعُ عني الضيمَ قائمٌ سيفه      إذا عزَّ من للضيمِ عني يُدافعُ  
كتائبُه منصورةٌ بكتائب      من الملاء الأعلى وجبريلُ وازعُ  
وتفتَحُ قسطنطينةٌ وقلاعُها      يتأخُّ لها أمرٌ من الله قالعُ  
ومنك عيونٌ للمهائمِ يُقَطُّ      وعنك عيونُ الحادِثاتِ هواجعُ<sup>(1)</sup>

لئن كانت الأبيات السابقة على صورة المطارحة والمساجلة، لكنها تبين إعجاب ابن دحية بالملك الكامل، ومطارحته له على سبيل المدح والإشادة، من الشاعر إلى السلطان، لذلك عُدَّت من باب المنادمة.

أما المجالس الأدبية الأخرى، فقد كان الشعراء الأندلسيون يجتمعون فيها بشعراء مصر وشعراء الشام، ويشاركون في نظم الشعر أو إجازته، وعكست هذه اللقاءات، ما تميزت به العلاقات بين الشعراء من مودة لا تخلو في بعض الأحيان من التنافس الذي قد يصل درجة من العداء والمشاتمة، في القليل النادر منها.

وكان الشعراء المرتحلون يجتمعون مع شعراء المشاركة في المنزهات وعند البرك والأنهار، فحينما دخل ابن سعيد القاهرة «صنع له أدباؤها صنيعاً في ظاهرها، وانتهت بهم الفرجة إلى روضة نرجس»<sup>(2)</sup> وكان هذا المجلس يضم من شعراء المشاركة أبا الحسين

(1) انظر القصيدة: عنوان الدراية، ص 275-278.

(2) الإحاطة، 4/ 155.



الجزّار<sup>(1)</sup>، ونجم الدين بن إسرائيل الدمشقي<sup>(2)</sup>، وابن أبي الأصبع<sup>(3)</sup>، ومشى أحدهم على بسيط نرجس، فقال ابن سعيد ارتجالاً:

يا واطيّ النرجس ما تستحي أن تطأ الأعين بالأزجل  
فتهافتوا بهذا البيت، وراموا إجازته، فقال ابن أبي الأصبع:

فقلت دعني لم أزل مُحرجاً على لحاظ الرشأ الأكحل  
وكان أمثل ما حضرهم، ثم أبوا أن يجيزه غير ابن سعيد فقال:

قابِلْ جفوننا بجفونٍ ولا تبتذل الأزقع بالأسفل<sup>(4)</sup>  
ثم استدعاه سيف الدين بن سابق<sup>(5)</sup>، صاحب الأشغال السلطانية إلى مجلس بمصر بصفة النيل مبسوط بالورد. وقد قامت حوله شهادات نرجس فقال في ذلك، مفضلاً الورد:

من فضّل النرجس فهو الذي يرضى بحكم الورد إذ يرأس  
أما ترى الورد غداً قاعداً وقام في خدمته النرجس

---

(1) أبو الحسين الجزّار: يحيى بن عبدالعظيم، شاعر مصري ظريف كان جزاراً بالفسطاط، أوصله شعره إلى السلاطين والملوك، كانت بينه وبين السراج الوراق مداعبات، توفي سنة 679هـ. انظر: المغرب، القسم الخاص بمصر، ص 296-297. الفوات، 4/ 277-293.

(2) نجم الدين بن إسرائيل: محمد بن سوار بن إسرائيل، ولد بدمشق سنة 603هـ، كان مليح النظم رائق المعاني، توفي بدمشق سنة 677هـ. الفوات، 3/ 383. العبر، 3/ 336.

(3) ابن أبي الأصبع: عبدالعظيم بن عبدالواحد بن ظافر بن أبي الأصبع العدواني البغدادي ثم المصري الشاعر، من العلماء بالأدب، وُلد بمصر سنة 595هـ، توفي بها سنة (654هـ). الفوات، 2/ 363-364. النجوم الزاهرة، 7/ 37.

(4) انظر الحادثة والأبيات، الإحاطة، 4/ 155، النفع، 2/ 269.

(5) سيف الدين بن سابق: أبو الحسن علي بن عمر بن قزل المعروف بالمشدّد، كان يتولى الأعمال في الدواوين بمصر والشام، توفي سنة 656هـ. المغرب، القسم الخاص بمصر، ص 260. الفوات، 3/ 51.

«ووافق ذلك ممالك الترك وقوفاً في الخدمة على عادة المشاركة فأطرب الحاضرين»<sup>(1)</sup>. كما لقي ابن سعيد في مصر أيْدمَر المُحيي، والبهاء زهير<sup>(2)</sup>، وجمال الدين ابن مطروح<sup>(3)</sup>، وجمال الدين موسى بن يغمور<sup>(4)</sup>.

وقد أشاد ابن سعيد بطريقة البهاء وشعره بقوله: «وحملني الشَّغْفُ بطريقة هذا الرجل، على حفظ ما يرد من شعره على أفواه الواردين من المشرق، إلى أن جمع الله بيني وبينه بالقاهرة حاضرة الديار المصرية»<sup>(5)</sup> وانفعل أشد الانفعال في مقطوعة زهير التي أنشده إياها، ومنها:

رُوبِدَكَ قَدْ أَفْنَيْتَ يَا بَيْنَ أَدْمُعِي      وَحَسْبُكَ قَدْ أَحْرَقْتَ يَا وَجْدُ أَضْلُعِي  
إِلَى كَمِ أَقَاسِي لَوْعَةً بَعْدَ لَوْعَةٍ      وَحَتَّى مَتَى يَا بَيْنَ أَنْتَ مَعِي مَعِي  
رَعَى اللَّهُ ذَاكَ الْوَجْهَ حَيْثُ تَوَجَّهُوا      وَحَيْثُهُ عَنِّي الشَّمْسُ فِي كُلِّ مَطْلَعٍ<sup>(6)</sup>

ثم تبادلوا الحديث حول طريقة المغاربة وطريقة المشاركة في استخدامهما الألفاظ والمعاني، واستشهد البهاء لابن سعيد بأمثلة على طريقة المغاربة من شعر بعض شعرائهم، كابن خفاجة وابن زيدون، وعلى طريقة المشاركة من شعر بعض شعرائهم<sup>(7)</sup>. وسنقف

(1) انظر الحادثة والأبيات، الإحاطة، 4/ 155. النفح، 2/ 272. وقد وجدت الأبيات في مسالك الأبصار (مخطوط) شريط رقم 1529. الجامعة الأردنية، ج 8، ق 2، ورقة 387.

(2) البهاء زهير، بهاء الدين أبو الفضل الأزدي المهلبى ثم القوصي المصري الشاعر، ولد سنة (581هـ)، وتوفي سنة 656هـ، وله شعر عذب. البداية والنهاية، 13/ 224.

(3) ابن مطروح: جمال الدين يحيى بن عيسى، شاعراً كَيْساً، استنابه الملك الصالح على دمشق، مدح الناصر داود صاحب الكرك لما استعاد القدس، توفي بمصر سنة (650هـ). انظر: وفيات الأعيان، 6/ 258-260. البداية والنهاية، 13/ 194-195.

(4) النفح، 2/ 272.

(5) الوافي، 14/ 232.

(6) ديوان البهاء زهير، دار صادر ودار بيروت، بيروت 1964، ص 195.

(7) انظر الوافي، 14/ 233-235.

عند هذه المقارنة في الجزء المتعلق بالتأثر والتأثير من الفصل الفني. كما أعجب ابن سعيد بشعر أبي الحسين الجزار وعلى وجه الخصوص في المقطوعة التي يقول فيها:

مَنْ مِنْ صِيفِي مَنْ مَعْشِرٍ كَثُرُوا عَلَيَّ وَكَثُرُوا  
صَادَقْتُهُمْ وَأَرَى الْخُرُوجَ مِنَ الصَّدَاقَةِ يَعْسُرُ  
كَالْحِطِّ يَسْهُلُ فِي الطَّرْسِ وَمَحْوُهُ مُتَعَذِّرُ  
وَإِذَا أَرَدْتَ كَسْطَهُ لَكَ ذَاكَ يَسْطَرُ

وابن سعيد بمقاييسه النقدية الخاصة، يصف هذه المقطوعة بأنها تحتوي على المعنى الغريب، الذي فاق ما لابن الرومي وأبي تمام<sup>(1)</sup>. وفي ذلك مبالغة، وحكم نقدي مبني على المجاملة.

والتقى أثير الدين مع ابن بنت الأعز<sup>(2)</sup> في جزيرة الروضة، فكتب إليه ووجهه مع بعض غلمانه، إذ يقول مشيداً بأثير الدين وغلّامه:

حَيَّتُ أَثِيرَ الدِّينِ شَيْخَ الْأَدْبَا أَقْضَى لَهُ حَقّاً كَمَا قَدْ وَجَبَا  
حَيَّتُ فَتًى بَطَاقِ آسٍ نَضِيرٍ كَالْقَدْ بَدَأَ مَلَأْتُ مِنْهُ طَرَبَا<sup>(3)</sup>

فأنشده أبو حيان، مضمناً شعره بعض الألفاظ التي وردت في قوله، ومشيداً ببأسه وجوده:

أَهْدَى لَنَا غُصْنًا مِنْ نَاضِرِ الْآسِ أَقْضَى الْقُضَاةَ حَلِيفُ الْجُودِ وَالْبَاسِ  
لَمَّا رَأَى سَقْمِي أَهْدَاهُ مَعَ رَشَا حَلَوِ التَّنْيِ فَكَانَ الشَّافِي الْآسِي<sup>(4)</sup>

(1) انظر الأبيات والخبر في المغرب، الخاص بمصر، 1/ 317.

(2) ابن بنت الأعز: علاء الدين ابن بنت الأعز، من أدباء القاهرة، تولى الحسبة فيها، قدم دمشق وتولى التدريس في الظاهرية، ثم عاد إلى مصر وأقام بها حتى وفاته سنة (699هـ). الفوات، 1/ 106-107.

(3) النفع، 2/ 578.

(4) الديوان، ص 236.

كما تطارح أثير الدين والبهاء زهير، والشهاب العزازي<sup>(1)</sup> الشعر في صبي مصارع يدعى جمال، فنظم فيه زهير قوله:

مُصَارِعٌ تَصْرَعُ الْأَسَادَ شَمْرَتُهُ      تِيهًا فَكُلَّ مَلِيحٍ دَوْنَهُ سَمِجٌ  
لَمَّا غَدَا رَاجِحًا فِي الْحُسْنِ قُلْتُ لَهُمْ      عَنْ حُسْنِهِ حَدَّثُوا عَنْهُ وَلَا حَرْجٌ  
ونظم أثير الدين:

سَبَانِي جَمَالٌ مِنْ مَلِيحٍ مُصَارِعٍ      عَلَيْهِ دَلِيلٌ لِلْمَلَاخَةِ وَاضِحٌ  
لِئِنْ عَزَّ مِنْهُ الْمِثْلُ فَالْكُلُّ دَوْنَهُ      وَإِنْ خَفَّ مِنْهُ الْحَصْرُ فَالرَّدْفُ رَاجِحٌ<sup>(2)</sup>  
أما العزازي فقد أنشد حينما سمع النظم:

هَلْ حَكَمٌ يُنْصَفُنِي فِي هَوَى      مُصَارِعٍ يَصْرَعُ أَسَدَ الشَّرَى  
مُذْفَرَّ عَنِّي الصَّبْرُ فِي حَبِّهِ      حَكَى عَلَيْهِ مَدْمَعِي مَا جَرَى  
أَبَاحَ قَتْلِي فِي الْهَوَى عَامِدًا      وَقَالَ كَمْ لِي عَاشِقٍ فِي الْوَرَى  
رَمِيَّتُهُ فِي أَسْرِ حَبِّي وَمَنْ      أَجْفَانٍ عَيْنِيهِ أَخَذَتْ الْكُرَى<sup>(3)</sup>

ولا تخلو هذه الأبيات من المبالغة، والارتجال الذي يتبادر إلى خواطر الشعراء حسب ما يتطلبه الموقف، مضمنين شعرهم بعض الصور المتوارثة من مخزون ما يحفظون، ولا يخفى ما في هذه الأبيات من تشابه معانيها وتكرار بعض ألفاظها، مما يجعلها تحمل سمات متقاربة لا تجعل لكل شاعر منهم استقلالية خاصة في ألفاظه ومعانيه وتراكيبه، أو أثر خاص لسمات مشرقية أو مغربية، لأنها نسيج متقارب في مشهد واحد جاء النظم فيه مقصوداً، فتأثر كل شاعر بما نظمته الآخر.

(1) الشهاب العزازي، أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم، شاعر مصري كان بزازاً في القاهرة بقيسارية جركس، له موشحات وألغاز، توفي سنة (710 هـ). النجوم الزاهرة، 9/ 214.

(2) الديوان، ص 436.

(3) انظر الحادثة والأبيات في النفع، 2/ 579-580. لم ترد أبيات زهير في ديوانه.

وتقارب الأبيات السابقة، أبيات نظمها كل من أثير الدين وابن بنت الأعز عند رؤيتهم شاباً حسناً يسبح وقد تلطخ بالتراب، بإيعاز من القاضي صدر الدين بن فخر الدين بالقاهرة، فقال ابن بنت الأعز مشبهاً إياه بالبدر يظلمه السحاب:

وَمُتَرَّبٌ قَدْ ظَنَّ أَنَّ جَمَالَهٗ      لَمْ تَبْصُرِ الْأَبْصَارُ فِيهِ مَنَظَرَا  
وَكَأَنَّهٗ بَدْرٌ عَلَيْهِ سَحَابَةٌ      وَالتَّرْبُ لَيْلٌ مِنْ سَنَاهُ مُقَمَّرَا

ونظم فيه أثير الدين، مشبهاً إياه بكافورة لُطِخَتْ بمسك:

وَمُتَرَّبٌ قَدْ ظَنَّ أَنَّ جَمَالَهٗ      سَيَصُونُهُ مَنَّا بِتَرْبٍ أَعْفَرِ  
فَغَدَا يُضْمِّحُهُ فَزَادَ مَلَاَحَةً      إِذْ قَدْ حَوَى لَيْلًا بِصَبِيحِ أَنْوَرِ  
وَكَأَنَّهَا الْجِسْمُ الصَّقِيلُ وَتَرْبُهُ      كَافُورَةٌ لُطِخَتْ بِمَسْكِ أَذْفَرِ<sup>(1)</sup>

واجتمع ابن سعيد المغربي مع جماعة من شعراء العصر من المصريين وفيهم أبو الحسين الجزار، فنظموا شعراً في غلام نائم تحت شجرة، وقد أشاد أبو الحسين بما نظمه ابن سعيد، مبيناً قدرته في الإتيان بما لم يستطع المشارقة الإتيان به<sup>(2)</sup>. مما يدل على المكانة الأدبية للمغاربة. وإن كانت بعض الآراء لا تخلو من المجاملات، لأن هذه الأشعار هي من قبيل المشاركة والتسلية.

وقد يزيد بعض الشعراء الأندلسيين أبياتاً على نظم المشاركة على سبيل الإجازة، بحيث تكون على البحر والقافية نفسيهما، كما كان من أثير الدين، حينما أنشد قول الشاعر المصري نور الدين القصري في روضة مصر:

ذاتٌ وَجْهَيْنِ فِيهَا قُسِمَ الْحَسَنُ فَأُضْحَتْ بِهِ الْقُلُوبُ تَهَيِّمُ  
ذَا يَلِي مِصرَ فَهوَ مِصرٌ وَهَذَا      يَتَوَلَّى وَسِيمٌ فَهوَ وَسِيمٌ  
قَدْ أَعَادَتْ عَصْرَ التَّصَايِي صَبَاها      وَأَبَادَتْ فِيهَا الْعُمُومَ الْغُيُومَ

(1) الفوات، 1/ 106. لم ترد أبيات أثير الدين في ديوانه.

(2) انظر: الفوات، 3/ 104-105.

فزاد أبو حيان بيتاً وهو:

فبُلِّجَ البحار تسبح نونٌ وبفجَّ القفار يسفح ريم<sup>(1)</sup>

ومن باب الإجازات أيضاً، ما أجازه أبو الروح التاكرني<sup>(2)</sup> لأبيات شرف الدين عمر بن الفارض في غلام اسمه بركات بالجامع الأزهر، إذ قال ابن الفارض:

بركات يحكي البدر عند تمامه حاشاه بل شمس الضحى تحكيه

فأكمل أبو الروح على البحر والقافية نفسيهما:

هذا الكلام فقل لمن قد عابه حسداً وآية كل شيء فيه

لم تذو إحدى زهريته وإنما كملت بذاك ملاحه التشبيه

وكأنه قد رام يغلق جفنه ليصيب بالسهم الذي يرميه<sup>(3)</sup>

وقد تصل المطارحات حد المناكفة والمشاتمة والتعريض بالنسب، من ذلك ما وقع بين ابن دحية وأبي اليمن الكندي<sup>(4)</sup>، فقد كان هناك شخص من أدباء النصارى يتعصب لابن دحية، ويعتقد بصحة نسبة للرسول ﷺ فقال أبو اليمن يعرض بابن دحية من خلال ذلك، طاعناً في نسبه، واصفاً إياه بالخرق:

يا أيها العيسى ماذا الذي تروم أن تثبته في الصريح

إن أبا الخطّاب من دحية شبه الذي تذكره في المسيح

ما فيه من كل سوى أنه ينبح طول الدهر لا يستريح

أخرق لا يهدي إلى رشده كالنار شراً وكلام كريخ

(1) النفح، 2/ 579.

(2) انظر الملحق، الترجمة رقم (30).

(3) النفح، 2/ 607. لم يرد بيت ابن الفارض في ديوانه.

(4) أبو اليمن الكندي: زيد بن الحسن تاج الدين أبو اليمن، النحوي اللغوي المحدث، قدم دمشق وسكن فيها، أقرأ القراءات والنحو واللغة، قرأ عليه المعظم عيسى، توفي سنة (610هـ)، انظر الوافي، 15/ 53.

فردّ عليه ابن دحية على البحر والقافية نفسيهما معارضاً، ومدافعاً عن نسبه، معيماً عليه أن يدافع عنه بنصراني، في حين يُدّم من قبل مسلم مثله:

يَا ذَا الَّذِي يُعْزِي إِلَى هَاشِمٍ  
أَلَسْتُ أَعْلَى النَّاسِ فِي حِفْظِ مَا  
يَكُونُ حَظِّي مِنْكُمْ طَعَنَكُمْ  
وَأَعْجَبُ الْأَمْرِ شِقَائِي بِكُمْ

ذَمُّكَ عِنْدِي فِي الْبَرَايَا تُبِيحُ  
يُسْنَدُ عَنْ جَدِّكُمْ فِي الصَّحِيحِ  
فِي نَسَبِ زَالِكِ عَلِيٍّ صَرِيحُ  
وَأَنْنِي أَهْمِي بِقُومِ الْمَسِيحِ<sup>(1)</sup>

وقد كان السبب الرئيسي في ذلك، اختلافهما في مسألة من مسائل اللغة، إذ صنف ابن دحية مؤلفاً ساه: «الصارم الهندي في الردّ على الكندي»، وبلغ ذلك الكندي، فعمل مصنفاً ساه: «نتف اللحية من ابن دحية»<sup>(2)</sup>.

ولم يسلم ابن دحية من لسان شرف الدين بن عنين اللاذع، إذ قال فيه طاعناً بنفسه:

دَحِيَّةٌ لَمْ يُعْقِبْ فَلَمْ تَعْتَزِي      إِلَيْهِ بِالْبَهْتَانِ وَالْإِفْكِ  
مَا صَحَّ عِنْدَ النَّاسِ شَيْءٌ سِوَى      أَنَّكَ مِنْ كُلِّ بَلَا شَكٍّ<sup>(3)</sup>

وقد يتحاكم بعض شعراء المشاركة إلى بعض شعراء الأندلسيين للحكم على شعرهم، من ذلك ما تحاكم به الجزار، والسراج الوراق<sup>(4)</sup> عند رضي الدين الشاطبي، إذ بعث إليه الجزار شيئاً من شعره فقال: هذا شعر جزل، فلما بلغ الوراق ذلك، أرسل إليه من شعره فقال: هذا شعر سلس، ثم انتهى آخر الأمر إلى القول، ما أحكم بينكما<sup>(5)</sup>.

(1) انظر الحادثة والأبيات، الوافي، 22/ 454-455. لم ترد أبيات أبي اليمن الكندي في ديوانه.

(2) الوافي، 15 / 53.

(3) دیوان ابن عربی، ص 220.

(4) السراج الوزاق: عمر بن محمد بن حسن أبو حفص، شاعر مصر في عصره، كان كاتباً لواليتها، كان حسن التخیل، توفي بالقاهرة، سنة (695هـ). انظر الفوات، 3/ 140. النجوم، 8/ 83.

(5) النفخ، 2/377-378.

ويتبدى من خلال ذلك ثقة المشاركة بأدباء الأندلسيين، وتقدمهم عندهم، كذلك مجاملة الأندلسيين في أحكامهم النقدية، فقد انتهى رضي الدين كما رأينا إلى قوله «ما أحكم بينكما» حتى يرضي الطرفين، كما تبين تلك الحادثة جو التنافس الأدبي والمطارحات، وما كانت تنطوي عليه المجالس من مودة ومشاركة بين الشعراء.

وقد يدلي بعض الشعراء من المشاركة برأيهم فيما يسمعون من شعر المغاربة، كما وقع من ابن دانيال<sup>(1)</sup> حينما زار أثر الدين مع جماعة من الشعراء بسبب مرضه، فأسمعهم قصيدته النحوية التي مطلعها:

هو العلم لا كالعلم شيءٌ تُراوِدُهُ      لقد فارَّ باغيهِ وأنجَحَ قاصِدُهُ<sup>(2)</sup>

فلما فرغ منها، قال ابن دانيال: «إن الشيخ عوفي وما بقي به بأس، لأنه لم يبقَ عنده فضلة»<sup>(3)</sup>. وهذا الرأي يؤكد ثقة المشاركة بشعر الأندلسيين وفضلهم، كما كان من صدق رأي الأندلسيين بالمشاركة.

وهناك صور للمساجلات والمكاتبات الأدبية بين الشعراء الأندلسيين والشعراء المشاركة، تكشف عن مدى التواصل والتواء بينهما مع تقارب الأمانة أو تباعدها، وتعكس رأياً في المشرق وشعرائه، كما تصوّر انطباعات الشعراء الأندلسيين عن بعض الأماكن في المشرق، ومدى ارتباطهم بها.

من تلك المساجلات، ما تكتب به ابن سعيد المغربي مع السراج الورّاق، حيث كتب السراج لابن سعيد مشيداً به، ومورياً باسمه:

إذا ابنُ سعيدٍ سادَ أهلَ زمانِهِ      فقلْ لَهُمُ ما سادَ هذا الفتى سُدَى  
أرى الشُّهْبَ من شرقٍ لغربٍ مسيرُها      لتَحْظَى بأن تهوي لذا النور سُجَّداً

(1) ابن دانيال: محمد بن دانيال بن يوسف الموصلِي شمس الدين، صاحب النظم الحلو والنثر العذب، واضع كتاب «طيف الخيال» كانت له صلة بالملك الأشرف، توفي سنة (710هـ). انظر: الفوات،

330/3-331. الوافي، 3/51-52. النجوم الزاهرة، 9/215.

(2) انظر القصيدة كاملة في الإحاطة، 3/50-56. لم ترد القصيدة في ديوانه.

(3) الوافي، 5/273.



فكتب له ابن سعيد مورياً بالسراج والنور ممتدحاً إياه، على البحر نفسه مخالفاً  
القافية:

أتى بارتسامي في المحبة مسطورٌ      فلله منظومٌ هناك ومنثورٌ  
أهيمُ بمعناكم ومعنى جمالكُم      وأيُّ سراجٍ لا يهيمُ به النورُ  
فأجاب السراج راداً بالفضل على البحر والقافية نفسيهما:

كتابك نور الدين نورٌ مُفتحٌ      أريجُ الشذا من صوب عقلك ممطورٌ  
تأرجح لي لما تبلج حبّذا      سطورٌ بها قد أشرق النور والنور<sup>(1)</sup>

وجرت ملاطفة أخرى بين ابن سعيد، وابن النقيب<sup>(2)</sup>، فقد كتب إليه ابن سعيد  
معجباً بلطافة شعره وحلاوته، مشيداً من خلال ذلك بالأدباء المصريين:

أيا ساكني مصرٍ غدا النيلُ جارِكُم      فأكسبكم تلك الحلاوة في الشعر  
وكان بتلك الأرضٍ سحرٌ وما بقي      سوى أثرٍ يبدو على النظم والنثر  
فأحابه ابن النقيب، بكاتبة لا تخلو من كياسةٍ ودماثة على البحر والقافي نفسيهما:

ولما حللت الثغر زاد حلاوةً      وحليته أعلى من الشذر<sup>(3)</sup> والدُرّ  
فرحتُ وبى شوقٌ وما كنتُ شيقاً      للمثم ذاك الثغر لولاك في الثغر  
فلا تطلبن سحرَ البيان بأرضنا      فكم فيه موسى مُبطلاً آية السحر  
لارقة الشعر الذي كان أولاً      وكيف رقيق الشعر مع قسوة الدهر<sup>(4)</sup>

(1) انظر المساجلة وأبياتها، الوافي، 259 / 22.

(2) ابن النقيب: الحسن بن شاور بن طرخان، ابن النقيب الكنانى، شاعر من فضلاء مصر. وله كتاب  
«منازل الأحباب ومنازل الآداب»، توفي في القاهرة سنة (687هـ). ودُفن بسفح المقطم. الفوات،

1 / 324. الوافي، 12 / 44. النجوم الزاهرة، 7 / 376.

(3) الشذر: صغار اللؤلؤ. لسان العرب، مادة: شذر.

(4) انظر المساجلة والأبيات، الفوات، 1 / 328. الوافي، 12 / 51.

ومن المساجلات الطريفة ما وقع بين ابن سعيد وناظر الديوان ابن محارب. فحينما وصل ابن سعيد إلى الإسكندرية يريد الحجاز، ثقف ابن محارب كتب ابن سعيد ليأخذ الوكالة منها والزكاة. فطرق ابن سعيد منزله وهو يقرأ بعض الكتب، فاحتجب عنه، وأخبر أنه قال: «لقد يصرعوننا هؤلاء المغاربة». فكتب إليه ابن سعيد عاتباً، معتزاً بأصله المغربي، مستهجناً كيف يصدر عنه مثل هذا القول، وهو يُملي الآداب:

يا ذا الحجاب ترفق	ففي حياتي حجاب
إن سدد بأبك عنّي	فكم إلى الله باب
وإن أكن مغريباً	فلي معان غراب
كُتِبَ التآذُبُ ثمّ لي	وعنك يُروى الصواب
ولا تُصيحْ لمثلي	أهك هذا الآداب؟

فأجاب ابن محارب معتذراً، غير متنازلاً عن استيفاء الضريبة:

أدخُلْ فُديتَ رفيقاً	فليس دونك باب
وكلّ ما رُميت يقضى	وبالتجّاح الجواب
سوى ضرائب ملك	فدوئهنّ ضرباً <sup>(1)</sup>

ومن المساجلات الإخوانية بين الأصدقاء، ما جرى بين ابن سعيد وكمال الدين ابن العديم، وكان ابن سعيد قد زار معه المشاهد الخارجة عن دمشق، وفي خدمتهما الماليك بمناطق الذهب، كالولدان في الجنان، فتعهدا على عدم اتخاذ الماليك، فلما مضى ابن العديم إلى حلب، علم أن ابن سعيد عاد لما كان عليه من اتخاذ الماليك، فكتب إليه ناصحاً وعاتباً وملاطفاً:

يا ابن سعيد إليك شوقي	شوقك للغصن والكثيب
نقضت بعد البعاد عهدي	فارجع إلى الله من قريب

(1) انظر المحادثة والمساجلة في القدح، ص 4-5.

فردّ عليه ابن سعيد معترفاً:

يا ابن الكمال اطّرح كتاباً      في الشّوق للغصن والكثيبِ  
واسأل الله أن يُعافي      من مُقلّة الشّادن الرّيبِ  
بتنا كلانا وسوف ننسى      لكنني عُدتُ من قَريبِ<sup>(1)</sup>

وقد ورد مثل هذا الشعر في الغلانيات والعدار، في غير موضع عند ابن سعيد<sup>(2)</sup> بما لا ينفي عنه ذلك.

وساق ابن سعيد بعض المساجلات مما كتبه له شعراء الشام الذين لازمهم، دون أن يورد إجاباته عن هذه المكاتبات، من ذلك ما كتبه به الفخر بن عز القضاة<sup>(3)</sup> من جنته على نهر بردى، بعد أن لازمه ابن سعيد مدةً في دمشق يطلب منه المسارعة وعدم تسويف التمتع بطيب العيش في هذه الجنة، واعتنام زمن اللهو والقصف فيها، وقد تبدّى جمال فصل الخريف:

يا ابن سعيد دُمْتَ في أسعدٍ      هل لك في طيبٍ لنا سرمدٍ  
في جنّةٍ قد جُنَّ سلساها      إذ مرّ بالدرّ على الجلمدِ  
والورقُ التّبريُّ من حوله      يميلُ أو يسقطُ لا تهدي  
أبدي خريفُ الفصل فيه لنا      عشاؤه كيامها نقتدي  
فصلٌ وواصلٌ مُسرّعاً مُنعماً      فكأسُ كلِّ واقفٍ في اليدِ  
وحاش للمجدِّ بأن يرتضي      خلفاً لا أسلفَ من مؤعدِ<sup>(4)</sup>

(1) انظر الخبر والأبيات في القدح، ص 6.

(2) انظر الرايات، ص 176. الوافي، 22/257. النفع، 2/263.

(3) الفخر بن عز القضاة: إسماعيل بن علي بن عبد الواحد فخر الدين المعروف بابن عز القضاة، كاتب وأديب، اتصل بالملك الناصر صاحب حلب، تزهد ولازم الشيخ محيي الدين ابن عربي، توفي سنة (689هـ). انظر الفوات، 1/179-181.

(4) المقتطف، ص 157، 158.

كما كتب له النور الأسعدي<sup>(1)</sup> من دمشق إلى حلب، قصيدة يحنُّ فيها إلى أيامه معه، ويذكره بدمشق وجمالها، متعجباً من صبره على البُعد عنها، وهو الذي يمتاز بركة ولطف يحاكي رقة نسيمها ولطفه:

إليك حنيني لا إلى الكأسِ والصِّبا      وما زال دهرٌ قد قطعناه من ذِكرِ  
ولطفك يقضي أن تكونَ ببلدةٍ      حَكَتْ جَنَّةُ الرِّضْوَانِ قبلَ مدى الحُشْرِ  
أجلَّقتُ في الدنيا فتختارُ غيرها      ما هي لي أرضٌ ولكن سَبَبَتْ فكري  
أصبرُ عن أرضٍ ينوحُ حمائمها      غراماً وتختالُ الغصونُ من الشُّكرِ  
يمرُّ اختلاساَ في رُباهنا نسيمها      فأحسبُه من رَوْضِها سارقَ النُشْرِ  
إذا لم أضعْ عمري على رُغمِ حاسِدٍ      بنيلِ المُنَى فيها فوا ضيعةَ العُمَرِ<sup>(2)</sup>

وكتب له من مصر أيدمر المَحْيَوِي بإشارة من وزير الجزيرة محيي الدين بن ندى، طالباً منه أن يثني العزم على الحضور من حلب إلى مصر، وتجديد العهد بها.

يا رافعاً للمعالي رأيةَ الأدبِ      حتّى متى لا تزال الدَّهْرُ في حَلَبِ  
من كان مثلك لم تقَعِدهُ هَمَّتُهُ      بالفضلِ والجِدِّ والتَّشْمِيرِ في الطَّلَبِ  
قضيتَ مَهَنَةَ أرضِ الشَّامِ فاثنِ إلى      مصر العتاقِ وجَدِّدْ عَهْدَ مُغْتَرِبِ

ثم يذكره بالأيام التي قضيا أصائلها معاً في الأهرام، والجزيرة الصالحية، وبركة الفيل، وتطارحا الشعر عندها، حتى تكون هذه الذكريات حافزاً لرجوعه.

واذكُرْ معاہِدَ قَضَيْنَا أَصَائِلَهَا      بَيْنَ الْمَذَانِبِ<sup>(3)</sup> وَالْأَغْصَانِ وَالْكُتُبِ  
فَكَمْ لَنَا بِذُرَى الْأَهْرَامِ مِنْ نُزْوِ      أَبْدَى لَنَا الدَّهْرُ مِنْهَا كُلَّ ذِي عَجَبِ

(1) النور الأسعدي: محمد بن عبدالعزيز بن عبدالصمد بن رُسْتَم، شاعر فيه مجون وظرف، اتصل بالملك الناصر ومدحه بقصائده سَمّاها الناصريات، توفي سنة (656هـ). الفوات، 3/ 271-272. الوافي، 1/ 188-189. البداية والنهاية، 13/ 225.

(2) المقتطف، ص 160-161.

(3) المذانب: مفرداً مَذْنَب، وهو المسيل في الخفيض، وهو كهية الجدول. لسان العرب، مادة: ذَنَبَ.

والصالحية حيثُ النهرُ عانَقَهَا      كَمْ قَدْ قَطَعَنَاهُ مِنْ جِدٍّ وَمِنْ لَعِبٍ  
وبركةُ الفيلِ لا تُنسى لِيَالِيهَا      والشَّمْعُ فِيهَا يَضَاهِي زِينَةَ الشُّهُبِ<sup>(1)</sup>

لقد لوحظ على الأبيات التي كتبت لابن سعيد من شعراء مصريين وشاميين امتداح كل منهم لبلده، ووصف الأماكن الرائقة الجمال فيها، ووصف معالمها الحضارية ومعاهد أنسها، وتذكيره بمجالسه مع الشعراء فيها، وهو نوع من المفاضلة التي اشتهرت بين مصر والشام، وبين المغرب والأندلس، ولعل الرسائل في ذلك غنية عن التعريف، مثل رسالة القاضي الفاضل<sup>(2)</sup>، ورسالة الشَّقْنُدي<sup>(3)</sup>.

ومن المساجلات الإخوانية المشهورة بين المغرب والمشرق، ما كتبه أبو العباس الغساني<sup>(4)</sup> صديق ابن سعيد من تونس، من أبيات في غاية الرقة لهذا النازح الذي أضحي بعيداً، فتجاذبت الأشواق فؤاد صاحبه الحائق على الدهر الذي جعل التواصل بينهما خيالاً:

يا نازحاً عني أَجِبْ كُتُبِي كما      صَدَحَ الْحَمَامُ إِذَا الْحَمَامُ تَرَنَّتْ  
وَأَجَلْ جَفَوْنَكَ فِي سَطُورٍ لَمْ تَكُذْ      لَوْلَا تَصَعُّدُ زَفَرَتِي أَنْ تُفَهَّهَما  
بِالله طَارِحِنِي الْحَدِيثَ فَإِنِّي      أَهْوَى حَدِيثَكَ مُفْصِحاً وَمُجْمِعِما  
بَاقٍ عَلَى حِفْظِ الْوِدَادِ وَطَالَمَا      أُمْسَى بِأَيْدِي الْحَادِثَاتِ مَقْسِما  
تَتَجَادَبُ الْأَشْوَاقُ قَلْبِي كُلَّما      أَبْصَرْتُ فِيهِ مَكَانَكَ الْمُتَوَهَّما  
وَيَطْوُلُ رَدِّي لِلْكَوْوسِ تَذَكُّراً      فَإِذَا شَرِبْتُ شَرِبْتُ فِيهَا الْعَلْقَما  
وَيَحَا لِهَذَا الدَّهْرِ فَوْقَ أَشْهُما      لِلْحَادِثَاتِ فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ رَمَى

(1) المقتطف، ص 161-162.

(2) انظر تفصيل ذلك في الروضتين، 2/ 57-60.

(3) انظر: النفع، 3/ 186 وما بعدها.

(4) أبو العباس الغساني، كان كاتباً في بلاط المستنصر الحفصي، وجرت بينه وبين ابن سعيد مطارحات كثيرة. انظر: القدر، ص 12. الرايات، ص 144.

ما كان يقنعنا التواصل دائماً فالיום يُقنعنا الخيال مُسلماً<sup>(1)</sup>

ويردّ ابن سعيد بأبيات لا تقل رقة عن أبياته، على البحر والقافية نفسيهما، ولا تخلو من الشوق الذي يضرّم فؤاده لأهله وأصدقائه، واصفاً أثر قصيدة الغساني فيه، حيث غدت مناراً لأفقه الحال ك لما يعانيه في ديار الغربة:

أطلعت في ليل التشوّق أنجباً	لما بعثت مُسائلاً ومُسلماً
لولا كتابك ظلّت فيه حائراً	حيث اتجهت رأيت جنحاً مُظليماً
وافى وأفقي حالك فأنارَه	وأوام شوقي مؤلّم فشفى الظّما
أودعته قلبي ففاح نسيمة	فكانها نورٌ بجمر ضرم ما
عهدي بصدرك مثل بحرٍ زاخِرٍ	لا غرو إن أرسلت دُرّاً نُظّماً
إيه أبا العباس بعدك لم أزل	مهما تدُر مشمولاً متجهماً
ولقد بكيت فلم أجد في الجفن ما	أبكي به إن كنت أبكيت الدّما <sup>(2)</sup>

ولعل هذه المساجلة تختلف عما سبقها، إذ يتبدّى فيها صدق العاطفة، وحرارة المشاعر، فلا غرابة في ذلك، إذ إنها مكاتبة بين ابن سعيد وصديقه الذي قضى معه أيام شبابه، وقد كتب أبو العباس أبياته من أرض الوطن الذي لا ينفك ابن سعيد يحن إليه وهو فيه، فكيف إن تباعد عنه، ولا شك أن عوامل البُعد وارتباط بالأهل والأصدقاء والحنين إلى الوطن التي اجتمعت في هذه المساجلة، جعلتها من أصدق المساجلات الإخوانية وأرقّها.

ونأتي للمعارضات، فقد عارض بعض الأندلسيين المرتحلين، قصائد مشهورة لمشاركة من عصور متقدمة، ومن أشهرها معارضة ضياء الدين أبي الحسين علي بن محمد الخزرجي<sup>(3)</sup> لقصيدة كعب بن زهير المشهورة التي يمدح فيه الرسول ﷺ ومطلعها:

(1) المقتطف، ص 162، 163.

(2) القدح، ص 5. المقتطف، ص 163، 164.

(3) انظر الملحق، الترجمة رقم (26).

بَأَنْتَ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبُولُ      مُتَمِّمٌ إِنْزَهَامَ لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ<sup>(1)</sup>

وأما الخزرجي فقد خالف ما ذهب إليه كعب، فما عَادَت سعاد سؤله، فوصلها  
وعدمه سيان، لأن وعدھا محطول، يقول:

مَا فِي سَعَادُ لَنَا قَصْدٌ وَلَا سَوُلُ      فَإِنَّ قَلْبِي عَنْهَا الْيَوْمَ مَشْغُولُ  
وَمَا سَعَادُ وَمَا مَقْدَارُ مَنْصِبِهَا      حَتَّى أَيْتَ وَقَلْبِي مِنْهُ مَتَّبُولُ  
سَيَّانَ عِنْدِي إِنْ بَأَنْتَ وَإِنْ وَصَلْتَ      فَوْضَلُهَا بِنِصَالِ الصَّدِّ مَفْصُولُ  
وَمَا أَنْ يَدُومَ لَهَا عَهْدٌ وَإِنْ غَدَرْتَ      فَهُوَ الْوَفَاءُ، وَعَهْدُ الْغَيْدِ مَحْطُولُ

وكانه يأخذ على كعب الابتداء بمقدمة غزلية في مدح الرسول ﷺ لأن حب النبي  
يجب أن يشغله عن حب من سواه، ويطنب ضياء الدين في مدح النبي ﷺ وبيان معجزاته  
في قصيدة زادت على مائتين وثلاثين بيتاً، في حين بلغ عدد أبيات قصيدة كعب بضعا  
وثمانين، ولم يورد ابن رُشيد الأبيات التي تحدثت عن معجزات الرسول ﷺ واكتفى  
بالإشارة إلى بعض الأبيات في خاتمة قصيدة الخزرجي، ومنها:

يَا مَنْ لَهُ فِي حَدِيثِ الْمُصْطَفَى سَنَدٌ      عَالٍ، وَيَسْمَعُهُ وَالنَّقْلُ مَعْلُولُ  
خُذْ هَذِهِ فَهِيَ لِلنَّاسِ تَذَكُّرَةٌ      وَنَظْمُهَا فِيهِ تَقْرِيبٌ وَتَسْهِيلُ  
يَا عَالِمِ السِّرِّ لَا تَفْضَحْ سَرِيرَةَ مَنْ      لَهُ عَلَى عَفْوِكَ الْمَرْجُوُّ تَعْوِيلُ  
وَصِلْ صَلَاةً عَلَى خَيْرِ الْوَرَى فَلَهُ      بَيْنَ النَّيِّينَ تَخْصِيصٌ وَتَفْضِيلُ<sup>(2)</sup>

ولأثير الدين قصيدة يعارض فيها قصيدة كعب سماها «المورد العذب في معارضة  
قصيدة كعب» يبتدئها بمقدمة غزلية، يقول:

لَا تَعْدِلَاةُ فَمَا فِي الْحَبِّ مَعْدُولُ      الْعَقْلُ مَخْتَبَلٌ وَالْقَلْبُ مَتَّبُولُ

(1) انظر القصيدة: ديوان كعب بن زهير بشرح أبي سعيد السكري، نسخة مصورة عن طبعة دار  
الكتب، القاهرة، 1950، ص 6-25.

(2) ابن رشيد الفهري السبتي: ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيبة إلى الحرمين مكة وطيبة.  
تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1981، 3/ 48-49.

هَزَّتْ لَهُ أَسْمُرًا مِنْ خَوْطٍ<sup>(1)</sup> قَامَتْهَا      فَمَا انْشَى الصَّبُّ إِلَّا وَهُوَ مَقْتُولُ

ثم ينتقل بعد المقدمة الغزلية إلى الدعوة إلى التوبة والتبتل للرسول ﷺ :

أَتَاكَ مِنْكَ نَذِيرٌ فَاذِرَنَّ بِهِ      وَبَادِرِ التَّوْبَ إِنَّ التَّوْبَ مَقْبُولُ  
وَأَمِّلِ الْعَفْوَ وَاسْلُكْ مَهْمَهَا قَذْفًا      إِلَى رَضَى اللَّهِ إِنَّ الْعَفْوَ مَأْمُولُ<sup>(2)</sup>

ثم يبين معجزات الرسول ﷺ من انفلاق الحجر ونبع الماء، ويؤكد بقاءها وخلودها.

وعارض ضياء الدين الخزرجي مسمط<sup>(3)</sup> الحريري الذي جاء في مقامته البصرية  
الخمسين، ومطلعه:

خَلَّ اذْكَارَ الْأَرْبُعِ	وَالْمَعَهْ لِـالرُّتَبِ
وَالظَّاعِنِ الْمَوَدِّعِ	وَعَدَّ عَنْهُ وَدَعِ
وَانْدُبَ زَمَانًا سَلَفَا	سَوَدَّتْ فِيهِ الصُّحُفَا
وَلَمْ تَزَلْ مَعْتَكِفَا	عَلَى الْقَبِيحِ الشَّنِيعِ
كَمْ لَيْلَةٍ أَوْدَعَتْهَا	مَائِثًا أَبَدَعَتْهَا
لِشَهْوَةٍ أَطْعَمَتْهَا	فِي مَرَقٍ وَمَضَجِ
وَكَمْ تَجَرَّأَتْ عَلَى	رَبِّ السَّمَوَاتِ الْعُلَى
وَلَمْ تَرَاقِبْهُ وَلَا	صَدَقَتْ فِيمَا تَدَّعِي <sup>(4)</sup>

(1) الخوط: الغصن الناعم، لسان العرب، مادة: خَوْطٌ.

(2) انظر القصيدة كاملة، الديوان، ص 461-471.

(3) المسمط من الشعر: أبيات مشطورة يجمعها قافية واحدة، وقيل ما سمط أرباع بيوته وسمط في قافية مخالفة. لسان العرب، مادة: سمط.

(4) الشريشي، أبو العباس أحمد بن عبدالمؤمن: شرح مقامات الحريري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، 1976، 366/5.



وقد بلغ عدد أبيات مسمط الخزرجي واحداً وأربعين بيتاً، وهو يُقارب عدد أبيات مسمط الحريري التي بلغت أربعة وأربعين، لكن السبتي لم يورد منها إلا عدة أبيات تحمل بعض المعاني التي أوردتها الحريري من التوبة، والتضرع لله واللوذ بأهل الورع للتكفير عن الآثار وهي:

هَـوْنٌ بِأَهْلِ الْبَيْدِ	والهَجَرِ والتَّصْنُوعِ
وَدَنْ بَتَرَكَ الطَّمَعِ	وَلُذْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ
والهَجْجِ بِبَرِّ جَهَنَّمَ	وعِوَالِمِ مَتَّعِ
واندَبَ زَمَاناً قَدْ سَلَفَ	ولم تَجِدْ مِنْهُ خَلْفَ
وابْعَثْ بِأَنْفَاسِ الْأَسَفِ	رِسَالِ التَّضَرُّعِ <sup>(1)</sup>

ويعارض أثير الدين أبو حيان موشحة ابن العفيف التلمساني<sup>(2)</sup> التي يقول في مطلعها متغزلاً:

قَمَرٌ يَجْلُو دَجَى الْغَالَسِ      بَهَرِ الْأَبْصَارِ مُذْ ظَهَرَ  
 أَمِنْ مَنْ شَبَّهَهُ الْكَافِ  
 ذَبَبْتُ فِي حَيَّيْهِ بِالْكَافِ  
 لَمْ يَزَلْ يَسْعَى إِلَى تَلْفِي  
 بَرَكَاتِ الدُّرِّ وَالصَّدْفِ  
 أَهْ لَوْلَا أَعْيُنُ الْحَرَسِ      نَلْتُ مِنْهُ الْوَصْلَ مُقْتَدِرًا<sup>(3)</sup>

(1) ملء العيبة، 46 / 3.

(2) ابن العفيف التلمساني، شمس الدين محمد بن سليمان بن علي، الملقب بالشاب الظريف، شاعر مجيد ولد في القاهرة، وولي عمالة الخزانة بدمشق، مات شاباً سنة (688هـ). انظر: الفوات، 3 / 372-373. الوافي، 3 / 129-130. البداية والنهاية، 13 / 334.

(3) ديوان الشاب الظريف، تحقيق: شاهر هادي سكر، مطبعة النجف الأشرف، العراق 1967، ص 294.

أما موشحة أثير الدين فتأتي على الترتيب نفسه، لكنه يغير من قافية الأسباط، فيجعلها رائية، في حين كانت فائية كما تبيننا عند ابن العفيف، يقول في مطلعها:

عَاذِلِي فِي الْأَهْيَفِ الْأُنْثَى لَوْرَاهُ كَانَ قَدْ عَاذَرَا  
رَشَاءً قَدْ زَانَهُ الْحَوْرُ  
عُصْنٌ مِّنْ فَوْقِهِ قَمَرُ  
قَمَرٌ مِّنْ سُحْبِهِ الشَّعْرُ  
تَغَرُّ فِي فِيهِ أَمْ دُرُّ  
جَالٌ بَيْنَ الدُّرِّ وَاللَّعَسِ خَمْرَةٌ مِّنْ ذَافَهَا سَكِرَا<sup>(1)</sup>

وربما كان تغيير قافية الأسباط عند أبي حيان من باب إظهار قدرة الأندلسيين وبراعتهم، وربما كانت قافية الرّاء كما يرى أبو حيان أكثر ملاءمة، فربما كان تغيير القافية من باب المعارضة، ولإثبات تقدم الأندلسيين على المشاركة في فن الموشح، وقدرتهم على نسجه بطريقة خاصة، قد لا يصل إلى مستواها المشاركة كما يرون

هذه جوانب من صور المعارضات، التي جاء بعضها معارضاً لقصائد من عصور سابقة كقصيدة ضياء الدين الخزرجي وقصيدي أثير الدين اللاميتين في معارضة قصيدة كعب بن زهير، ومسمط الخزرجي الذي يعارض به مسمط الحريري، وجاء بعضها الآخر معارضاً لقصائد شعرية في العصر ذاته، مثل موشحة أثير الدين التي يعارض بها موشحة ابن العفيف. وقد تكون تلك المعارضات من باب المخالفة أو الموافقة كما تبيننا.

وتكشف هذه المعارضات عن تتبع المغاربة لأدب المشاركة؛ قصائدهم، ومقاماتهم وموشحاتهم، وتنبي عن إعجاب أندلسي بتراث المشرق وأدبه، لم يقف الأندلسيون عند امتداحه، بل شاركوا فيه المشاركة، مطارحة أو مساجلة، أو معارضة.

(1) الديوان، ص 495.

## الزهد والتصوف

يُعَدُّ الزهد والتصوف من الظواهر العامة التي لا يخلو منها أي مجتمع من المجتمعات، لكنها ازدادت واتسعت في هذا العصر بصورة تسترعي النظر نتيجة للظروف التي داهمت الناس من فتن وحروب ومجاعات وانتشار أوبئة وكثرة مظالم، فرأوا في التدين سبيلاً للخروج مما يلاقون، بالإضافة إلى تشجيع القائمين على الأمر لهذا الاتجاه، لأسباب قد تكون نابعة من قيم دينية وإقامة العدل والصلاح زمن الأيوبيين وخاصة صلاح الدين، وإما لتخفيف هؤلاء عن الانشغال بشؤون السياسة خاصة في العصر المملوكي. فزهد بعض الناس واعتزلوا وبالغوا في ذلك، وكثرت الدعوات التي تحض على استصغار الدنيا وعدم التعلق بها في شعر المرتحلين من ذلك ما يدعو إليه أبو الحسن علي بن أحمد الحميري<sup>(1)</sup> من ترك الدنيا وعدم الاغترار بها لأن العمر قصير والموت خير واعظ، في رثائه للعز بن عبد السلام:

أمد الحياة كما عِلِمْتَ قصيرٌ	وعليك نقادُها وبصيرٌ
عجباً لمغترّاً بدارِ فنائه	وليه إلى دارِ البقاءِ مصيرٌ
فسليمُها للنائباتِ مُعرَّضٌ	وعزيزُها بيد الردى مقهورٌ
أيظنُّ أنَّ العمرَ ممدودٌ لهُ	والعمرُ فيه على الردى مقصورٌ <sup>(2)</sup>

وما دامت الأيام زائلة لا محالة، فقد دعا الزهاد إلى المسارعة لعبادة الله تعالى والابتغال والدعاء له بطلب المغفرة، يقول ضياء الدين الخزرجي:

يائماً وعيونُ القوم ساهرةٌ	ولا يُبالي أطلال الليل أم قَصُرا
قُم للتهجدِ يا نومانُ مجتهداً	فللجديدين سيفٌ ينسفُ العُمرا
وبشَّرَ الفجرُ باليوم الجديدِ فقم	ونادِ من لم يَزَلْ في الملكِ مُقتدرا
يا عالم السرِّ لا تفضِّحْ سريرةَ مَنْ	وافاك يافالق الإصباحِ مُفتقرا

(1) انظر الملحق، الترجمة رقم 21.

(2) النفع، 611/2.

وَقَدْ دَعَاكَ قَرِيحَ الْقَلْبِ مِنْكَسِرًا وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا أَبْدَى وَمَا سَتَرَا  
فَهَبْ لَهُ تَوْبَةً وَارْحَمْ تَضَرُّعَهُ إِلَيْكَ وَاعْفِرْ لَهُ يَا خَيْرَ مَنْ عَفَّرَا<sup>(1)</sup>

ولا بد من اتباع سبيل المصطفى ﷺ والتمسك بكتاب الله للنجاة من عقاب الله تعالى، كما يقول محمد بن عبد الله المُرسي<sup>(2)</sup>:

مَنْ كَانَ يَرْغَبُ فِي النِّجَاةِ فَمَا لَهُ غَيْرَ اتِّبَاعِ الْمُصْطَفَى فِيمَا أَتَى  
ذَاكَ السَّبِيلُ الْمُسْتَقِيمُ وَغَيْرُهُ سُبُلُ الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالَةِ وَالرَّدَى  
فَاتَّبِعْ كِتَابَ اللَّهِ وَالسُّنَنَ الَّتِي صَحَّتْ فِذَاكَ إِذَا اتَّبَعْتَ هُوَ الْهُدَى  
الَّذِينَ مَا قَالَ النَّبِيُّ وَصَحْبُهُ وَالتَّابِعُونَ وَمَنْ مَنَاهِجُهُمْ قَفَا<sup>(3)</sup>

وقد كان الزهد ثورة على الحياة اللاهية، لذلك كان على المرء ألا يتلهى بمتاع الدنيا وملذاتها، بل عليه أن يقنع ويثق بالله تعالى حتى يحظى بمكانة رفيعة، يقول علي بن أبي بكر ابن عتيق<sup>(4)</sup>:

وَأَقْنَعْ بِمَا أَعْطَاكَ رَبُّكَ رَاضِيًا إِنَّ الْقَنَاعَةَ كَنْزُهَا لَا يَنْفَدُ  
إِنْ الْوُثُوقَ بِذِي الْمَعَالِي رَفَعَةً يَحْظَى بِهَا الْعَمَدُ الرَّشِيدُ الْأَسْعَدُ<sup>(5)</sup>

كما يحث الشاعر على التحلي بالأخلاق الحميدة التي تقرب المرء من خالقه تعالى كالصدق والحلم، ويحذر من الصفات التي تباعد بينه وبين الله تعالى مثل الكذب والنميمة والحسد، يقول:

إِيَّاكَ وَالْكَذِبَ الْمُثِيرَ عَدَاوَةً إِنَّ الْكَذُوبَ عَنِ الْإِلَهِ لُبْعَدُ  
وَالصَّدْقُ أَوَّلُ مَا مَلَكَتْ طَرِيقَهُ فَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الْأَقْصَدُ

(1) ملء العيبة، 47-48.

(2) انظر الملحق، الترجمة رقم (44).

(3) معجم الأدباء، 18/212.

(4) انظر الملحق، الترجمة رقم (17).

(5) معجم الأدباء، 18/212.

إِنَّ النَّمِيمَةَ خَصْلَةٌ مَذْمُومَةٌ      يَسْعَى بِهَا النَّذْلُ اللَّئِيمُ الْأَوْعَدُ  
لَا تَحْسُدَنَّ أَحَدًا عَلَى مَا عِنْدَهُ      فَالْعَاقِلُ الْمَغْبُوطُ مَنْ لَا يَحْسُدُ  
وَاحْلَمْ فَإِنَّ الْحِلْمَ خَيْرٌ مَطِيَّةٍ      مَنْ كَانَ رَاكِبُهَا يُجَلُّ وَيُحْمَدُ

كما يدعو إلى اتقاء مطاعم الشبهات، والحرص على تناول الطعام من مصدر حلال،  
يقول:

وَاجْعَلْ طَعَامَكَ مِنْ حَلَالٍ خَالِصٍ      فَمَطَاعِمُ الشُّبُهَاتِ سُمٌّْ أَسْوَدُ<sup>(1)</sup>

ويغرق الزهاد في النفور من الدنيا، ويستمرون في مجاهداتهم لإخراج حُبِّها والتعلق بها من قلوبهم، فيتطوّر الزهد حتى يصل مرتبة أسمى هي التصوف، فالحياة الالهية وما يلاقونه من ضنك العيش يدفع بهم إلى الانعزال التام والإغراق في الروحانيات ومناجاة الذات الإلهية، حيث تبدى لهم أسرار يستشعرون بها لذة تفوق أية لذة دنيوية، يعبرون عنها في أشعارهم.

ومن أشهر الشعراء المتصوفين من المرتحلين محيي الدين بن عربي، وأبو الحسن الشُّشْتَرِي اللذان تميز الشعر الصوفي لكل منهما بالغزارة والتنوع، ولا يمكننا في هذه الدراسة أن نقف عند نتاج كل منهما لسعته، ولأنه يحتاج إلى دراسة مستقلة ولكننا سنبين جوانب من تأثير عقائدهما وعلاقاتها في البيئة الجديدة في مصر والشام.

فابن عربي وصف بأنه ظاهري المذهب في العبادات، باطني النظر في الاعتقادات<sup>(2)</sup> وقد تأثر بمؤثرين أحدهما إسلامي والآخر غير إسلامي، يتلخص الأول في الكتاب والسنة والنظرات الصوفية السابقة وآراء المتكلمين، وترجع المؤثرات غير الإسلامية إلى الفلسفات الثقافات الأجنبية من يونانية وهندية وفارسية، فقد كانت تتردد على خياله

(1) عقود الجمان (مخطوط)، ج 5، ورقة 90.

(2) النفح، 2/ 105.

على خياله شطحات صوفية وأفكار فلسفية لحصيلته الثقافية المتعددة الروافد<sup>(1)</sup>. وذهب إلى أن الوجود كله واحد، وأن وجود المخلوقات عين وجود الخالق، بمعنى أن وجود المخلوقات وحدة واحدة دليل وجود خالق واحد لها، فالوجود بأسره وحدة واحدة ليس فيه ثنائية أو تعددية<sup>(2)</sup>، وقد نفى عن نفسه القول بالوحدة والاتحاد اللذين قال بهما الملحدون، حين قالوا: «إن شخصية النفس وذات الإله لا يختلفان»<sup>(3)</sup> يقول:

وَدَعَ مَقَالَـةَ قَوْمٍ قَالَ عَالِمُهُم      بَأَنَّهُ بِأَفْلَهـِ الْوَاحِدِ اتَّحَدَا  
الْإِتِّحَادُ مُحَالٌ لَا يَقُولُ بِهِ      إِلَّا جَهْلٌ بِهِ عَنْ عَقْلِهِ شَرِدَا  
وَعَنْ حَقِيقَتِهِ وَعَنْ شَرِيعَتِهِ      فَاعْبُدْ إِيَّاهُ لَا تَشْرِكْ بِهِ أَحَدَا  
وَانْهَضْ إِلَى وَهَبِ الْأَسْرَارِ تَحْظَ بِهِ      وَلِتَتَّخِذْ عِنْدَهُ قَبْلَ الْقُدُومِ يَدَا<sup>(4)</sup>

وتولدت عن وحدة الوجود عند ابن عربي وحدة الأديان، ونظريته في الإنسان الكامل<sup>(5)</sup>. وقد أثارت آراء ابن عربي الفقهاء في مصر ضده وسعوا إلى إراقة دمه، وأوذى بسببها وأودع السجن، لولا صديقه أبو الحسن البجائي الذي تأول كلامه بأنه «شطحات في محل سُكِرَ ولا عَتَبَ على سكران»<sup>(6)</sup>، وقد اتصل ابن عربي بابن الفارض من شعراء مصر، حيث بعث له يستأذنه في شرح تائيته، فقال: «كتابك المسمى بالفتوحات المكية شرح لها»<sup>(7)</sup> أما شيخ مشايخ الديار المصرية عز الدين بن عبدالسلام فقليل إنه طعن بابن

(1) علي الخطيب؛ اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف، القاهرة، 1404هـ، 297.

(2) طلعت غنام؛ أضواء على التصوف، عالم الكتب، القاهرة، ص 219-220.

(3) آسين بلاثيوس: ابن عربي حياته ومذهبه، ترجمه عن الإسبانية، عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ودار القلم، لبنان 1979، 257.

(4) ديوان ابن عربي الكبير (مخطوط)، الجامعة الأردنية، ص 441.

(5) أضواء على التصوف، 39-40، ولزيد من التفصيل، انظر 228-237.

(6) عنوان الدراية، 157-158.

(7) النفح، 2/ 166.

عربي ظاهراً، لكنه حينما سئل: أين القطب، أشار إليه، فقليل له: فأنت تطعن فيه، فردّ مجيباً: أصون ظاهر الشرع<sup>(1)</sup>.

أما في الشام فقد لقي ابن عربي كل حفاوة وتكريم من ملوكها وخاصة من الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ( - ت 613 هـ). وكان الناس يلجأون إلى ابن عربي للتوسط لدى السلطان لقضاء حوائجهم، حتى إنه كما قال، رفع إليه في مجلس واحد مائة وثمانى عشرة حاجة فقضاها كلها<sup>(2)</sup>. وقد بلغ في بلاطه نفوذاً زاد على نفوذ الفقهاء الذين شنّ عليهم حرباً لتغلب أهوائهم على نفوسهم، حيث أفتوا للظاهر غازي بتحليل العديد من الأفعال المحرمة، بالإضافة إلى كراهية ابن عربي لهم لموقفهم المتشكك من الصوفية<sup>(3)</sup>. كما كانت له علاقة جيدة بالملك المعظم عيسى ( - ت 637 هـ) وأراد أن يؤمن له معاشه، فأجرى عليه كل يوم مائة درهم فضة، فوجد ابن عربي في ذلك سبيلاً للتصدق بها<sup>(4)</sup>.

وقد شهد أجّل مشايخ الشام مثل كمال الدين الزمלקاني، وسعد الدين الحموي لابن عربي بسعة علمه، مشبهين إياه بالبحر الزخار الذي لا ساحل له، واصفين من أنكروا عليه عقائده بجهلهم وقصور أفهامهم عن الإدراك، كما لقي الإجلال من قاضي قضاة الشافعية في عصره شمس الدين الحنوّي، وقاضي قضاة المالكية<sup>(5)</sup>.

وقد خلف ابن عربي في كل بلد نزل به ما كان قد كتبه من المصنفات التي اشتغل بها الناس، وما زالوا إلى اليوم، يحاولون تفسير ما فيها من شطحات صوفية وإشارات ورموز بعيدة.

(1) النفح، 2/ 183.

(2) الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت، 4/ 539.

(3) المصدر السابق، 3/ 69-70.

(4) السابق، 4/ 558، 560.

(5) النفح، 2/ 178، 179.

أما أبو الحسن الششتري فقد تنقل بين مصر والشام، ووصفه الغبريني صاحب عنوان الدراية بأنه «من الطلبة المحصلين ومن الفقراء المنقطعين، له معرفة بالحكمة، ومعرفة بطريق الصالحين والصوفية، وله تقدم في علم النظم والنثر على طريقة التحقيق»<sup>(1)</sup>، وقد أخذ عن محيي الدين ابن عربي، واجتمع في الشام بالشاعر الصوفي نجم الدين محمد بن سوار بن إسرائيل الدمشقي (ت 677هـ)، وأعجب كل منهما بالآخر<sup>(2)</sup> وقال عن النجم «ألفيته على قدم التجرد، وله أشعار وأذواق... وكان من الأمراء وأولاد الأمراء، فأصبح من الفقراء وأولاد الفقراء»<sup>(3)</sup>. وتنقل الششتري بين الربط والأديرة في مصر والشام، وتركت هاتان البيئتان أثراً في موشحات وأزجال الششتري ألفاظها ومضامينها، كما كان له دور بَيِّن في إيصال معانيها الصوفية إلى الناس ببساطة نظراً لأنها صيغت على لغة العامة ولسهولة غنائها وتلحينها، وعلى بساطتها، لم تخل من العمق، وسنقف عند بعض موشحاته وأزجاله، وموشحات ابن عربي في الدراسة الفنية إن شاء الله.

ومن الشعراء المتصوفين الذين كتبوا في معاني التحقيق من المرتحلين أبو الحسن الحرالي التُّجيبِي<sup>(4)</sup> الذي كان لديه علم في التفسير والفقه والطبيعات والمنطق، والتقى بالعز بن عبدالسلام شيخ الديار المصرية ووقع بينهما كلام على التفسير<sup>(5)</sup>، وقد وردت له بعض الأبيات التي يبين من خلالها أن المعرفة لا يتوصل لها عن طريق العقل بل يتم الوصول إليها بالذوق لأن العقل قد يكون حجاباً، ويقصر عن الإحاطة بالمطلق، يقول:

كَلِمَاتُ بَذَاتِي وَضَلَّةٌ      صَارَ لِي الْعَقْلُ مَعَ الْعِلْمِ جَلَمٌ<sup>(6)</sup>  
يَقْطَعُنِي بِخِيَالَاتِ الْفَنَاءِ      عَنْ وَجُودٍ لَمْ يُقَيِّدْ بَعْدَمٌ<sup>(7)</sup>

(1) عنوان الدراية، 239.

(2) النفح، 2/ 185.

(3) الإحاطة، 4/ 206.

(4) انظر الملحق، الترجمة رقم 18.

(5) عنوان الدراية، 144، 145.

(6) جلم: آلة كالمقص لجز الصوف وقطعه. المعجم الوسيط، مادة: جَلَمَ.

(7) عنوان الدراية، 155.



لكن الأبيات القليلة التي وردت له لا تكشف عن مذهبه الصوفي، ويرجح من آثاره وسيرة حياته أن له شعراً في التصوف غاب الكثير منه.

ومن الشعراء المرتحلين الذين كتبوا في غرض التصوف أثير الدين أبو حيان دون أن يكون متمثلاً لفلسفة التصوف سلوكاً، فلم يكن كلامه إلا نظرياً، ويشير في أبيات أوردها إلى أن الارتقاء بالنفس لا يكون إلا بترك الأغيار (كل ما هو غير الله)، وعندئذ تصعد النفس من الحضيض إلى الرتب العليا، فتزول عنها الحجب وتخرج من رؤية الكثرة إلى رؤية الوحدة، يقول:

فَلَمْ أَرِ فِي الْأَكْوَانِ غَيْرِي لِأَنْنِي	أَزَحْتُ عَنِ الْأَغْيَارِ رَوْحَ حَيَاتِي
وَقَدَّسْتُهَا عَنْ رُتْبَةٍ لَوْ تَعَيَّنَتْ	لَهَا دَائِمًا دَامَتْ لَهَا حَسْرَاتِي
فَهَا أَنَا أَصْعَدْتُهَا عَنْ حَضِيضِهَا	إِلَى رُتْبَةٍ تَقْضِي لَهَا بَثَّاتِ
أَقَامَتْ زَمَانًا فِي حِجَابٍ فَعِنْدَمَا	تَزْحَرْ عَنْهَا رَامَتْ الْحَلَّاتِ
لنَقْضِي بِهَا مَا فَاتَ مِنْ طَيْبٍ أَنْسِنَا	بِهَا وَنَنَالَ الْجَمْعَ بَعْدَ شَتَاتِ <sup>(1)</sup>

هذه بعض الاتجاهات في الزهد والتصوف في شعر المرتحلين سواء كانوا متمثلين للزهد والتصوف أو واصفين له وموردينه غرضاً من أغراضهم، لكننا لا نجد في هذا الشعر ما يربط بين معانيه الدينية العميقة وبين ما يلاقي الشعراء من ضنك الارتحال والشكوى والغربة، لما يجمع بين الاتجاهين من ألم وابتعاد عزلة، ولا شك أن الزهد والتصوف يشكلان مناخاً خصباً للتعبير عن هذه المعاني التي عاناها الشعراء المرتحلون نتيجة البعد عن الوطن.

### اللهو والمجون

كثرت الأشعار التي تصف مجالس اللهو والغناء، وما يجري فيها من شرب الخمر والاختلاط بالنساء، والتغزل بالعلمان، وفي حين كانت ظروف الشدائد والمحن وتفاقم الأخطار، بالإضافة إلى شعور المرتحلين بألم الغربة ومعاناة البعد عن الوطن تؤدي إلى

(1) الديوان، 432.

ازدياد النزعة إلى الزهد والتصوف، كانت هذه الظروف نفسها تؤدي إلى اتجاه آخر نحو اللهو والمجون، حيث كان أصحاب هذا الاتجاه يرون أن الحياة قصيرة فليعبوا من ملذاتها وليستمتعوا بأوقاتها القصيرة ما يستطيعون، فالآلام في زمنهم كثيرة وطويلة.

وقد تفاعل الشعراء المرتحلون مع هذا التيار اللاهني في مصر والشام، وتبادلوا مع الشعراء المشاركة وصف مظاهره، إذ كانت الطبيعة من حولهم وما تبعثه في النفس من جمال تصلح لأن تكون مواطن لمجالس أنسهم ولهوهم، وقد بينا بعض جوانب من هذه المجالس ووصف ما يجري فيها عند الحديث عن وصف المظاهر الحضارية في المشرق من متنزهات وبرك، وفي بعض مطارحات الأندلسيين مع المشاركة وما يتبادلونه من الغزل ووصف الغلمان، لكننا نورد هنا مواضع أخرى تدعّم هذا الاتجاه.

يدعو ابن سعيد إلى اغتنام زمن اللذات وشرب الخمر في روضة غناء تحقق أغصانها طرباً، وتفتح أزهارها التي كحلتها الشمس إشراقاً، يقول:

إذا الغصون غدت خفاقة العذب	فاسجد هديت إلى الكاسات واقترِب
وطارح الورق في أوراقها طرباً	ومل إذا مالت الأغصان من طرب
وانهض إلى أم أنس بنت دسكرة	تجلى عليك بإكليل من الذهب
وانظر إلى زينة الدنيا وزخرفها	في روضة رقمته أنمل السحب
وللازاهر أحداق محذقة	قد كحلتها يمين الشمس بالذهب <sup>(1)</sup>

ونرى ابن حمزة القرطبي<sup>(2)</sup> يصف أحد المجاهرين بشرب الخمر غير آبه بما يترتب على ذلك من العقاب، مسمى إياها بالعجوز لأن حدّها ثمانون جلدة، يقول:

عذلنا فلاناً على فعله	ولنأه في شربه للعجوز
فقال: دعوني من أجلها	أنال أنا وأخي والعجوز <sup>(3)</sup>

(1) الفوات، 3/ 105.

(2) انظر الملحق، الترجمة رقم 23.

(3) النفع، 2/ 374.

ولابن خروف النحوي<sup>(1)</sup> أبياتٌ يصف فيه حال كأس الخمر، يقول:

أَنَا جَسْمٌ لِلْحُمَيَّا وَالْحُمَيَّا لِي رَوْحٌ  
بَيْنَ أَهْلِ الظَّرْفِ أَغْدُو كُؤُلٌ يَوْمٍ وَأَرْوَحُ<sup>(2)</sup>

ويمزج ابن الجنان بين سكره من اللذات، وسكره من المدام التي تبدو بلونها المذهب كالشمس، فاجتمعت مع وجه محبوبه الذي يشبهه بالشمس فأصبح عنده شمسان يباهي بهما الأفق، يقول:

هَاتِ الْمُدَامَ فَقَدْ نَاحَ الْحَمَامُ عَلَى  
لَا أَسْتَفِيقُ مِنَ اللَّذَاتِ أَوْ نَوَّةً  
وَالْكَأْسُ حُلَّتْهَا حَمْرَاءُ مُذْهَبَةٌ  
إِنْ تَهْتُ بِالشَّمْسِ يَا أَفَقَ السَّمَاءِ فلي  
قُمْ سَقْنِيهَا وَتَغْرِ الصَّبْحَ مَبْتَسِمٌ  
هَذَا الظَّلَامُ وَجِيشُ الصُّبْحِ فِي الطَّلَبِ  
مَا اهْتَزَّتِ الْقُضْبُ فِي مُحْضَرَّةِ الْعَذَبِ  
لَكِنْ أَزَرَّتْهَا مِنْ لَوْلَى الْحَبَبِ  
شَمْسَانِ، وَجْهَ نَدِيمِي وَابْنَةَ الْعَنْبِ  
وَاللَّيْلُ تَبْكِيهِ عَيْنُ الْبَدْرِ بِالشُّهْبِ<sup>(3)</sup>

كما يشمل من سُكر الصبابة بين أدواح غوطة دمشق، حين تأتيه النسائم بأخبار المحبوب وتتلو عليه أحاديث الغرام، يقول:

خَبِرْتُ بِأَنْفَاسِ الرِّيحِ مُعْطَرُ  
وَافِي وَمَا فِي الْقُومِ مِنْ يَدْرِي بِهِ  
تُتْلِي أَحَادِيثُ الْعَرَامِ بِقَلْبِهِ  
حَتَّى إِذَا غَنَى لَهُ الْحَادِي بِهِمْ  
هَزَّ الْمَعَاطِفَ ثُمَّ رَاحَ مُوَلَّاهُ  
وَافِي شَذَاهُ فَظَلْتُ مِنْهُ أَسْكُرُ  
إِلَّا فَتَى فِي حُبِّهِ مَتَنَكَّرُ  
وَلِسَانُهُ عَمَّا بِهِ يَسْتَخْبِرُ  
وَسَرَى لَهُ مِنْ نَشْرِ لَيْلِي الْعَنْبَرُ  
نَشْوَانٌ فِي ذَيْلِ الصَّبَابَةِ يَعْثُرُ

(1) انظر الملحق، الترجمة رقم 24.

(2) الوافي، 22/90.

(3) القدح، 208.

متهتكاً في العاشقين كما ترى      يدي الذي يُخفيه منه ويُضمِرُ<sup>(1)</sup>

وقد تغزل الشعراء في مجالسهم بالنساء والغلمان رابطين بين صفتهم وجمال عناصر الطبيعة من حولهم، من ذلك ما يصف به أثير الدين فتاةً وصفاً حسيّاً مشبهاً نظراتها بنفث السحر، ولين قدّها بالغصن وما تبعته هذه الصفات في فؤاد الصبّ، يقول:

أَسِحْرٌ لَتَلِكَ الْعَيْنِ فِي الْقَلْبِ أَمْ وَخِزٌ      وَلَيْنٌ لَذَاكَ الْجَسَمِ فِي اللَّمَسِ أَمْ خَزٌ  
وَأَمْلُودُ ذَاكَ الْقَدِّ أَمْ أَسْمَرٌ غَدَا      لَهُ أَبْدَأُ فِي قَلْبِ عَاشِقِهِ هَزٌ  
فَتَاةٌ كَسَاها الْحُسْنُ أَفْخَرَ حَلَّةٍ      فَصَارَ عَلَيْهَا مِنْ مُحَاسِنِهَا طَرُزٌ  
وَأَهْدَى إِلَيْهَا الْغَصْنَ لَيْنَ قَوَامِهِ      فَمَا سَ كَأَنَّ الْغَصْنَ خَامِرُهُ الْعِزُّ  
يَضُوعُ أَدِيمُ الْأَرْضِ مِنْ نَشْرِ طَبِيعِهَا      وَيَخْصَرُ مِنْ أَثَارِ ثُرْبَتِهَا الْجُرُزُ  
أَصَابَتْ فُؤَادَ الصَّبِّ مِنْهَا بِنْظَرَةٌ      فَلَا رُقِيَّةٌ تُجْدِي الْمَصَابَ وَلَا حِرْزُ<sup>(2)</sup>

ويصور أبو لحسن الميورقي افتتانه بقدر المحبوب الذي بدا كغصن البان المورق، مأولاً قوله «لا»:

وَذِي هَيْفٍ رَاقٍ الْعَيُونَ انْشَاؤُهُ      بَقَدِّ كَرِيَانٍ مِنَ الْبَانَ مُوْرِقٍ  
كَتَبْتُ إِلَيْهِ: هَلْ تَجُودُ بِزُورَةٍ      فَوْقَ «لَا» خَوْفَ الرَّقِيبِ الْمُصَدِّقِ  
فَأَيَقَنْتُ مِنْ «لَا» بِالْعِنَاقِ تَفَاؤُلًا      كَمَا اعْتَنَقْتُ «لَا» ثُمَّ لَمْ تَتَفَرَّقِ<sup>(3)</sup>

ويصف أبو الربيع سليمان الينيني<sup>(4)</sup> أثر جفون المحبوب فيه، ونفاذها إلى قلبه كالسحر، فيمتثل لأمره:

رَشَاءُ أَصْدَقُهُ وَكَاذِبُ وَعْغِدِهِ      يُبْدِي لِعَاشِقِهِ أَدْلَةَ عُذْرِهِ

(1) القدح، 207.

(2) الديوان، 207-208.

(3) النفع، 2/ 663.

(4) انظر الملحق، الترجمة رقم 10.

لولا تحديده بآية سحره ما كنت ممتثلاً شريعة أمره  
ظهرت نبوة حسنه في فترة من جفنه وضلالة من شعره<sup>(1)</sup>

كما كثر الغزل بالذكر في هذا العصر، فقد كثر الغلمان في مجالسهم نتيجة سبي الحروب الصليبية، وما كان يجلبه تجار الرقيق من أطفال الأتراك والفرنج<sup>(2)</sup>، فكانوا يرافقونهم في رواحهم وغدوهم، ويتشرون في الأماكن العامة كالحمامات والأسواق، وقد وصفوهم في جميع أحوالهم وصفاتهم.

يقول محمد بن أحمد الصابوني<sup>(3)</sup> في وصف ساق:

يسقي الرحيق المختوم من يده ختامه من عذاره مسك  
أسبل دمعني من صده دُرراً جسمي لفرط الضنا لها سلك<sup>(4)</sup>

ويصف ابن خروف القرطبي راقصاً يتمايل فيلعب بقلوب وعقول محبيه لحسنه:

ومُنوع الحركات يلعب بالنهاي كس المحاسن عند خلع لباسه  
بالعقل يلعب مقبلاً أو مدبراً كالدهر يلعب كيف شاء بناسه<sup>(5)</sup>

وحمل العذار معنى خاصاً عند الشعراء، ويشبه علي بن أحمد القادسي<sup>(6)</sup> خد الغلام وعليه العذار بالماء والظل، يقول:

ذاك العذار المَطْل دمي عليه يُطْل  
كانما الخد ماء وقد جرى فيه ظل<sup>(7)</sup>

(1) النفع، 2/ 381.

(2) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف بمصر، 1967، ص 238.

(3) انظر الملحق، الترجمة رقم 37.

(4) الفوات، 3/ 285.

(5) رايات المبرزين، 139.

(6) انظر الملحق، الترجمة رقم 19.

(7) القدح، 213.

ويرد محمد بن عبدالله المرسى على الذين يعيرون العذار، معللاً ذلك:

قالوا فلان قد أزال بهاءه      ذاك العذار وكان بدر تمام  
فأجبتهم بل زاد نور بهائه      ولذا تضاعف فيه فرط غرامي  
إستقصرت الحاظه فتكاتها      فأتى العذار يمدّها بسهام<sup>(1)</sup>

كما كثر وصف الشعراء لأصحاب المهن من الغلمان، رابطين بين طبيعة مهنهم وبين ما يفعلونه بقلوب محبيهم يقول ابن خروف القرطبي في غلام خياط رباطاً بين وخز إبرته في الثياب، ووخز أشفاره في القلوب:

بنى المغيرة لي في حيكم رشا      ظلّال سمركم تغنيه عن سمره  
يزهى به فرس الكرسى من بطل      بإبرة هي مثل الهدب من شفره  
إذا تالت عنها الخيط تحسبها      شهاب رجم جرى والنور في أثره<sup>(2)</sup>

ولأثير الدين في غلام نوتي (ملاح) يجدف في قلب محبيه مع تجديفه بالماء، يقول:

كلفت بنوتي كأن قوامه      إذا ينشني خوط من البان ناعم  
مجادفه في كل قلب مجاذب      وهزأته للعاشقين هزائم<sup>(3)</sup>

ويصف ابن خروف القرطبي غلاماً قواساً، وقد دارت في يده القوس فأصابته إحدى ثناياه، فيعلل ذلك بحسدها له، لأنه البدر وهي الهلال:

لا زرت يا زوراء كف حلاج<sup>(4)</sup>      يوم الهياج ولا رميت نبالا  
نازعت عند الرمي مقلّة شادين      تُصمي القلوب وما تغبّ نصالا  
وقرعت ما يحمى به حسداً له      لما غدا بدرأ ولحت هلالا

(1) معجم البلدان، 18/212. النفع، 2/242.

(2) الغصون اليانعة، ص 140-141.

(3) الديوان، 477.

(4) الحلاج: الثابت الشجاع. لسان العرب، مادة: حَلَل.

فغدت جُمانُهُ سِنَّهُ مُرْجانَةً      وغدا قُراحُ رُضايهِ جريالاً<sup>(1)</sup>

وقد تغزل الشعراء بأصحاب العاهات والأمراض من الغلمان ممتدحين هذه الصفات، وسنأتي إلى بيان بعض جوانب هذه النزعة في الدراسة الفنية إن شاء الله.

لم تكد تخرج معاني اللهو والمجون في شعر المرتحلين عن السمات العامة لمعاني شعر الشعراء في مصر والشام في ذلك العصر، بل تمثل معها اتجاهات متكاملة، وإن كانت بعض المقطوعات التي وردت للشعراء المرتحلين في وصف المظاهر الطبيعية والمجالس والمنتزهات قد حملت سمة خاصة لديهم في القدرة على نسج الصورة الحسية الداخلية في تركيب دقيق متكامل تعبر عنه عناصر الطبيعة وتمتزج به.

### موضوعات متفرقة

#### وصف الرحلة إلى المشرق في شعر المرتحلين

عثرت الباحثة على قصيدة مخطوطة<sup>(2)</sup> من نظم علم الدين القاسم بن أحمد المالقي<sup>(3)</sup> يصف فيها رحلته إلى المشرق، محدداً زمنها، والمكان الذي خرج مرتحلاً منه وعمره حينما ارتحل، ذاكرةً من التقى بهم من العلماء، معدداً فضائلهم، ولقيمة هذه القصيدة في أنها كشفت عن مخطوط يتعلق بتاريخ الأندلس، وأحوالها التي أدت إلى ارتحال الأدباء، وتأكيداً لما سبق أن أوردناه عن الارتحال للمشرق، تقف الباحثة عند معظم أبياتها التي قد لا ترقى إلى مستوى فني مقبول، ولكن لأهميتها الموضوعية.

يبين علم الدين هدفه الرئيسي من الارتحال، وهو طلب العلم، لا سيما المتعلق بكتاب الله تعالى، يقول:

(1) الذيل والتكملة، ج 5، ق 1، ص 398. جريال: خمر شديدة الحمرة. لسان العرب، مادة: جَرَل.

(2) انظر: قصيدة من نظم علم الدين القاسم بن أحمد، مجاميع مخطوط رقم 3818، مكتبة الأسد الوطنية دمشق. ورقة (112-114).

(3) انظر الملحق، الترجمة رقم (32).

وكان من قصتي أن كان لي أملٌ في العلم مع همّةٍ من أشرفِ الهِمَمِ  
لا سيّما في كتاب الله إنَّ له فضلاً على كلِّ متلوٍّ ومُرتَسِمِ  
وقد كثُرَ المرتحلون في طلب العلم، بأعداد يصعبُ حصرها، فالمشرق أساس انطلاق العلوم، بالإضافة إلى وجود الأعلام والمشاهير في العلوم كافة، يقول:

شَمَرْتُ في طَلَبِ الْعِلْمِ مُعْتَمِداً روايةً وقراءاتٍ على أُمَمِ  
حَصَلْتُ أَكْبَرَ ما يروي مشايخُنَا من الغريبِ مع المشهورِ كالْعَلَمِ  
ويبين أنه لم يتجه للمشرق لطلب العلم والحج وزيارة بيت الله الحرام، وهما من أهم أسباب الارتحال، إلا بعد أن حصل العلوم في المغرب:

فحينَ ما صَحَّ لي أعلامُ مغربنا أحييتُ رؤيةً من بالشرق من عَلمِ  
خرجتُ من بلدةٍ تُسمى بمُرسيةٍ أبغى زيارَةَ بيتِ الله والحَرَمِ  
ثم يشير إلى عمره حينما خرج مفارقاً أهله وأصحابه، مواجهاً الصعاب، والمشقة:  
فَارَقْتُ أهلي ومن قد كُنْتُ أَلْفُهُ من الأقاربِ والأصحابِ والْحَدَمِ  
والعمرُ يومئذٍ عشرون تتبّعها ثلاثةٌ قُضِيَتْ في الحَقْضِ والنَّعَمِ  
فتارةً مجمَع البحرَينِ أقطَعه وتارةً أحرَق الأرضَينِ بالْقَدَمِ  
ويبدو الشاعر معتزاً بحياته المنعمة في الأندلس، مقارناً إياها بما يلاقيه من ضنك ومشقة في رحلته.

ثم يبين مسارَ رحلته، ومدن المشرق التي مرّ بها، ممتدحاً صفاتها:

من شَرَقِ أُنْدَلُسٍ كانَ المَسِيرُ إلى فسطاطِ مصرٍ فأرض الشامِ ذي الأَكمِ<sup>(1)</sup>  
إلى دمشق التي من حُسْنِها فَضُلْتُ على البلادِ وحَتَّى أختَها إِرَمِ  
إلى حماةٍ ومن قُدَامِها حَلَبٌ إلى العراقِ ودارِ العِزِّ والحِشَمِ

(1) الأكم: التلال: جمع أكمه، المعجم الوسيط، مادة: أكم.



ويشيد الشاعر بالعلماء الذين التقاهم، وأخذ عنهم علمه، ففي مصر أخذ رواية القراءات عن شيخ الشيوخ الذي لم ينوّه باسمه، والتقى في مدن الشام بجلة من العلماء والفضلاء، خاصة أبا اليُمن الذي قرأ عليه كتاب سيبويه في دمشق:

فحينَ جِئْتُ إلى مصرٍ لقيتُ بها      شيخَ الشيوخ أبا للجودِ والكِرمِ  
فلم أزلْ راوياً عنه قراءته      بالسَّبع مع كتبها المشهورة اللَّقمِ<sup>(1)</sup>  
ثمَّتْ أتيْتُ دمشقَ الشامَ معتضداً      زيدا أبا اليمن تاج الدين ذا الحلمِ  
حتَّى قرأتُ عليه أفخرَ الكتبِ      وسيبويه الجليلِ القدرِ والقِيمِ  
ثم يستكمل بعلماء حلب وحماة، كبهاء الدين بن شدّاد، قاضي حلب، والآمدي<sup>(2)</sup> الفقيه، الذي لازمه مدة:

وقد لقيتُ ابنَ شدّادٍ لدى حَلَبِ      وفي حماة رئيسَ العِلْمِ والحِكمِ  
الآمديَّ الذي سارتْ مباحثُهُ      شرقاً غرباً وما يُتلى على قَدَمِ  
لازمُتُهُ مُدَّةً أقرا دقائقهُ      ومنتهى سُؤلهِ في البحثِ والفَهمِ

ثم ينتقل للحديث عن فضلاء بغداد، مما لا يدخل ضمن هذه الدراسة لتعلقها بمصر والشام، ويبين بعد ذلك مصاحبته لكل إمام من أئمة ومشاهير وعلماء المشرق، الذين بلغت عدتهم عشرين، لكن كثرتهم قصرت عن تسميتهم جميعاً:

عشرون شيخاً إماماً قد لقيتُهُم      لم أُسَمِّهِم كَلْهُم خوفاً من السَّامِ  
وهم مشاهيرُ من بالشرقِ يومئذٍ      وهم أئمّةُ كلِّ العُربِ والعَجَمِ  
ولا بد للشاعر المرتحل أن يتكرر حديثه عن الغربة في كل مناسبة، إذ كان العلم ومن لقيهم من العلماء، من الأمور التي تجلو غربته التي لا ينسى:

(1) اللَّقم: المعظم، ولَقَمُ الطريقِ معظمها، لسان العرب، مادة: لَقَم.

(2) الآمدي، سيف الدين علي بن محمد بن سالم، أصله من ديار بكر، تعلم في بغداد والشام، انتقل للقاهرة، ودرّس بها، صنّف في أصول الفقه والدين والمنطق، استوطن حماة وانتقل لدمشق وتوفي بها سنة (631هـ). انظر، وفيات الأعيان، 3/ 293-294. الشذرات، 5/ 144.

وكنْتَ أَجْلُوهُمْ هَمِّي وَمُغْتَرَبِي      كَأَنِّي بَيْنَ أَهْلِ بَعْدُ لَمْ أَرِمِ  
ويبين أن رحلته طويلة، كثرة التجارب والأحداث، بما لا يستطيع أن يشرحه في  
أبيات:

فهذه رحلتي لو كُنْتُ شَارِحَ مَا      لَأَقَيْتُ فِي الْأَرْضِ مِنْ خَلْقٍ وَمِنْ أُمَمٍ  
لَكُنْتُ تَعَجُّبٌ مِنْ إِحْكَامِ صَانِعِهِمْ      سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنْشَأُ الرَّمَمِ  
ثم ينتقل إلى الحديث عن أهل زمانه شاكياً، ومظهراً ضعفه وقلة حيلته. ونزوعه إلى  
الورع والتقوى وقراءة القرآن في انتظار أجله، منتهياً بقصيدته نهاية وعظية ابتهالية، ومختتماً  
إياها بتاريخ نظمها وهو:

تَسَعُّ وَخَمْسُونَ مَعَ سِتِّ لِهَامَةِ      تَارِيخُ كِتَابِهَا فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ  
**نوادير وطرائف ومداعبات مع المشاركة**

وردت بعض أشعار للمرثخين فيها من الطرافة والدعابة، ما يجعلها خفيفة على  
السمع، قريبة للنفس، تكشف عن بعض أحوالهم الاجتماعية، وعلاقاتهم مع المشاركة وما  
فيها من مودة ولطافة.

فابن سعيد يحمّد عدم زواجه الذي قد يشغله عن طلب العلم والترحال  
والاستمتاع بأزمان اللهو، بسبب تنغيص الزوجة بمطالبها التي لا تنتهي:

أَنَا شَاعِرٌ أَهْوَى التَّخَلِّيَ دُونَ مَا      زَوْجٌ لَكَيْمًا تَخْلُصُ الْأَفْكَارُ  
لَوْ كُنْتُ ذَا زَوْجٍ لَكُنْتُ مَنْغَصًا      فِي كُلِّ حِينٍ رَزَقَهَا أُمْتَارُ<sup>(1)</sup>  
دَعَنِي أُرْجَ طَوَّلَ التَّغْرُبِ خَاطِرِي      حَتَّى أَعُودَ وَيَسْتَقَرَّ قَرَارُ  
مَهْمَا أُرْمَ مِنْ دُونِ زَوْجٍ لَمْ أَكُنْ      كَلًّا وَرَزَقِي دَائِمًا مَدْرَارُ  
وَإِذَا خَرَجْتُ لِفَرْجَةٍ هُنَيْتُهَا      لَا صَنْعَةَ ضَاعَتْ وَلَا تَذْكَارُ<sup>(2)</sup>

(1) أمتار: يطلب الميرة أو الطعام. لسان العرب، مادة: مَيَّرَ.

(2) النفح، 268 / 2.

ومن طريف شعره وقد داعبه أحد الفقهاء وسرق سكينه من حرز قوله:

أيا سارقاً ملكاً مصوناً ولم يحب      على يده قطع وفيه نصابٌ  
ستندبه الأعلام عند عثارها      ويبيكه إن يعد الصواب كتاب<sup>(1)</sup>

ويكتب ابن خروف إلى قاضي القضاة محيي الدين ابن الزكي، يستقبله من مشاركة  
البيمارستان النوري، وكان بوابه يسمى السيد، وهو في اللغة الذئب:

مولاي مولاي أجبرني فقد      أصبحت في دار الأسى والختوف  
وليس لي صبر على منزل      بوابه السيد وجدي خروف<sup>(2)</sup>

ويستهدي ابن خروف فروة خراف من القاضي بهاء الدين بن شداد، لأنها جلد أبيه  
كما يقول:

بهاء الدين والدنيا      ونور المجدي والחסب  
طلبت مخافة الأنواء      من نعامك جلد أبي  
وفضلك عالم أي      خروف بارع الأدب<sup>(3)</sup>  
وله أبيات أخرى في الغرض نفسه<sup>(4)</sup>.

ومن طريف ما جرى بين أثر الدين وصدر الدين ابن الوكيل<sup>(5)</sup>، أن أثر الدين أبا حيان  
حضر لزيارته، فلم يجده في منزله، فكتب بالجبس على عادة المصريين «حضر أبو حيان»  
وكانت الكتابة على مصراع الباب، فلما حضر صدر الدين رأى اسم الشيخ، فكتب إليه:

(1) النفح، ص 266.

(2) الوافي، 91/22.

(3) المصدر السابق، 92/22.

(4) انظر الذيل والتكملة، ج 5، ق 1/397.

(5) ابن الوكيل: محمد بن عمر بن مكي، أبو عبدالله صدر الدين ابن المرحل، شاعر من العلماء بالفقه،  
ولد بدمياط سنة (665هـ) وانتقل مع أبيه إلى دمشق، ولي مشيخة دار الحديث بدمشق، توفي في  
القاهرة سنة (717هـ) ز انظر: الفوات، 4/13-26. البداية والنهاية، 14/82-83.

قالوا: أبو حيانَ غيرُ مُدافعٍ      مَلِكُ النحاةِ فُقِلْتُ بالإجماعِ  
اسمُ الملوكِ على النقودِ وإنني      شاهدتُ كُنيتَهُ على المِصرعِ<sup>(1)</sup>

ولأبي حيان أبيات يصف فيها بعض ذوي العاهات، يرسم من خلالها صوراً  
كاريكاتورية لا تخلو من مداعبات معهم، واستحسان صفاتهم<sup>(2)</sup>.

### الشكوى وعدم الرضا عن العيش

لعل نزعة الشكوى لا تخلو منها أي عصر، ولكنها ارتبطت عند الشعراء المرتحلين في  
معظم مواضعها بالغربة، والبُعد عن الأهل والوطن، وقد أشرنا إلى بعض صورها عند  
الحديث عن الحنين والغربة<sup>(3)</sup>، لكننا نشير إلى بعضها الآخر مما قد لا يكون لها ارتباط  
مباشر بالغربة، وإنما بما نتج عنها من اختلاط بالناس، والشكوى من سلوكياتهم، وتعليل  
ذلك في معظم الأحيان بالبُعد عن الوطن، فرضي الدين محمد بن يوسف يبدو منغص  
العيش، لأنه لم يسكن إلى أحد في غير بلده، يقول:

منغصُ العيش لا يأوي إلى دَعَةٍ      من كان ذا بَلَدٍ أو كان ذا وَلَدٍ  
والسّاكنُ النفسِ من لم ترَضَ هَمَّتُهُ      سُكنى بلادٍ ولم يسكنْ إلى أَحَدٍ<sup>(4)</sup>

ويبدو الشاعر في موضع آخر محتداً، حتى يصل به الأمر إلى تمنّي الموت لسوء أخلاق  
من يجاورهم كما يقول:

لولا بنيّاتي وسبيّاتي      لطرْتُ شوقاً إلى المِهْمَاتِ  
لأنني في جِوارِ قَومٍ      بغَضْني قَرِبُهم حَيّاتي<sup>(5)</sup>

ويشكو أثير الدين كذلك أهل عصره، لانعدام الأوفياء الذين طلبهم كثيراً، لكنه لم  
يعاين منهم إلا الذئاب والجهال، يقول:

(1) انظر الأبيات والحادثة، الوافي، 272-273/5. النفح، 2/544.

(2) انظر: الوافي، 274-276/5. النفح، 2/547-548.

(3) انظر الجزء المتعلق بالحنين والغربة من الدراسة، ص 72-83.

(4) النفح، 2/377.

(5) المصدر السابق، ص 377.

حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ زَمَانًا  
فَمَا أَبْصَرْتُ مِنْ خِلٍّ وَفِيٍّ  
ذئَابٌ فِي ثِيَابٍ قَدْ تَبَدَّتْ  
وَمَنْ يَكُ يَدَّعِي مِنْهُمْ صَاحًا  
تَرَى الْجَهَّالَ تَتَّبَعُهُ وَتَرْضَى  
فِيهِمْ مَالَهُمْ وَيَصِيبُ مِنْهُمْ  
وَأَغْنَانِي الْعِيَانُ عَنِ السُّؤَالِ  
وَلَا أَلْفَيْتُ مَشْكُورَ الْخِلَالِ  
لِرَائِيهَا بِأَشْكَالِ الرَّجَالِ  
فَزُنْدِيقٌ تَغْلُغَلُ فِي الضَّلَالِ  
مُشَارِكَةٌ بِأَهْلٍ أَوْ بِمَالٍ  
نِسَاءَهُمْ بِمَقْبُوحِ الْفِعَالِ<sup>(1)</sup>

ويؤثر أبو حيان العزلة والانفراد عن الناس، ومنادمة الكتب لا سيما القرآن الكريم، بعدما تتكرر بين الناس صور المراءاة، ويصبح همهم جمع المال وطلب الدنيا، وينعدم فيهم الصديق المخلص، فيستغني بالله عنهم:

أَعَاذِلْ ذَرْنِي وَانْفِرَادِي عَنِ الْوَرَى  
نَدَامَايَ كُتِبَ أَسْتَفِيدُ عِلْمَهَا  
وَأَنْسُهَا الْقُرْآنُ فَهُوَ الَّذِي بِهِ  
لَقَدْ جُلْتُ فِي غَرْبِ الْبِلَادِ وَشَرْقِهَا  
فَلَمْ أَرِ إِلَّا طَالِبًا لِرِيَاسَةٍ  
قَبَضْتُ يَدِي عَنْهُمْ وَأَثَرْتُ عُزْلَةً  
فَلَسْتُ أَرَى فِيهِمْ صَدِيقًا مُصَافِيَا  
أَحْبَايَ تُغْنِي عَنِ لِقَائِي الْأَعَادِيَا  
نَجَاتِي إِذَا فَكَّرْتُ أَوْ كُنْتُ تَالِيَا  
أَنْقَبُ عَنْ مَنْ كَانَ لِلَّهِ دَاعِيَا  
وَجَمَاعُ أَمْوَالٍ وَشَيْخَا مُرَائِيَا  
عَنِ النَّاسِ وَاسْتَغْنَيْتُ بِاللَّهِ كَافِيَا<sup>(2)</sup>

لكن هؤلاء الأعداء نفعوه من حيث لا يدري، فكان سمهم دواء:

مَنْ خَصَّ بِالْوَدِّ الصَّحَابَ فَإِنِّي  
جَعَلُوا التَّنَافُسَ فِي الْمَعَالِي دِيْدَنِي  
وَنَعَوْا إِلَيَّ مِثْلَ الْبِي فَحَذَرْتُهَا  
وَلَرَبَّمَا انْتَفَعَ الْفَتَى بَعْدُوهُ  
أَحْبُو بِخَالِصٍ وَدِّي الْأَعْدَاءَ  
حَتَّى وَطَّئْتُ بِأَخْصِي الْجُوزَاءَ  
وَنَفَيْتُ عَنْ أَخْلَاقِي الْأَقْدَاءَ  
كَالسُّمِّ أحياناً يَكُونُ دَوَاءً<sup>(3)</sup>

(1) النفح، 2/ 567.

(2) الديوان، ص 489-490.

(3) النفح، 2/ 568. لم ترد الأبيات في ديوانه.

ويبقى بعض الشعراء غير راضين عن عيشهم، حتى بعد مرور سنوات طويلة على غربتهم ويُبعدهم عن الوطن، فها هو محمد بن سراقه يبدو متحسراً على ضياع الأمان بعد مرور خمس وعشرين سنة، يقول:

إلى كَمْ أَمَّنِّي النَّفْسَ مَا لَا تَنَالُهُ      فَيَذْهَبُ عَمْرِي وَالْأَمَانِيُّ لَا تُقْضَى  
وَقَدْ مَرَّ لِي خَمْسٌ وَعِشْرُونَ حِجَّةً      وَلَمْ أَرْضَ فِيهَا عِشْتِي فَمَتَى أَرْضِي<sup>(1)</sup>

هذه بعض صور الشكوى التي نتجت في الغالب عن الغربة والارتحال، فيرى الشاعر أن من يبغضهم إنما كانوا لأنه في غير بلده، فغداً غير راضٍ عن عيشه المليء بالمنغصات والضيق، لظروف الرحيل، وظروف العصر المضطربة نتيجة الحروب والفتن وأثرها على الحياة الاجتماعية.

#### صور من العلاقات الاجتماعية في شعر المرتحلين:

تعدُّ المناسبات الاجتماعية صورة من صور العلاقات التي تنشأ بين أفراد المجتمع في الظروف المختلفة، وقيمة تناول بعض صورها في هذا البحث أنها تعطي انطباعاً ملموساً، وتصوراً للترابط الودّي بين المشاركة والمترحلين من الأندلسيين. فقد تبودلت بينهما التهاني في الولادة والزواج وتولي المناصب، وغيرها من المناسبات.

فقد هنأ أثير الدين أبو حيان ابن جماعة<sup>(2)</sup>، عند ولادة ابنه عمر بعد بنتين، مشيداً بتسميته، وبمناقب والده التي سيورثها لابنه، يقول:

حُبِيتَ بِرِيحَانَتِي رَوْضَةً      وَبَعْدَهُمَا جَاءَ نَجْلٌ أَغْرَ  
وَسَمَّيْتُهُ اسْمَ إِمَامٍ إِذَا      رَأَى أَبُو مَرَّةٍ<sup>(3)</sup> مِنْهُ فَرَّ

(1) عيون التواريخ، 314/20. الوافي، 1/208.

(2) ابن جماعة: شيخ الشيوخ عبدالعزيز بن محمد بن منصور بن خلف، ولد سنة 586هـ، بدمشق وسكنها مدة، برع في الأدب وخاصة في نظم الشعر، توفي سنة 662هـ. انظر: الفوات، 2/354-355. النجوم الزاهرة، 7/214-215.

(3) كنية إيليس، لسان العرب، مادة: مرر.

ولا عَجَبٌ مِنْكَ عَبْدَ الْعَزِيزِ      إِذَا كَانَ نَجْلُكَ سُمِّيَ عُمَرُ  
تَفَرَّعَتْهُمَا مِنْ إِمَامِ الْهُدَى      وَبَدَرَ الدُّجَى وَرئِيسِ الْبَشَرِ  
فَلَا زَالَ يَوْضَعُ سُبُلَ الْهُدَى      وَلَا زَلَّتْهُمَا تَقْفُوانِ الْأَثَرِ<sup>(1)</sup>

وله يخاطب قاضي القضاة شمس الدين السروجي الحنفي<sup>(2)</sup> مورياً باسمه مهنتاً،  
بعودته إلى منصب القضاء سنة 698هـ، بعدما كان يتطلع إليه رجلٌ يُدعى نجم الدين:

ذُو الْعِلْمِ فِي السَّنَا نَجْمٌ زَوَاهِرُ      وَإِنَّكَ فِيهَا الشَّمْسُ حَقّاً بِلَا لَبْسِ  
إِذَا حُتَّتْ أَخْفَى نُورُكُمْ كُلَّ نَيْرٍ      أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّجْمَ يَخْفَى مَعَ الشَّمْسِ<sup>(3)</sup>

ولأحمد بن نصر المَعْلَى<sup>(4)</sup> شعر يهنئ فيه لقاضي زين الدين الأسدي<sup>(5)</sup> بولاية القضاء  
بحلب، ويشيد بتقواه وفضائله وتقدمه، وهي أهم الصفات التي تليق بهذا المنصب:

يَهْنِى الْمَنَاصِبَ إِذْ عَلَوَتْ أَجْلَهَا      وَلَكَ التَّقَى وَالِدِينَ وَالتَّحْصِيلُ  
شَهِدَتْ صُدُورُ الْعَصْرِ أَنَّكَ صَدْرُهُمْ      يَا مَنْ لَهُ الْإِكْرَامُ وَالتَّبْجِيلُ  
زَيَّنْتَ دِينَ اللَّهَ يَا ابْنَ وَلِيِّهِ      تِلْكَ الْفَضَائِلُ مِنْهُ وَالتَّفْضِيلُ<sup>(6)</sup>

(1) الديوان، ص 450.

(2) شمس الدين السروجي: قاضي قضاة الحنفية، شمس الدين أحمد السروجي، ولي القضاء سنة 692هـ، ثم وليه قاضي يسمى حسام الدين ثم أعيد إليه شمس الدين سنة 698هـ. انظر: النجوم الزاهرة، 7/ 128-129.

(3) الديوان، ص 236.

(4) انظر الملحق، الترجمة رقم (3).

(5) القاضي زين الدين: عبدالله بن عبدالرحمن بن علوان الأسدي، تولى قضاء حلب بعد ابن شداد، كان رئيساً عالماً فاضلاً، توفي سنة 635هـ. البداية والنهاية، 13/ 162.

(6) عقود الجمان (مخطوط)، ج 1، ورقة 232.

ويقول أثير الدين، مهنتاً بزواج علي ابن قاضي القضاة شمس الدين السروجي،  
أخت بدر الدين بن جماعة<sup>(1)</sup>، مشيداً بمناقب كل منهما، داعياً لهما:

هنيئاً بتأليف غريب نظامه      لقد حار في أوصافه نظم عارف  
غدت شمس حسن بنت بدر سيادة      تُزف لبدر نجل شمس معارف  
سميان للطهر البتول وللرضا      علي ونجلا الأكرمين الغطارف<sup>(2)</sup>  
فدام علي عالي الجد سيّداً      ولا زال في ظل من العيش وارف<sup>(3)</sup>

كما هنا الشعراء بالخلاص من الاعتقال، من ذلك ما يقوله أحمد بن نصر مهنتاً  
شهاب الدين أبا العباس<sup>(4)</sup> بخلاص ولديه من الأسر، وجمع شمله بهما داعياً له:

يا خير معتمد وأفضل سيّد      ومن السُّعود سجّله قد أسعدا  
يا نخبة الإسلام يا خير الوري      أصبحت للدين القويم مؤيّدا  
فاهناً لجمع الشمل عشت مؤيّداً      مادام بالأيك الحام مغردا  
والله يمنحك الجنان بمنّنه      وزيادة جوداً حسناً خردا<sup>(5)</sup>

هذه بعض الصور التي تمثل جانباً خاصاً ومتنوعاً من العلاقات الاجتماعية في  
مناسبات اجتماعية مختلفة كالميلاد والزواج وتولي المناصب والخلاص من الأسر.

(1) بدر الدين بن جماعة: محمد بن إبراهيم بن سعد، قاضي القضاة، وُلد بحماة سنة 639. ولي خطابة  
الجامع الأموي، وولي قضاء مصر سنة 690 هـ (ت 733 هـ). الفوات، 297/3. النجوم الزاهرة،  
299-298/9.

(2) الغطارف: مفردا الغطريف، والغطارف: وهو السيد الشريف السخي. لسان العرب، مادة غطرف.

(3) الديوان، ص 299-300.

(4) شهاب الدين أبو العباس: عبد السلام بن المطهر بن أبي عصرون، من القائمين على المدرسة المنسوبة  
لبنى عصرون بحلب، وكان قد خصص لأحمد بن نصر جامكية، من أعلام القرن السابع الهجري.  
العقود، ج 1، ورقة 231.

(5) عقود الجمان، ج 1، ورقة 231-232.



## الفصل الثالث الدراسة الفنية

### الصورة الشعرية

أكثر الشعراء المرتحلون من رسم الصور في مقطوعاتهم وقصائدهم، فجاءت معبرة عما يخلج في نفوسهم، مما ولد فيها جمالاً تلقائياً، يدركه الذوق. وتكمن قيمة دراسة الصورة الشعرية في أنها تحكي ما وراء السطور، وما لم يرد الشعراء قوله مباشرة لأن في «الخيال الراقى روعة من نسمات الحقيقة، (ولو قيلت الحقائق) جافة من غير أن يعتمد (الشاعر) إلى الخيال في تشبيهاته، لما كان لقوله التأثير، ... فهذا الشعر يعبر عن حقائق نفسية، هي في نفسها جمال»<sup>(1)</sup>.

لقد اهتم شعراء العصر بالصورة اهتماماً بالغاً، وتنوعت صورهم، وجاءت في شعرهم صور تقليدية كثيرة، حيث شبهت «العيون الجميلة بعيون المها» و«بياض الوجه بالصبح» و«المشية بتمايل الغصن» و«الهلل بالزورق» و«الليل بالبحر». وحشدوا الصور والتشبيهات في شعرهم، باعتبار ذلك شكلاً من أشكال الإجادة ومقياساً لمستوى القدرة الفنية لدى الشاعر في هذا العصر. وربما كان قرب مأخذها، بالإضافة إلى قربها من الموروث الشعري القديم سبباً للإكثار منها، خاصة أنها لا تحتاج إلى أعمال الفكر والابتكار، فمأخذها الشاعر من محفوظة مباشرة.

(1) ابن سعيد المغربي، المرقصات المطربات، دار حمد ومحيو، بيروت 1973، ص 211، 212.

## الفصل الثاني موضوعات شعر النازحين

### علاقة الشعراء بالملوك والسلاطين وكبار رجال الدولة

كان ارتحال الشعراء الأندلسيين من بلادهم، نتيجة اختلال الأوضاع السياسية في الأندلس وغير ذلك من العوامل كما بيّنا في الفصل الأول، وقد ساهمت بيئة مصر والشام الجديدة في توجيه شعر هؤلاء وجهات معينة، نتيجة للأحوال التي عايشوها في موطنهم الجديد. فقد أكثروا من مدح الأمراء والحكام والقضاة والوزراء طالبين منهم النصرة في ديار غربتهم. كما تفاعل الشعراء مع الأحداث السياسية في المشرق، وعبروا عن نقيمتهم على الصليبيين، وامتدحوا قواد المشرق من خلال ذلك.

امتدح الشعراء ملوك الأيوبيين الذين كانت لهم اليد الطولى في الإحسان إليهم، بعد أن تباعدت بهم الديار، وأضحوا غرباء ينشدون منهم رفع الضيم فكانوا أوفياء لفضلهم، لديهم الولاء لهم، كما يقول ابن دحية في امتداح الملك الكامل بن العادل الأيوبي (ت 635هـ) بكمال الأوصاف، وعظم الملك وإقامة العدل:

شَجَنِي شَوَاجٍ فِي الْغُصُونِ سَوَاجِعُ	فَفَاضَتْ هَوَامٍ لِلْجُفُونِ هَوَامِعُ
وَلَا حَاكِمٌ أَرْضَاهُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا	سِوَى حَاكِمٍ دَهْرِي لَهُ الْيَوْمَ طَائِعُ
يُدَافِعُ عَنِّي الضَّيْمَ قَائِمٌ سَيْفِهِ	إِذَا عَزَّ مِنْ الضَّيْمِ عَنِّي يُدَافِعُ
هُوَ الْكَامِلُ الْأَوْصَافِ وَالْمَلِكُ الَّذِي	تَشِيرُ إِلَيْهِ بِالْكَامِلِ الْأَصَابِعُ

رسم الشعراء صوراً كثيرة ومتنوعة للطبيعة استمت بالدقة والتتبع، جاعلين هذه الصور في كثير من المواضع افتتاحاً للمقطّعات والقصائد، رابطين بها أغراضهم ودواخل نفوسهم، أو تخصيص مقاطعات كاملة لوصف الطبيعة ورسم صورها. فابن سعيد يرسم لوحة متكاملة العناصر للروض وقد طرز الندى عليه حبّاته. والنهر وقد هزته ريح الصّبا، وكتبت على صفحة الماء أسطراً، ثم جاءت الشمس وألقت عليه رداءها الذهبي، يقول:

الروضُ بُرْدٌ بالندى مُطْرُوزٌ	والنهرُ سيفٌ بالصّبا مَهْرُوزٌ
كُتِبَتْ به خوفَ النواظرِ أسطرٌ	فعليه من خطِّ النَّسيمِ حرورٌ
ورمت عليه الشمسُ فضلَ ردائها	فَعَلَا مُذَابَ الْجُنَيْنِهِ إِبْرِيْزُ
والغصنُ إن رَكَدَ النَّسيمُ كأنَّهُ	أَلِفٌ بهمزة طيرِهِ مهموزٌ
وكانها الأزهارُ فيه قلائدٌ	وكانها الأوراق فيه خزوزٌ <sup>(1)</sup>

فالشاعر يتفنن في رسم هذه الصورة وانعكاساتها، في حالتي حركة النسيم وركوده، لا تفوته الحركة الخفيفة، وما تضيفه على المشهد من تلوين، وقدّم ابن سعيد هذه المقطوعة المتكاملة المشاهد، لوصف الخمر، فكانت أبيات وصف الطبيعة أكثر من أبيات صورة الخمر، إذ أصبح المنظر الطبيعي كالقاعدة أو العامل الكيميائي المساعد في القصيدة أو المقطوعة<sup>(2)</sup>.

وحملت عناصر الطبيعة صور وأحاسيس الشعراء، وخلجات نفوسهم، حيث غدا النسيم عند ابن الجنّان يتبختر فرحاً بشمائل المحبوب، وتحمل أنفاسه أخباره المعطرة:

خَبِرْ بِأَنْفَاسِ النَّسِيمِ مُعْطَرٌ      وافي إليّ فظلتُ منه أسكّرُ

(1) المغرب، 2/ 176. خزوز: جمع خَزْ وهي الثياب المنسوجة بالحرير والصوف، أو بالحرير الخالص. لسان العرب، مادة خزز.

(2) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط 5، 1978، ص 203.

لله ما أحلى شائلةً التي جاء النسيم بعرفها يتبخّر<sup>(1)</sup>

كما شاركهم الروض سرورهم، فقد تننى عنده النهر، وبدت الغصون وكأنها تسيل معه من الطرب، يقول ابن الجنّان:

يا رعى الله عيشنا بين روض حيث ماء السرور فيه يجول  
تحسب النهر عنده يتثنى وتخال الغصون فيه تسيل<sup>(2)</sup>

وقد رقصت الأغصان، وأنشدت الورق، وصفق النهر، وبكى الغيم، وضحك الزهر في أرض النيرين، كما يقول أبو العباس الشريشي:

كأنني لم أكن بالنيرين ضحى والغيم يبكي ومنه يضحك الزهر  
والورق تنشد والأغصان راقصة والدوخ يطرب بالتصفيق والنهر<sup>(3)</sup>

لقد أخذ الشعراء من صفات عناصر الطبيعة ما يشاكل معاني ما في نفوسهم، فالغيم يبكي لمشكلة المطر للدمع، كذلك الزهر يضحك لتشاكل الضحك مع إشراق الزهر الذي سببته دموع الغيم، وغدت الأصوات في الطبيعة أصواتاً لإنسان ينشد ويغني، والأغصان بتمايلها صورة لراقص. صورة تشخيصية مليئة بالحركة والصوت واللون. ومن ذلك أيضاً ما وصف به ابن سعيد الغيم وقد أسبل عليه إزاراً، وغدا البرق يذكي أنفاس الغيم بشره، وطاب النسيم بأريجيه، فغدا الجو من عنبر ونار:

أنظر إلى الغيم كيف يبدو وقد أتى مُسبّل الإزار  
والبرق في جانبيه يذكي أنفاسه وهو كالشرار  
ما طاب هذا النسيم إلا والجو في عنبر ونار<sup>(4)</sup>

(1) الفوات، 3 / 265.

(2) المصدر السابق، ص 266. ذيل مرآة الزمان، 3 / 200.

(3) النفع، 2 / 116.

(4) الوافي، 22 / 257.

وفي صورة أخرى تزخر بعناصر اللون والحركة والصوت، يرسم ابن سعيد مشهد عرس الأفق، الذي يحيه البرق والمطر والصبح، يقول:

أَدِرْ كَوْوَسَكَ إِنَّ الْأَفْقَ فِي عُرْسٍ      وحسبنا أنت ترعى حُسْنَكَ الْمُقْلُ  
الْبَرْكَفُ خَضِيبٌ وَالْحَيَا دُرٌّ      والأفق يُجلى وطرفُ الصُّبْحِ مَكْتَحِلٌ<sup>(1)</sup>

يبدو النسيم نشوان من الأحاديث اللطيفة، والغصون تموج فرحاً، كما يقول ابن الجتنان:

ما شأنُ هذا النسيمِ الرطبِ نشوانُ      كأنه من حديثِ القومِ ريان  
روى لنا خبراً من أرضِ كاظمةٍ      لم تدرِ كاظمةٌ عنه ولا البانُ  
ماج الكثيبُ وماج الغصنُ منه فَهَلْ      جرت لعطفِ الهوى في الكونِ أردانُ<sup>(2)</sup>

وكما شاركت الطبيعة الشعراء رقصهم وأفراحهم، فقد شاركتهم بكاءهم وحزنهم وألمهم، يقول ابن الجتنان:

قُمْ سَقْنِيهَا وَثَغْرِ الصُّبْحِ مِبْتَسِمٌ      والليلُ تبكيه عينُ البدرِ بالشُّهْبِ  
وأعْيُ الدَّهْرِ مِنْ طَوْلِ الْبَكَارِمَدَتْ      فكحلتها يمينُ الشمسِ بالذَّهَبِ  
وَالشُّحْبُ قُلْ لِبَسْتِ سَوْدَ الثِّيَابِ وَقَدْ      قامت لثريّةُ الأطيّارِ في القُضْبِ<sup>(3)</sup>

ويبدو البدرُ كالحأ، معبراً عن حال الشاعر حينها بذل وجهه على لئيم مكرهاً، يقول ابن سعيد:

لَبَذْلُ وَجْهِي إِلَى لئِيمٍ      أَمْرٌ مِنْ وَقْفَةِ الْوَدَاعِ

(1) الرايات، ص 181. الوافي، 22 / 257.

(2) ذيل المرأة، 3 / 199.

(3) اختصار القدح، ص 208. وذيل المرأة، 3 / 200، البيتان الأول والثاني فقط.

فالبَدْرُ في وجهه كُـلُـحٌ حين اجتدى الشمس في الشُّعاع<sup>(1)</sup>

أما الشمس فقد بدت مريضة وقت الغروب، حينما مدت راحتها لتوديع الأفق كما يقول ابن سعيد:

والشمسُ من ألمِ الفراقِ مريضةٌ مدَّتْ لتوديع البحيرة راحا<sup>(2)</sup>

فمعاني الفراق والرحيل ماثلة في أذهان الشعراء ونفوسهم، تبرز في صورهم لأنها تحاكي رحيلهم المؤلم عن أرض الأندلس، فقد غربت الشمس في صدر ابن سعيد، لغروب الوطن عنه، يقول:

وعلى مُرسيةٍ أبكي دماً مَنْزِلٌ فيه نعيمٌ مُعشِبٌ  
مَعَ شَمْسٍ طَلَعَتْ في ناظري ثم صارت في فُؤادي تَغْرُبُ<sup>(3)</sup>

وشكا النسيم اللوعة والبُعد وجرت ذيلوه السقام، كحال الشاعر لبعد الأحبة، كما يقول ابن ذي النون<sup>(4)</sup>:

ما للنَّسيم سَرى الأصيلَ عليلاً أَثْراهُ يشكو لَوْعَةً وَغَلِيلاً  
جَرَّ الذُّيُولَ على ديارٍ أَحَبَّتْني فَأتى يُجِرُّ من السَّقامِ ذُيُولاً<sup>(5)</sup>

علل الشعراء بعض صورهم كما رأينا، فالشمس كحلت عيون الدهر لأنها رمدت من طول البكا، والشمس مرضت بسبب الفراق، أما النسيم فقد غدا عليلاً بسبب فراق الأحبة. وفي الوقت نفسه جاء رسم بعض صور الطبيعة لتبرير معنى أراد إثباته الشاعر، من ذلك ما رد به ابن سعيد على من يلومونه على شرب الخمر في حال الشيب، معللاً ذلك برسم صورة مختارة بدقة، من صور الطبيعة:

(1) الرايات، ص 180.

(2) الرايات، ص 180.

(3) النفح، 2/ 283.

(4) انظر الملحق، الترجمة رقم (51).

(5) النفح، 2/ 44.

يلومونني أن شبتُ في الحَمَرِ ضِلَّةً      وأني إذا وافى المشيبُ بها أحقُّ  
إذا شابَ رأسُ الليلِ بالفجرِ قَرَبْتُ      له أكْوُسُ الصَّهْبَاءِ من خَمَرَةِ الشَّفَقِ<sup>(1)</sup>

لقد اختار الشعراء من صور الطبيعة وحالات عناصرها، ما يريدون التعبير عنه في دواخلهم، في حالي السرور أو الحزن، والضحك أو البكاء، في الزهر والشمس والغيم والأغصان والنسائم والنهار. وقد عد حازم القرطاجني هذه المتصورات التي تجد لها فرحاً أو ترحاً أو شجواً في النفس، متصورات أصيلة<sup>(2)</sup>. لقد تجلت الطبيعة صافية بصورها، وصور نفوس شعرائها، التي لم تكن تخلو من نزعات رومانسية، وتعكس مشاعرهم أكثر مما تعكس فكرهم.

وتمتزج صور الطبيعة بالصور والألفاظ الحربية، ولا غرابة في ذلك، فمشاهد الحرب تسكنهم، لقد كانت الأندلس قبل خروجهم منها مليئة بالفتن والحروب المتوالية والتهجير والطرْد إثر سقوط المدن، ونتيجة لذلك توجه الشعراء إلى مدن مصر والشام التي كانت تعيش ظروفاً مشابهة في معظم جوانبها، بسبب الحملات الصليبية، وهجمات التتار، والفتن، وقد عكست الصور هذه المعاناة وهذه الأجواء السياسية الحربية بصورة غير مباشرة، مما قد يجعل الصور في الكثير من عناصرها مصدراً من مصادر دراسة أحوال العصر السياسية وانعكاسات هذا الوضع على الحياة الاقتصادية والاجتماعية، فهي تحمل الحقيقة بصورة محجوبة مبطنة.

وكما كان للطبيعة عرس، فإن للوغي عرساً آخر تمتزج عناصره بعناصر الطبيعة فقد غدت النبال فيه كالطر، والسيوف كالبرق، يقول ابن سعيد:

لو كُنْتُ حاضِراً لَدَى عُرْسِ الوَغَى      وَمِنَ النَّجِيعِ عَلَى الكُفَاةِ خُلُوقُ

(1) الرايات، ص 176.

(2) القرطاجني: أبو الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس 1966، ص 22.

والشمسُ زهرٌ والعشيُّ أهْلَةٌ      والنَّبلُ قَطَرٌ والسَّيْفُ بُرُوقٌ<sup>(1)</sup>

ويستعِضُّ ابنُ سعيدٍ عن النجومِ والصُّبحِ بالرمحِ والسيفِ، ويعانقُ الغصنَ في  
الرماحِ، ويقبلُ البدرَ في الخيلِ:

وليلي بخيلٌ بالنجومِ وصُبحِهِ      ونجمي في رمحي وصُبحي في غمدي  
فعانقتُ غصنَ البانِ في دوحَةِ القنا      وقبَلْتُ بدرَ التَّمِّ في هالةِ الجُرْدِ<sup>(2)</sup>

وتبدو الصورة هنا غريبة التكوين، فيها شيء من الغموض.

ويصور ابن الجنان صورة للجيش، لكنه جيش الليل المنهزم حينما يأتي الصبح الذي  
تلوح علاماته باحمرار الأفق، الذي يشبه احمرار رايات المعركة:

قُمَ سَقْنِيهَا وجيشُ الليلِ منهزِمٌ      والصبحُ أعلامُهُ مُحَمَّرُ العَذَبِ  
والسُّحْبُ قد نثرت في الأرضِ لُؤْلُؤَهَا      تضمُّها الشمسُ في ثوبٍ من الذَّهَبِ<sup>(3)</sup>

وتتبدى صورة المعركة بعناصرها كافة في مشهد صاحب من مشاهد الطبيعة يرسمه  
ابن سعيد، إذ يقول:

والبرقُ قُضْبٌ والسحابُ كَتائبٌ      والقطرُ نَبْلٌ والرُّعودُ طبولٌ  
ولتعذرُ الأنهارُ في تدريعيها      وكذلك الأغصانُ حينَ تميلُ<sup>(4)</sup>

ولم تنفصل عناصر الحرب عن عناصر الطبيعة فقد تداخلت الدماء مع الدجى،  
وقتام المعركة مع السحب، والسيوف مع البرق كما يقول ابن سعيد:

(1) الرايات، ص 181.

(2) المغرب، 2/ 174.

(3) ذيل المرأة، 3/ 199. الفوات، 3/ 266-267.

(4) المغرب، 2/ 178.



فلا تنكرن صوب الدماء إذا دجت      سحب قتام والسيوف بوارق<sup>(1)</sup>

ويزداد دجى قتام المعركة حينما تتداخل الشهب بالرماح، والسيوف بالبرق، يقول:

كأنك لم تجل القتام وقد دحا      بشهب عوال أو بروق سيوف<sup>(2)</sup>

أما فرسان المعركة، فقد تداخلت راياتهم مع صورة الطيور التي تحلق، يقول:

لله فرسان غدت راياتهم      مثل الطيور على عداك تحلق<sup>(3)</sup>

وعبرت الصورة الشعرية عن انفعالات الشعراء وعواطفهم، فحملت عناصرها

إيقاعات نفوسهم رقيقة لطيفة، أو غاضبة صاخبة ساخرة، فها هي الأشجار تحف عشقا

لحذرهما الرقباء كما يقول ابن سعيد:

حفت الأشجار عشقا حولنا      تارة تنأى وطورا تقرب

جاءت الريح بهائم انثت      أثرها حذرت من ترقب؟<sup>(4)</sup>

أما الأغصان فهي تتعانق ثم تفرق بفعل حركة الريح:

هلا نظرت إلى الأغصان تعتنق      ظلت تلاقى غراما ثم تفرق<sup>(5)</sup>

ثم لا تلبث الأغصان أن تتمايل لفرط شوقها وحملها أخبار سليمى التي يهواها

الشاعر، فغدا حالها مثل حاله، إذ يقول ابن الجنان مخاطبا النسائم التي حملت أخبار

محبوبته:

حدّثيني يا نسيمة الأسحار      إن خمر الحديث فيه ثمّاري

أنا سكران من مدامة أشواقى، فما لي وحانة الخمار

(1) المغرب، 2/ 177.

(2) المصدر السابق، 2/ 177.

(3) الرايات، ص 181. المغرب، 2/ 177.

(4) النفح، 2/ 382.

(5) المغرب، 2/ 177.

وأظن الغصون تهوى سُليمي      فلهذا تميّل للأخبار<sup>(1)</sup>  
وتيمم الأرض بالشمس، فيأتي الغبش، عندئذ تفرش الأرض بساطها الموشى  
بالزهر، كما يقول ابن الجتنان:

الأرض بالشمس تهيّم فلذا      يأتي بشيراً بالقُدوم الغبش  
لو لم يكن هذا لما غدا لها      بساطُ أزهار الرياض يفرش<sup>(2)</sup>

وعبرت الصور الشعرية بإيقاعاتها الصاخبة، عن انفعالات الغضب والسخرية في نفوس الشعراء، فها هو ابن سعيد يرسم صورة كاريكاتورية ساخرة، تنطق بالألم والمعاناة حينما اضطر لركوب الحمار من باب زويلة في القاهرة إلى الفسطاط<sup>(3)</sup> وقد عدا به بين الأزقة، فاکتحت عيونه بالغبار، ولم يرحم المكاري صراخه ولم يرق له، مما أدى به إلى الوقوع سجوداً على وجهه، وقد رسم ابن سعيد هذه الصورة بحركات متسارعة متلاحقة، مجيداً استخدام الألفاظ التي اكتسبت دلالة خاصة في صورتها الجديدة مثل (كحل الغبار) و(سجود العثار)، وقد عكست الألفاظ والصور بتسارع إيقاعها، واستخدام قافية الراء، اضطراب وغضب وثورة ابن سعيد، التي لم تنسه روح النكتة.

أما ابن عتبة الإشبيلي فيرسم صورة رقصه ألماً، لشعره بالضيّم في دولة القروذ في مصر كما يقول<sup>(4)</sup>. فغدا استخدام صورة الرقص في موضع الألم، يعكس تأثراً شديداً يفوق احتمال المرء، وارتسمت هذه الصورة بكل متناقضاتها المقصودة، فبدت مضحكة مؤلمة مفعمة بالغضب، في دولة غير عادلة، وهي للقروذ للؤم طباع ساستها، لاستخدامهم النصارى واليهود في الوظائف دون المرتحلين من الأندلسيين، وهذا يحمل نقداً سياسياً واجتماعياً للأوضاع في مصر، ويعكس عدم رضا بعض المرتحلين عن أوضاعهم فيها.

(1) بغية الوعاة، 2/ 112.

(2) المغرب، 2/ 384.

(3) انظر الدراسة، ص 79.

(4) انظر المصدر السابق، ص 92.

وقد يعدُّ هذا من باب المبالغات، لارتباطه بنفسية الشعراء المرتحلين، أتراهم لو عاشوا في بيئة المشرق أصلاً، هل ستحمل عباراتهم مثل تلك الحدة وهل ستحمل صورهم تلك السخرية المؤلمة؟، فالأوضاع في الأندلس لم تكن تقل عن الأوضاع في المشرق، وإن كانت أوضاع المشرق بصورة عامة أفضل. وربما كان هذا نتيجة تعصب الأندلسيين لأندلسيتهم، الذي تبيّن أنه في غير موضع، بالإضافة إلى إحساسهم بعدم استطاعة الرجوع إلى وطنهم في هذا الوقت العصيب، فأسقطوا من آلامهم ومعاناتهم على الحياة الاجتماعية والسياسية في مدن المشرق. مما لا ينفي وجود منغصات في بعضها، لكنهم بالغوا في توسيع آثارها السلبية عليهم، متخذين منها ذريعة ومنفذاً للتخفيف من تلك المعاناة.

وجاءت بعض الصور تحمل نوعاً آخر من المعاناة، وهو استئثار الجهال بالمناصب والدراهم التي لمعت في ليلهم كالنجوم، بينما تباعد الحظ عن ذوي النهى الذين طرد صبح ذهنهم شُهْبَهُمْ ودرَاهِمُهُمْ، كما يقول ابن خروف:

تَبَلَّجَ صَبْحُ الذَّهْنِ مَنِيَّ وَاضِحاً      فغَارَتْ مِنَ الْأَهْوَالِ شُهْبُ عَوَاتِمُ  
وَلَوْ كَانَ لَيْلُ الْجَهْلِ عِنْدِي حَالِكاً      لَلَاخَتْ بِهِ مِثْلَ النُّجُومِ الدَّرَاهِمُ<sup>(1)</sup>

وحملت بعض الصور دلالات الكتابة والقراءة عند ابن سعيد، يقول مصوراً النهر صفحة كتبت بالنسيم، ومالت الغصون لتقرأها:

كَأَنَّهَا النَّهْرُ صَفْحَةً كُتِبَتْ      أَسْطَرُّهُ وَالنَّسِيمُ مَنْشُؤُهَا  
لَمَّا أَبَانَ عَنْ حُسْنِ مَنْظَرِهِ      مَالَتْ عَلَيْهَا الْغُصُونُ تَقْرُؤُهَا<sup>(2)</sup>

وهي صورة تفصيلية دقيقة، تحتاج إلى إجهاد فكر، ولا يمكن للبديهة التنبيه لها<sup>(3)</sup>.

(1) الرايات، 139. الذيل والتكملة، ج5، ق1، ص398.

(2) الرايات، ص175. الوافي، 22/255.

(3) التفاعل الثقافي، ص277.

وحمل بعض الصور دلالات مكثفة للون، من ذلك وصف ابن دحية لروضة مزدانة بكافة الألوان في أبيات يمدح فيها الملك الكامل، يقول:

له من شذى الدهر بُرْدٌ مَفُوفٌ      أتيح له من أرض صنعاء صانعٌ  
فراقك منها أخضر الثوبِ ناضرٌ      وشاقك منها أصفر اللونِ فاقعٌ  
وأحمرُ قانٍ كالخُدودِ مُورِدٍ      وأبيضُ كالثغرِ المفلجِ ناصعٌ<sup>(1)</sup>

ولابن سعيد قطعة وصفية لحسان تبدو كأنها معرض ألوان، فهذا الحصان أصفر بلون الذهب، ينطلق بين بياض الفجر وسواد الليل، ويجمع بين اصفرار العاشق وحسن المعشوق، يقول:

وأجَرَدَ تَبرِيٍّ أثرتُ به الثرى      وللـفـجـرِ في حـضـرِ الظلامِ وشاحٌ  
له لونٌ ذي عشقٍ وحسنٍ مُعشَّقٍ      لذلك فيه دَلَّةٌ ومَراحٌ  
عجبتُ له وهو الأصلُ بعرفه      ظلامٌ وبين الناظرين صَباحٌ<sup>(2)</sup>

وامتازت أساليب الشعراء في رسم صورهم، بتجميل صورة القبيح، من ذلك ما يقوله أثير الدين معللاً عشقه لشيخ أبيض اللحية وكأن على وجنتيه الياسمين، ومفضلاً إياه على سود اللحي:

تَعَشَّقْتُه شَيْخاً كَأَنَّ مَشْيِيهَ      على وجنتيه ياسمينٌ على وَرْدٍ  
وقالوا الورى قسمان في شِرْعة الهوى      لسود اللحي ناسٌ وناسٌ إلى المُرْدِ  
وسود اللحي أبصرتُ فيهم مشاركاً      فأحببتُ أن أبقى بأبيضهم وحدي<sup>(3)</sup>

كما يصور فحّاماً وقد بدت خطوط الفحم على وجهه كأنها مسك:

وعُلِّقْتُه مُسَوِّدَ عَيْنٍ ووفرةٍ      وثوبٍ يعاني صنعة الفحم عن قصدٍ

(1) عنوان الدراية، ص 277. النفح، 2/ 102.

(2) المغرب، 2/ 173.

(3) الديوان، ص 349.

كَأَنَّ خُطُوطَ الْفَحْمِ فِي وَجَنَاتِهِ لِبَاطِحَةٌ مُسَكِّ فِي جَنِيِّ مِنَ الْوَرْدِ<sup>(1)</sup>  
وله كذلك في أحذب<sup>(2)</sup>.

وقد يكون لهذه النزعة في تجميل القبيح ارتباط بالفلسفة الصوفية التي انتشرت بصورة لافتة في هذا العصر، حيث إن وحدة المخلوقات المرتبطة بوحدة الخالق عند الصوفية تجعلهم ينظرون إلى المخلوقات بعين الجمال الواحد، فينتفي منها القبح، لأنها وليدة نور واحد هو نور الله تعالى، فقد يكون هذا الأساس فيها من بعض الشعراء المدركين لهذه النظرة الصوفية، ومن جاء بعدهم سار على ذلك تمشياً مع روح العصر، مقلداً غير قاصد لتمثل هذه الفلسفة الصوفية بعينها في شعره.

كما امتازت الصور بالتحليق، والخيال المكثف خاصة عند ابن سعيد، فهما هو يسقي الشمس التي صيغت قرطاً على الأفق في قدحه، يقول:

لَا أَنْسَ لَيْلَةً وَأَفَيْنَا لِمَوْعِدِنَا      وَالْكَأْسُ دَائِرَةٌ وَالْغَصْنُ مُعْتَنِقِي  
فَقَلْتُ إِذْ بَتُّ أَسْقِي الشَّمْسَ فِي قَدَحِي      مِنْ ذَا الَّذِي صَاغَهَا قِرْطاً عَلَى الْأَفْقِ<sup>(3)</sup>  
أما سفح الخليج فبدا طائراً محلقاً، لاقى الصَّبا بجناحه، يقول:

وَانْظُرْ إِلَى سَفْحِ الْخَلِيجِ كَطَائِرٍ      لَقِيَ الصَّبَا مِنْ مَوْجِهِ بِجَنَاحِ<sup>(4)</sup>  
ثم ألقت الشمس الطائرة في الأفق عليه جناحها:

وَانْظُرْ لَشَمْسِ الْأَفْقِ طَائِرَةً وَقَدْ      أَلْقَتْ عَلَى سَفْحِ الْخَلِيجِ جَنَاحَا<sup>(5)</sup>

(1) الديوان، ص 440.

(2) انظر الديوان، ص 475.

(3) الوافي، 22 / 259.

(4) الرايات، ص 179.

(5) المصدر السابق، ص 180.

لقد ركب الشاعر صوره فامتزجت فيه التشابيه وغدت الصور مكثفة حتى بدت حقيقية، فسفح الخليج طائر، لقي الصبا بجناحه الذي أصبح جزءاً حقيقياً منه في صورته الجديدة، فاستخدم هذه الأداة وهو الجناح ولقي بها الصبا. والشمس كذلك، استخدمت أحد أعضائها الذي أصبح جزءاً أساسياً منها في صورتها الجديدة، وهو الجناح.

فالصور متداخلة تثير التساؤل، وينقل كل تساؤل لما يليه لتركب أجزاء تلك الصورة، فسفح الخليج طائر، فما هو موج السفح؟ وما الجناح الذي مدّه السفح ليلقي الصبا؟ أما الشمس فلماذا عدّها طائراً؟ وما هي صورة الشعاع الذي ألقتّه على الخليج فبدا كالجناح؟ ولم يشبهه بالجناح؟. لقد تداخلت صورة المشبه بالمشبه به، مما جعل الصورة غريبة التكوين غامضة، يكمن جمالها في هذا الغموض والتداخل وأخذها كما هي، مما قد يجعل كثرة التساؤلات والاستفسارات تفسدها وتضعف من قيمتها الفنية.

لقد اتسمت الصور كما بيّنا بالتفصيلات والتبع والدقة وحسن التعليل ورسمت بعناية، وكأنها تطرّيز دقيق يحتاج إلى مهارة وإعمال فكر في نسجه واختيار ألوانه وتشكيلاتها.

### الفنون البديعية

لا يُعدّ البديع فناً جديداً في هذا العصر، فقد ظهر منذ القديم، وشهد تطوراً على يد مسلم بن الوليد وأبي تمام، وازداد الاهتمام بهذا الفن في القرنين السادس والسابع الهجريين، ووضع أسامة بن منقذ كتابه البديع في نقد الشعر الذي اشتمل على أبواب عديدة في ضروب البديع<sup>(1)</sup> وقد عمد الشعراء إلى إثقال الشعر به حتى حجب بعض محاسنه، فما عاد حلية تجلّل الأدب، بل أصبح زخرفاً متكلفاً زائداً، وغاية في ذاته، يستر محاسن الشعر، ويخفي جمالياته الداخلية، لأن الشعراء ما عادوا يبحثون عن المعنى بقدر بحثهم عن اللفظ، مستخدمين خصائصه الصوتية والمعنوية، مفرداً ومنظوماً ومركباً<sup>(2)</sup>.

(1) انظر: البديع في نقد الشعر، تحقيق علي عبد مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان 1987، ص 9-11.

(2) محمد زغلول سلام: تاريخ النقد الأدبي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري، دار المعارف بمصر 1967، ص 318، 313.

وأصبحوا يطلبون الجناس والمقابلات والتوريات، وقد يجمعون بين أكثر من فن بديعي في مقطوعة أو صورة واحدة، من ذلك الصورة التي رسمها ابن سعيد للحصان<sup>(1)</sup>، والتي تبين قدرته على نسج الصورة وتطريزها بدقة، وزخرفتها بألوان البديع، فبدت كأنها معرض للصور الملونة، تمثل ذوق العصر، وعلى قلة أبيات المقطوعة، فقد ازدحمت بالفنون البديعية، من ذلك مجانسة الشاعر بين «أثرت» و«الثرى»، ومطابقتها بين «ذي عشق» و«معشوق» وبين «ظلام» و«صباح» وتوريته في لفظ «الأصيل» بين معنى أصالة الحصان وبين لونه الذي يشبه الأصيل باصفراره، ولعل صور ابن سعيد في هذه المقطوعة على غرابتها ودقتها، تحولت من حيوية الحركة إلى جمود مزخرف ساكن، يدلل أن البيان والبديع كانا الهدف والغاية، واختيرت لمناسبتها وقابليتها للبيان البديعي<sup>(2)</sup>.

وأكثر الشعراء من استخدام المجانسة في صورها كافة، مع استخدامهم لألوان البديع الأخرى، ولا تكاد تقرأ قصيدة أو مقطوعة، إلا وقد أخذت من البديع بنصيب، لكن الجناس - كما قلنا - استأثر بجانب لا يستهان به في معظم الشعر، من ذلك مجانسة ابن خروف بين الاسم والفعل «وجه» و«وجه» وهو ما يسمى بالتجنيس المغاير<sup>(3)</sup>، يقول:

يَا مَا جَدًّا لَا يَزَالُ يَحْكِي      فِي مَجْدِهِ عَمَّهُ وَخَالَهُ  
وَجَّهَ لَوَجْهِهِ الْإِدَادَ مَنِّي      حَبَّةً مِسْكٍ تَكُونُ خَالَهُ<sup>(4)</sup>

ويستخدم أبو الحكيم ذو الوزارتين<sup>(5)</sup> تجنيسين مغايرين في بيت واحد، يقول:

لِلشَّرْقِ فَضْلٌ مِنْهُ أَشْرَقَتْ شُهُبٌ      مِنْ نَوْرِهِمْ أَقْبَسُونَا كُلَّ مِقْبَاسٍ<sup>(6)</sup>

فقد جانس بين «الشرق» و«أشرفت» وبين «مقباس» و«أقبسونا».

(1) انظر الدراسة، ص .

(2) التفاعل الثقافي، ص 276.

(3) البديع في نقد الشعر، ص 26.

(4) الذيل والتكملة، ج 5، ق 1، ص 398.

(5) انظر الملحق، الترجمة رقم (42).

(6) الإحاطة، 2/ 465.

ومن ضروب الجناس، التجنيس المماثل<sup>(1)</sup>، وهو المجانسة بين اسمين أو فعلين من ذلك مجانسة ابن سعيد بين الاسمين «أرجائها» و«الأرجات» في أبيات أرسلها إلى حلب لابن العديم:

إِقْرَ السَّلامَ بها من بعدِ لثمِ ثرى      أرجائها الأرجاتِ الأفقِ والطَّنْبِ<sup>(2)</sup>

ومجانسة ضياء الدين الخزرجي بين الفعلين «قضى» و«يقضي» في قوله يصف الدنيا:

كم سالمٍ أسلمته للردى فضى      ختفاً ولم يقضٍ من لذاتها وطرا<sup>(3)</sup>

ومن تجنيس التصحيف وهو اختلاف الكلمتين في النقط قول يحيى الطليطلي مجانساً بين «قضاء» و«مضاء» في مدحه للملك الأشرف موسى:

بسُيوفٍ عَزَمَتِكَ القضاءُ يَصُولُ      ومضاءُ بِأَسْكَ في يديه نُصُولُ<sup>(4)</sup>

ومن ضروب التجنيس، تجنيس المضارعة، بزيادة الحروف أو نقصها أو قلبها<sup>(5)</sup>.

ومن أمثله في الزيادة والنقص قول ابن دحية مجانساً بين «سَروا» و«أَسَروا» وبين «حَكَمْتُمْ» و«حَكَمْتُمُ»:

أَمَنَازِلَ الأَحْبابِ أَيْنَ أَحَبَّتِي      فَهُمْ إِذَا جَنَّ الظَّلامُ الأَنْجُمُ  
وَسَرَوْا وَقَدْ أَسَرُوا الفُؤَادَ وَحَرَّمُوا      طَيْبَ المَجْجُوعِ عَلَيَّ لَمَّا أَحْرَمُوا  
حَكَمْتُكُمْ فِي مُهْجَتِي فَحَكَمْتُمُ      فِيهَا بِمَا شَاءَ الغَرَامُ وَشِئْتُمُ<sup>(6)</sup>

ومن أمثلة القلب، قول أثير الدين مجانساً بين لحية وحلية:

(1) البديع في نقد الشعر، ص 30.

(2) اختصار القدح، ص 6.

(3) ملء العيبة، 3/ 47.

(4) عقود الجمان، ج 9، ورقة 229.

(5) السَّجَلُمَاسِي، أبو محمد القاسم الأنصاري، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تقديم وتحقيق:

علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، ط 1، 1980، ص 486-487.

(6) عنوان الدراية، ص 273.



يَقُولُ لِي الْعَذُولُ وَلَمْ أُطْعَمُهُ      تَسَلَّ فَقَدْ بَدَتْ لِلحِبِّ لِحْيَهُ  
تَحْيَلُ أَنَهَا شَانَتْ حَبِيي      وَعِنْدِي أَنَّمَا زَيْنٌ وَحَلِيهِ<sup>(1)</sup>

وقد عدّ بعض النقاد هذا التجنيس الذي يأتي بين قافيتي البيتين تجنيس تلفيق، وقد يقع في القافية من البيت الواحد<sup>(2)</sup>، من ذلك قول أثير الدين في أبيات متتالية:

أَسْهَرْتَ طَرْفِي وَوَلَّيْتَ الْفَوَادَ هَوًى      فَالطَّرْفُ وَالْقَلْبُ مِنِّي السَّاهِرُ السَّاهِي  
نَهَبْتَ قَلْبِي وَتَنَهَى أَنْ تَبُوحَ بِمَا      يَلْقَاهُ وَاشْتَوْقَهُ لِلنَّاهِبِ النَّاهِي  
بَهَرْتَ كُلَّ مَلِيحٍ بِالْبَهَاءِ فَمَا      فِي النَّيِّرَيْنِ شَبِيهُ الْبَاهِرِ الْبَاهِي  
لَهَجْتَ بِالْحُبِّ لِمَا أَنْ لَهَوْتُ بِهِ      عَنْ كُلِّ شَيْءٍ فَوَيْحَ الْلاهِجِ الْلاهِي<sup>(3)</sup>

ونلاحظ أن الشاعر بدأ كل بيت بالفعل الذي اشتق منه ألفاظ المجانسة، وكأنه نوع من التطريز يسير على ترتيب خاص مقصود.

واستخدم شعراء العصر أنواع البديع الأخرى بصورة أقل من استخدامهم الجناس، من ذلك استخدام ابن خروف لمطابقات متتابعة في أبيات يصف فيها غلاماً:

وَمُنَوِّعَ الْحَرَكَاتِ يَلْعَبُ بِالنُّهْيِ      لَبَسَ الْمَحَاسِنَ عِنْدَ خَلْعِ لِبَاسِهِ  
بِالْعَقْلِ يَلْعَبُ مُقْبِلاً أَوْ مُدْبِراً      كَالدَّهْرِ يَلْعَبُ كَيْفَ شَاءَ بِنَاسِهِ  
وَيَضُمُّ لِلْقَدَمَيْنِ مِنْهُ رَأْسَهُ      كَالسَّيْفِ ضَمَّ ذُبَابُهُ لِرِئَاسِهِ<sup>(4)</sup>

فقد طابق بين الخلع واللباس، والإقبال والإدبار، والرأس والقدمين، ورأس السيف ومقبضه.

(1) الديوان، ص 418.

(2) المنزع البديع، ص 491.

(3) الديوان، ص 403.

(4) الغصون الياقة، ص 140. المغرب، 2/ 137. الذيل والتكملة، ج 5، ق 1، ص 397. رئاس السيف: مقبضه، لسان العرب: مادة رأس.

ومما يتصل بالمطابقة المقابلة، وهي إيراد الكلام في مقابلته بمثله في اللفظ والمعنى على جهة الموافقة أو المخالفة<sup>(1)</sup>، بين أكثر من متضادين، ومن أمثلة ذلك قول يحيى الطليلي في المدح:

بِأَضْ مَعَانِيهِ بِسُودِ سُطُورِهِ      يُرِيكَ صَبَاحَ الْوَصْلِ فِي لَيْلَةِ الْهَجْرِ<sup>(2)</sup>

أما رد الأعجاز على الصدور، فهو رد كلمة أو أكثر من الشطر الأول إلى الشطر الثاني، وقد سماه أسامة التريدي أو التصوير<sup>(3)</sup>، من ذلك قول أثير الدين:

رَاضٌ حَبِيبِي عَارِضٌ قَدْ بَدَا      يَا حُسْنُهُ مِنْ عَارِضٍ رَائِضٍ<sup>(4)</sup>

أما الترصيع، فهو أن يكون حشو البيت مسجوعاً<sup>(5)</sup>، من ذلك قول أبي العباس الشريشي:

إِذَا تَذَكَّرْتُ أَوْقَاتَانَا وَمَضَتْ      بِقُرْبِكُمْ كَادَتْ الْأَحْشَاءُ تَنْفَطِرُ<sup>(6)</sup>

وقول يحيى الطليلي جامعاً بين الترصيع وحسن التقسيم مخاطباً الملك الأشرف موسى:

لَيْثَ الشَّرَى، غَيْثَ الْوَرَى، نَجْمَ السُّرَى نَارَ الْقَرَى، تَعْشُو لَهَا ضَيْفَانُهَا  
يَا كَامِلًا بَلْ فَاضِلًا يَا فَاعِلًا مَا قَصَّرْتُ عَنْ فِعْلِهِ أَعْيَانُهَا  
لَكَ فِي الْمَآثِرِ دَوْلَةٌ بَلْ صَوْلَةٌ بَلْ جَوْلَةٌ حَارَ الْمَدَى فَرَسَانُهَا<sup>(7)</sup>

(1) أبو هلال الحسن عبدالله العسكري: كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تحقيق: د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1984، ص371.

(2) عقود الجمان، ج9، ورقة 229.

(3) البديع في نقد الشعر، ص85.

(4) الديوان، ص252.

(5) الصناعتين، ص416.

(6) النفع، 2/ 116.

(7) عقود الجمان، 9/ 231.

لقد طرز الشاعر هذه الأبيات تطريزاً متكلفاً، طغى على المعاني وأثقلها، ونراه يكرر المعاني والألفاظ، مما يعد حشواً في البيت الشعري، ويجعله نوعاً من البناء المزخرف المقصود على حساب المعنى.

أما التورية، فهي أن تكون الكلمة بمعنيين، تريد أحدهما فتورّي بالآخر، وقد عدّها النقاد من أعلى فنون الأدب إذا خلّت من التكلف والابتذال<sup>(1)</sup>. وقد يكثر استخدام مثل هذا الفن، في موضوعات النقد الاجتماعي والسياسي، لكنها لم ترد في تلك المواضع عند الشعراء المرتحلين، لأن علاقة المرتحلين برجال السياسة في معظمها كانت علاقات تكسب، وطلب حماية وانصواء.

ومن المواضع التي استخدمت فيه، ما يقوله ابن سراقه في بيتين كتبهما من حلب متشوقاً إلى أصدقائه برأس عين مورياً بالقلب والعين.

حَلَبٌ مُذْ حَلَلْتُهَا حَلًّا فِيهَا      عَيْنٌ رَأْسِي وَالْقَلْبُ فِي رَأْسِ عَيْنٍ  
هِيَ فِي الْقَلْبِ لَا بَلَّ الْقَلْبُ فِيهَا      جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَ قَلْبِي وَعَيْنِي<sup>(2)</sup>  
وقد عدّوا الألغاز من الكلام المورّي لأن باطنه غير ظاهره<sup>(3)</sup>، ومما قاله ابن خروف من باب الألغاز أو الشعر المعتمى:

واشربوا كُلَّ صَبَاحٍ لَبْنًا      واشربوا كُلَّ أَصِيلٍ عَسَلًا  
واعكسوا ذاكَ إِلَى أَعْدَائِكُمْ      مِنْ قِسْيِ النَّبْلِ أَوْ رُقْشِ الْفَلَا<sup>(4)</sup>  
ويعني برقش الفلا لسعها.

(1) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: فض الحتام عن التورية والاستخدام، تحقيق المحمدي عبدالعزيز الحناوي، دار الطباعة المحمدية، مصر، ط 1، 1979، ص 51 من المقدمة.

(2) عيون التواريخ، 20 / 328. ذيل المرأة، 2 / 329.

(3) الكلاعي، محمد بن عبدالغفور، إحكام صناعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت 1966، ص 188، 191.

(4) الوافي، 22 / 93.

وكثر استخدام الترادف، وهو إيراد اللفظين بمعنى واحد، يقول ابن الجَنَان:

عَلَيْكَ مَنْ ذَاكَ الْجَمَى يَا رَسُولَ بُشْرَى عِلَامَاتِ الرِّضَا وَالْقَبُولِ<sup>(1)</sup>  
ويرادف ابن سعيد بين كلمتي «وجدأ» و«حبأ» في وصفه لبركة الفيل<sup>(2)</sup>.

هذه بعض الفنون البديعية، التي استخدمها الشعراء المرتحلون، وأسرفوا، تمثيلاً مع ذوق العصر، مما أدى إلى طغيانها في معظم المواضع، وتأثيرها على جمالية الشعر وتحويله إلى معرض زخرفي، تُنتقى ألفاظه وتُرصف على هيئة خاصة، تذهب بالكثير من تلقائيته ورونقه، وتحول طبع الشاعر على صنعة يتفنن فيها على حساب جودة المعنى. ولا ينفي هذا أن بعض الفنون البديعية جاءت في الشعر عفو الخاطر، فأكسبت المعنى جمالاً، واللفظ انسياباً ورقة.

### الأسلوب واللغة

استخدم الشعراء المرتحلون معظم أشكال القصيدة في بناء شعرهم، فقد أكثروا من كتابة المقطوعات كما رأينا في رداستنا للصورة الشعرية، وكتبوا القصائد الطويلة، مكثرين من الأوزان المجزوءة، وكتبوا الموشحات والأزجال والمسمّطات. وتكمن قيمة هذا البناء في مدى قدرة الشعراء على استخدام ألفاظهم ومعانيهم، ومدى تعبيرها عن عصرهم وثقافتهم وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية، ومدى إفادتهم من التراث المشرقي والمعطيات الحضارية فيه.

لقد استطاعت ألفاظ الشعراء ومعانيهم، أن تحمل رؤية واضحة إلى حد ما عن أوضاعهم، وارتباطهم بذوق عصرهم، وإعطاء الشعر المشرقي صبغة خاصة. فقد أجاد الشعراء في استخدام الصورة الشعرية، واستطاعت أن تعبر عن نفسياتهم وثقافتهم والظروف التي يعيشونها - لأنها كما أوردناه - صورة الحقيقة المحجوبة في دواخلهم،

(1) النفح، 2/ 122.

(2) انظر، المصدر السابق، ص 347.

لكنها لم تخل من زخرفة وتلوين وترصيع بديعي أنيق اختيرت ألفاظه وصوره بدقة وإجهد فكر.

جاءت مقدمات القصائد في معظمها، معبرة عن ولعهم بوصف الطبيعة، وشكوى الغربة والحنين، والحديث عن الرحيل والبعاد. من ذلك قصيدة ابن دحية في مدح الملك الكامل، التي يستهلها بالحديث عن البُعد والرحيل، رابطاً ذلك بوفائه للممدوح:

مالي أسائلُ برقَ بارِقٍ عنكمُ      من بُعدٍ ما بُعدتُ ديارِي منكمُ  
وبمُنحنى الأضلاع بل وادي الغضا      من مهجتي يا راحلين نزلتمُ<sup>(1)</sup>

وله قصيدة أخرى يبدوها بوصف باك للطبيعة، للشوق الذي هاج بين ضلوعه، رابطاً ذلك بالغزل:

شجّنتني شَواجٍ في الغصونِ سَواجِعُ      ففاضتْ هوامٍ للجفونِ هوامِعُ  
وهيَجَنَ شوقاً للأراجِعِ باللّوى      وأينَ اللّوى مني وأينَ الأراجِعُ  
ليالي لا ليلي إذا رُمْتُ وُضَلَهَا      يلوحُ لها من صبحٍ شيبِي مواقعُ<sup>(2)</sup>

ويبدأ ابن سعيد قصيدته البائية بالحديث عن أحواله في مصر مباشرة، دون مقدمات، لأن ما يعاينه لا يقبل إلا مثل هذا الاستهلال الباكي المشحون بالمساءلات والشكوى، يقول:

هذه حمصُ فأينَ المغربُ؟      مُذْنأى عني دموعي تَسْكُبُ  
أينَ حمصُ؟ أينَ أيامي بها؟      بَعْدَهَا لم أَلَقَ شيئاً يُعْجِبُ<sup>(3)</sup>

(1) عنوان الدراية، ص 272.

(2) المصدر السابق، ص 275.

(3) النفح، 2/ 281.

وكثرت المقطوعات في وصف الطبيعة، أو شكوى الأحوال التي نتجت عن الغربة. كما وردت الأبيات المتناثرة، التي عبرت عن فكرة واحدة، أو حس شعوري سريع بموقف أو بشيء ما.

أما الموشحات والأزجال فسنقف على بعض منها عند تبين أساليب التأثر والتأثير بين المشاركة والمغاربة.

ويعبر الأسلوب بالفاظه ومعانيه وصوره عن شخصية الشاعر وفكره وعن ذوق عصره، ولا شك أن أحداث العصر وتحولاته، وامتزاجها مع طبع الشاعر وثقافته، كلها عوامل تحدد الأسلوب وتميزه.

وقد امتاز ديوان المرتحلين بكثرة الأشعار الشاكية، والقصائد التي تصور الغربة والبعد عن الوطن، والمقطوعات التي تصور مظاهر الطبيعة بصورة جمالية مبدعة، أكسبت أسلوبهم سلاسة ورقة، خاصة عند حديثهم عن الغربة والانقطاع، مستخدمين ألفاظاً رقيقة تنطق بمعاني نفوسهم. يقول ابن سعيد شاكياً الغربة متوسلاً بالرسول ﷺ ومتشوقاً ليثرب حينما تعذر عليه الحج، بأسلوب يتفطر له المرء حزناً:

وارحمةً لمتيِّمٍ ذي غربةٍ	ومَعَ التَّغْرِيبِ فَاتَهُ مَا يَقْصِدُ
يا سائرين ليثربٍ بُلِّغْتُمْ	قد عاقني عنها الزمانُ الأنكدُ
يا عاذلي فيما أكابد قُلَّ في	ما أبغيه صِبابَةٌ وتسهُدُ

وترق ألفاظه ومعانيه حينما يخاطب الرسول ﷺ بقوله:

عَيْنِي شَكَتْ رَمَدًا وَأَنْتَ شَفَاؤُهَا	مَنْ دَائِهَا ذَاكَ الثَّيْرِي لَا الْإِثْمِدُ
يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ الَّتِي قَدْ جِئْتُهَا	مَنْ دُونَ بَابِكَ لِلْجَحِيمِ تَوَقَّدُ
فَلَسْتُ حَرَمْتُ بُلُوغَ مَا أَمَلْتُهُ	فَلَدِي ذَكَرِي لَا تَزَالُ تَرَدَّدُ
لَوْلَاهُ مَا بَقِيَتْ حَيَاتِي سَاعَةً	هُوَ لِي إِذَا مِتُّ اشْتِيَاقًا مَوْلِدُ <sup>(1)</sup>

ولا شك أن نزعة الشكوى والحنين الدائمة في نفسية ابن سعيد جعلته يحسن استخدام موقف عدم حجه في التعبير عن المعاني التي يطرب لها، ولا ينفك يرددّها في كل بلد، كما تبيّننا في حديثنا عن الحنين في شعره.

وتشفّ الألفاظ والمعاني عند ضياء الدين الخزرجي في ابتهاله لله تعالى في ساعة مجلوة من ساعات الفجر الغضّ، إذ يقول:

إلى الغواربِ من إشراقها غيرا	واعتاضت الزُّهر بعد الزَّهو إذ جَنَحَتْ
رُويحَةُ الفجر غَضّاً ناعماً نَضِرا	وغادَرَ الطَّلَّ زهَرَ الروض حين سَرَتْ
ونادِ مَنْ لَمْ يَزَلْ في الملكِ مُقتدرا	وبَشَّرَ الفجرُ باليوم الجديدِ قُفُوم
وافاك، يا فالقَ الإصباحِ مُفتقرا <sup>(1)</sup>	يا عالمَ السرِّ لا تفضَحْ سريرةَ مَنْ

فقد استخدم أسلوب التصغير في لفظة (رويحة) مما جعلها ترق، ورادف بين (غضاً وناعماً ونضراً)، وكلها ألفاظ متناسقة الحروف، رقيقة المعاني، فحرف الغين المكرر في معظم ألفاظ البيتين الأول والثاني، وحرف الفاء في أكثر كلمات البيتين الثالث والرابع، أكسبت هذه الحروف كلها الأبيات نغمة موسيقية متشاكلة جعلت لموقف الابتهاال في النفس أثراً شفيف الإيقاع.

وترددت ألفاظ ومعاني الرحيل في أشعار المرحّلين، فها هو ابن الجنّان يصور دموعه ترحل من مقلته وتفارق أوطانها مثله بأسلوب مؤثر، يقول:

أدْمُعي عن مقلتي تَرَحَّلْ	رَحَلُوا عن ربيع عيني فلذا
وهي ليست لحماهُمْ تَصِلْ	ما لها قد فارقت أوطانها
مذهبي عن حبِّكم يَنْتَقِلْ <sup>(2)</sup>	لا تظنّوا أنني أسلو فها

(1) ملء العيبة، 47/3، 48.

(2) اختصار القدح، ص 206. النفح، 2/ 121. فقد ورد في القدح عن جدّكم بدل حبّكم.

فقد حملت الأبيات معظم ألفاظ الرحيل والفرقة (رحلوا، ترحل، فارقت، تنتقل) وترددت مثل تلك الألفاظ، والمعاني المتعلقة بها في معظم أشعارهم، مثل: الشجون والهم والغربة، والواله المتغرب، والغريب والمسكين<sup>(1)</sup> والحرق والانقطاع، وهيج ويقاسي، والضنا<sup>(2)</sup>، والتغرب، والتوحش، والهجر، والعتار، والتفرق، والندب والبعد، والبين، والفراق<sup>(3)</sup>، واستخدموا الرموز التي تدل على معاني الغربة مثل عواء الذئب، وغراب البين<sup>(4)</sup>.

وفي الوقت نفسه، استخدم الشعراء ألفاظاً تتضمن معاني الطرب والنشوة والفرح، فجاءت راقصة ناطقة بفرح نفوسهم، خاصة عند رسمهم صور الطبيعة كما اتضح من خلال الحديث عن الصورة الشعرية ومن هذه الألفاظ، مهزوز، واهتزاز، وتصفيق<sup>(5)</sup> ونشوان، ولم تخل من الانسياب مثل تسيل، وماج، والثني، ويجول<sup>(6)</sup>.

واستخدم الشعراء الكثير من الألفاظ ذات الدلالة الحربية مثل السيوف، والسهام، والجياد، والسمر، والرايات<sup>(7)</sup>، ومن ذلك ما يقوله ابن دحية فيمدح الملك الكامل مستخدماً ألفاظاً لها علاقة بالمعركة مثل: قائم سيفه، والكتائب، والوقائع:

يُدافعُ عني الضيمُ قائمُ سيفِهِ	إذا عَزَّ من للضمِّ عني يُدافعُ
كتائبُهُ من صورةٍ بكتائبٍ	من الملاء على وجبريلٍ وازعُ
ليَهْنَكَ يا عَزَّ الملوك بشائرُ	بتوالي بها في المشركين وقائعُ

(1) عقود الجمان (مخطوط)، ج 10، ورقة 20، 21، 22.

(2) المصدر السابق، ج 4، ورقة 391.

(3) النفع، 264/2، 266.

(4) الرايات، ص 180. النفع، 2/112، 267.

(5) الفوات، 3/140.

(6) المغرب، 2/176. ذيل المرأة، 3/199، 200.

(7) عنوان الدراية، ص 276.



ولا شك أن ظروف العصر الحربية استوجبت استخدام مثل تلك الألفاظ عن قصد أو غير قصد.

ولعل سيطرة الألفاظ المتعلقة بالنجوم والكواكب والكهانة والتنجيم من السمات اللافتة للنظر في هذا العصر، وربما يُعزى تكرار هذه الألفاظ، لانتصالها بعناصر الطبيعة، أو لنهي الحكام عن استخدام المنطق والتنجيم، والهزء بآراء المنجمين ووصفها بالكذب<sup>(1)</sup>، مما جعل هذه النزعة تزداد لدى الشعراء في التعبير للحكام عن تأييدهم للنهي عن هذه العلوم، باستخدام ألفاظها في معاني الإشادة بممدوحهم. وقد ورد الكثير من تلك الألفاظ في قصيدة ابن دحية مادحاً الملك الكامل، ومبطلاً ما يقوله المنجمون، يقول:

أَمْ نَزَلَ الْأَجَابُ أَيْنَ أَحْبَبْتَنِي	فَهُمْ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ الْأَنْجُمُ
عَزُّ الْمُلُوكِ الْكَامِلُ الشَّرَفُ الَّذِي	لِعَلَّائِهِ السَّبْعُ الْكَوَاكِبُ تَخْدُمُ
فَالْمَشْتَرِي كَالْمَشْتَرِي لِسُعودِهِ	يَمْسِي وَيَصْبِحُ حَيْثُ أَمَّ يَوْمُهُ
فَدَعِ التَّحَرُّسَ يَا مَنْجَمُ وَأَتَّئِدْ	فَالْحُكْمُ عِنْدِي غَيْرَ مَا قَدْ تَحْكُمُ
هَذَا الصَّحِيحُ مِنَ الْمَقَالَاتِ الَّتِي	فِيهَا بِمَكْنُونِ الْغُيُوبِ يُرَجَّمُ
لِذَوِي النِّهْيِ وَالْفَهْمِ سُرٌّ حَكُومَةٍ	قَدْ حَارَ فِيهَا كَاهِنٌ وَمَنْجَمُ <sup>(2)</sup>

فقد استخدم الشاعر النجوم والكواكب بدلالاتها المختلفة، إذ غدت الكواكب السبع تخدم الملك الكامل، لأنه نجم ساطع بصفاته، وتشابه كوكب المشتري مع المشتري لسعوده. وحارت هذه الصفات التي شاكلت النجوم والكواكب على المنجمين والكهّان، فجاء الرد على هؤلاء المنجمين من جنس ما ينجمون ويتكهنون به وذلك أبلغ. ووردت

(1) البداية والنهاية، 13 / 158.

(2) عنوان الدراية، ص 273، 274.

ألفاظ وصور للنجوم وعلاقتها بالبدور والبروق في مواضع أخرى<sup>(1)</sup>. كما وصف الشعراء بعض الظواهر الكونية مثل خسوف القمر<sup>(2)</sup>.

وتناول الشعراء ألفاظ العلوم واستخدموها، كألفاظ علم الحديث في قصيدة غزلية لأبي العباس أحمد بن فرح، إذ يقول ذاكراً درجاته من صحيح وحسن وضعيف ومتروك وأنواعه..

وَحُزَنِي وَدَمْعِي مُطْلَقٌ وَمُسْلَسَلٌ	غَرَامِي صَحِيحٌ وَالرَّجَا فِيكَ مُعْضَلٌ
ضَعِيفٌ وَمَتْرُوكٌ وَذَلِي أَجْمَلٌ	وَصَبْرِي عَنْكُمْ يَشْهَدُ الْعَقْلُ أَنَّهُ
مُشَافَهَةٌ يُمَلَى عَلَيَّ فَأَنْقُلُ	وَلَا حَسَنٌ إِلَّا سَمَاعُ حَدِيثِكُمْ
وَمَنْقَطِعاً عَمَّا بِهِ أَتَوَسَّلُ <sup>(3)</sup>	أَقْضِي زَمَانِي فِيكَ مَتَّصِلَ الْأَسَى

واستخدم أثير الدين ألفاظاً في صفات الحروف، كالجهر، والهمس، والغنة، والصفير.. يقول:

كَلَّمَا اشْتَدَّ صَارَتِ النَّفْسُ رَخْوَةً	أَنَا هَاوٍ وَلَمْ يَسْتَطِيعْ أَغْنٍ
وَإِذَا مَا انْخَفَضْتُ أَظْهَرَ عُلُوَّه	أَهْمِسُ الْقَوْلَ وَهُوَ يَجْهَرُ سَرّاً
بِصْفِيرٍ وَالْقَلْبُ قَلَقَلْ شَجْوَهُ	فَتَحَ الْوُضْلَ ثُمَّ أَطَبَقَ هَجْراً

كما استخدم جمال الدين ابن مالك<sup>(4)</sup> ألفاظاً ومعاني نحوية<sup>(5)</sup>. وينحو مثل هذا الشعر منحىً تعليمياً، مما يجعله قوالب لألفاظ مخصوصة، تفقده قيمته الجمالية.

(1) انظر: الغصون، ص 143. المغرب، 2/ 138. عقود الجمان (مخطوط)، ج 9، ورقة 228. الفوات، 105/3.

(2) انظر النفع: 2/ 264.

(3) النفع، 2/ 530.

(4) انظر الملحق، الترجمة رقم (43).

(5) انظر: الوافي، 3/ 361-362.

ويعزو د. عبدالعزيز الأهواني هذه الظاهرة إلى انقطاع التواصل بين العارفين بالعلوم والجمهور، فالذين يعرفون أصول علوم اللغة والحديث وغيرها قلة، إذ لا بد للشاعر من استخدام مثل هذه المصطلحات، لزيادة التواصل بين الطرفين<sup>(1)</sup>، وقد يكون مرد ذلك إلى محاولة الشعراء إظهار البراعة، والتفنن في إبراز بعض سمات خاصة للشعر، ومنها هذه الظاهرة.

وأورد الشعراء في شعرهم ألفاظاً لها اتصال بالزراعة، كالبذر والحصاد، والخصب والجذب والغرس، من ذلك ما يقوله ضياء الدين الخزرجي من قصيدة زهدية:

فبَاتَ يَبْذُرُ فِي أَرْضِ الرِّضَا حَسَنًا      وَإِنَّمَا يَحْصُدُ الْإِنْسَانُ مَا بَذَرَا<sup>(2)</sup>  
ويقول ابن خروف ذاكراً للخصب والجذب والغرس في امتداحه لنفسه:

مَثَلِي يَسْمَى أَرِييَا	مَثَلِي يَسْمَى أَدِييَا
مَتَى وَجَدْتُ كَثِييَا	غَرَسْتُ فِيهِ قَضِييَا
وَلَا أَبْأَلِي خَصِييَا	لَقِيْتُهُ أُمَّ جَدِييَا <sup>(3)</sup>

وتؤكد مثل هذه الألفاظ ودلالاتها، ارتباطاً بالزراعة، ومعرفة قيمة الأرض وأهمية رعايتها والقيام بشؤونها.

وحملت بعض الألفاظ دلالات مالية كالدرهم والدنانير، وقيمتها في التأثير على حياة الإنسان، من ذلك ما يقوله أثير الدين عن الدراهم التي لا يستطيع ردّها، لقضائها حاجته، وتصويرها الصعب سهلاً:

أَجَلٌ شَفِيعٌ لَيْسَ يُمْكِنُ رَدُّهُ	دَرَاهِمٌ بَيَضٌ لِلْجُرُوحِ مَرَاهِمُ
تُصَيِّرُ صَعْبَ الْأَمْرِ أَسْهَلَ مَا أَرَى	وَتَقْضِي لُبَانَاتِ الْفَتَى وَهَوْنًا <sup>(4)</sup>

(1) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط2، 1986، ص37-38.

(2) ملء العيبة، 3/ 47.

(3) الغصون، ص142. المغرب، 1/ 138.

(4) الديوان، ص476.

وذكر ابن خروف الدراهم مصوراً إياها بالنجوم<sup>(1)</sup>، وشبه ابن سعيد السُرج في خليج مصر بالدنانير التي لا ترام<sup>(2)</sup>.

وترددت في أشعار المرتحلين أسماء بض الحيوانات، مستخدمين دلالاتها ومرادفاتها وما ترمز إليه، كالأسد مرادفاته كالضيغم والليث<sup>(3)</sup>، والطبي والريم<sup>(4)</sup>، والذئب والسَّيد<sup>(5)</sup>، والثعبان ورُقش الفلا والأراقم والحُباب<sup>(6)</sup>. والظليم وهو ذكر العام ومن ذلك ما يقوله ابن خروف مقارناً بين سرعة الطرف وسرعة الظليم:

مَراقٍ للطرف غيرُ طرفٍ      قَصَرَ في العدو بِالظَّلِيمِ  
ذِي نُقْطٍ كَالنَّجُومِ تَبْدُو      فِي جَنَحٍ لَيْلٍ لَهُ بَهِيمٌ<sup>(7)</sup>  
ويقول أبو عبدالله الغُماري جامعاً بين الطبي والأسد مخاطباً الوزير الحلبي مؤيد الدين أبا نصر الشيباني:

وَقَدْ جَمَعْتَ نَفْرَةَ الطَّبْيِ وَبَطْشَ الْأَسَدِ<sup>(8)</sup>  
وَيَصِفُ شَرَفَ الدِّينِ الْمَرْسِيِّ<sup>(9)</sup> تَثْنِي الْمَاءَ مَشْبِهاً إِيَّاهُ بِتَثْنِي الْحُبَابِ:  
شَتَّى مُحَاسِنُهُ فَمَنْ زَهَرَ عَلَى      تَهَرَّ تَسْلَسَلْ كَالْحُبَابِ تَسْلَسُلَا

(1) انظر: الرايات، ص 139.

(2) انظر: الخطط، 1/ 368. النفخ، 2/ 349.

(3) انظر: المغرب، 2/ 175. عنوان الدراية، ص 274. الإحاطة، 4/ 156.

(4) انظر: الغصون، ص 143. الذيل والتكملة، ج 5، ق 1، ص 397.

(5) انظر: النفخ، 2/ 112.

(6) انظر: الغصون، ص 142، 143. عقود الجمان (مخطوط)، ج 7، ورقة 217. الوافي، 3/ 358، و 93/ 22.

(7) المغرب، 1/ 138.

(8) عقود الجمان، ج 7، ورقة 218.

(9) انظر الملحق، الترجمة رقم (44).

عَرَيْتْ بِهِ شَمْسُ الظَّهْرِ لَا تَنْي إِحْرَاقَ صَفْحَتِهِ لِهَيْأَ مُشْعِلًا<sup>(1)</sup>

لكن هذه الدلالات في معظمها خاصة للحيوانات المؤذية، كالحُباب والذئب لم تأت بمعانيها الحادة وربطها بصفات الناس المؤذية، فالنهر كان تسلسله وانسيابه كالحُباب. والأرقام والثعابين ربطت بوصف عيد من أعياد السبت عند ابن خروف<sup>(2)</sup>، والسَّيد (الذئب) ربط بمشهد فيه دُعابة<sup>(3)</sup>. لكننا نجد المشاقة أكثر حدة في تصويرهم للحيوانات المؤذية، ونراها كذلك لا تتصل بما فيه رقة وسلاسة، فقد كانوا - على الأغلب - يربطون بين صفاتها المؤذية، وصفات أعدائهم السيئة. فابن عنين يشبه لثام الناس بالعقارب والثعابي التي تنفث السموم<sup>(4)</sup>، وقد تأتي مثل هذه الصور الحادة للحيوانات المؤذية في مواضع لا تتطلبها، كتشبيه غلام يركب زورقاً بالعقرب، يقوده ثعبان ماء<sup>(5)</sup>.

ولعل الأثر الديني، من أبرز السمات التي تميز بها شعر المرتحلين، فقد أكثروا من استخدام الألفاظ الدينية الخاصة بالشعائر الإسلامية مثل الوضوء والتميم والتكبير والصلاة، يقول ابن مالك:

إِذَا رَمِدْتُ عَيْنِي تَدَاوَيْتُ مِنْكُمْ      بِنَظَرَةٍ حُسْنٍ أَوْ بِسَمْعٍ كَلَامٍ  
فَإِنْ لَمْ أَجِدْ مَاءً تَيَمَّمْتُ بِاسْمِكُمْ      وَصَلَّيْتُ فَرَضِي وَالْدِيَارُ أُمَامِي  
وَأَخْلَصْتُ تَكْبِيرِي عَنِ الْغَيْرِ مُعْرِضًا      وَقَابَلْتُ أَعْلَامَ السَّوَى بِسَلَامٍ<sup>(6)</sup>

كما وردت الإشارة إلى السجود، فالعقل يسجد عند بدر بن هود<sup>(7)</sup> في وصفه لأحوال العشاق:

(1) الواقي، 3/ 358.

(2) انظر: الغصون، ص 142، 143.

(3) انظر: النفح، 2/ 112.

(4) انظر: ديوان ابن عنين، ص 137.

(5) عقود الجمان (مخطوط)، ج 10، ورقة 156.

(6) النفح، 2/ 226.

(7) انظر الملحق، الترجمة رقم (6).

مَجَانِينُ إِلَّا أَنْ ذُلَّ جَنُودُهُمْ عَزِيزٌ عَلَى أَعْيَانِهِمْ يَسْجُدُ الْعَقْلُ<sup>(1)</sup>  
والغصن عند ابن سعيد يسجد<sup>(2)</sup>، وغدا وقوعه عن الحمار سجود عثار<sup>(3)</sup>، وأشار  
بعضهم إلى الصوم والفطر<sup>(4)</sup>، وإلى البيت العتيق<sup>(5)</sup>. كما استخدموا دلالات أسماء سور  
القرآن الكريم، يقول ابن سعيد من مدحه للملك الناصر مستخدماً دلالة سورة الحمد:  
مَلِكٌ تَرَى فِي وَجْهِهِ آيَةَ الرِّضَا وَتَقْرَأُ مِنْ أَمْدَاحِهِ سُورَةَ الْحَمْدِ<sup>(6)</sup>  
ويستخدم دلالة سورة يوسف، يقول:

هَذَا الَّذِي هُذِنَا لِمَرْسَلٍ شِعْرِهِ لَمَّا أَتَى فِي فِتْرَةِ السُّلُوكِ  
يَا حُسْنَ سُورَةِ يُوسُفَ فِي صُورَةٍ تَتْلُو عَلَيْكَ بِدَائِعِ الرَّحْمَنِ<sup>(7)</sup>  
كما ضَمَّنُوا شعرهم ألفاظاً ومعاني من القرآن الكريم، يقول ابن عتبة الإشبيلي في  
غلام:

رَأَيْتُ فِي خَدِّهِ عِذَاراً خَلَعْتُ فِي حَبِّهِ عِذَارِي  
قَدْ كَتَبَ الْحُسْنَ فِيهِ سَطْرًا «وَيُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ»<sup>(8)</sup>  
ويقول أبو الحسن الشُّشْتَرِيُّ، مضمناً من قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾  
[القصص: 36]:

- 
- (1) الروافي، 2/ 158.
  - (2) انظر الرايات، ص 175. والمغرب، 2/ 174.
  - (3) انظر المغرب، الخاص بمصر، 1/ 6. الخطط، 1/ 341.
  - (4) انظر: القدح، ص 6.
  - (5) انظر: الفوات، 3/ 266.
  - (6) المغرب، 2/ 175.
  - (7) مسالك الأبصار (مخطوط)، ج 8، ق 2، ورقة 388.
  - (8) الفوات، 3/ 285. وانظر الآية 61 من سورة الحج.

شَدَّتْ أُمُورُ الْقَوْمِ عَنْ عَادَاتِهِمْ فَلَأْجَلَ ذَاكَ يَقَالُ سَحَرٌ مَفْتَرَى<sup>(1)</sup>

وأشار الشعراء إلى معاني وردت في القرآن الكريم مثل جعل النبوة في أبناء يعقوب عليه السلام، وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ [العنكبوت: 27] من ذلك ما يقوله ابن خروف ماحاً بني أيوب، مشبهاً إياهم بأبناء يعقوب لتقاهم وصلاحهم:

شَمْسُ الْهَدَايَةِ فِي أَبْنَاءِ أَيُّوبٍ      أَخْتُ النُّبُوَّةِ فِي أَبْنَاءِ يَعْقُوبِ  
هَمُّ الْمَلَائِكَةِ فِي زِيِّ الْمُلُوكِ وَهُمْ      أَسَدُ الْحُرُوبِ وَأَقْطَابُ الْمَحَارِبِ<sup>(2)</sup>

وأحسن الشعراء استخدام القصص القرآني ورموزه، لا سيما قصة فرعون وموسى عليه السلام وقصة الخضر وموسى عليهما السلام، ويوسف عليه السلام وتملكه خزائن مصر، يقول ابن سعيد مشيراً إلى موسى والخضر أثناء وصفه لنعيم دمشق، مصوراً يباعها تتفجر من ضربات عصا موسى، ورياضها تخضر من لمسات الخضر:

وَكُلُّ وادٍ بِهِ مُوسَى يُفَجِّرُهُ      وَكُلُّ رَوْضٍ عَلَى حَافَتِهِ الْخَضِرُ<sup>(3)</sup>  
كما ربط أثير الدين بين انشقاق البدر لمحمد، وانفلاق البحر لموسى - عليهما السلام - يقول:

فَلِلرَّسُولِ انْشِقَاقُ الْبَدْرِ نَشْهَدُهُ      كَمَا لِمُوسَى انْفِلَاقُ الْبَحْرِ مَنْقُولُ<sup>(4)</sup>  
أما ابن خروف، فيوظف قصة فرعون وموسى عليه السلام مع السحرة توظيفاً جيداً، في وصفه لمتنزهات دمشق وميادينها في يوم السبت الذي اختصه أهل دمشق للعبهم وغنائهم وهوهم، فغدا فيه السحر لجماله، وعُجب ما يعرض فيه، يقول:

(1) ديوان الشُّشْتَرِي، تحقيق: د. علي سامي النشار، دار المعارف، الإسكندرية، ط 1، 1960، ص 41.

(2) الغصون، ص 139.

(3) الوافي، 22 / 256.

(4) الديوان، ص 469.

تروُق دمشقُ ولداناً و حوراً  
إذا رَحلت عَروبةُ<sup>(1)</sup> عن حاما  
إلى سَبَّتِ حكي فرعونَ موسى  
فتبَصَّرُ كُلَّ أُمْلودٍ قويمٍ  
إذا انسابَتْ أراقمُهُ عليه  
وشاهدنا بها في كُلِّ حالٍ  
وتزهو زهو جناتِ النِّعيمِ  
تأوّهَ كُلُّ أَوابٍ حلِيمِ  
يجمّعُ كُلَّ سَحارٍ عليمٍ  
يميسُ وكُلَّ ثعبانٍ عظيمٍ  
تذكّرنا به ليلَ السليمِ  
جبالاً أَلْقَيْتُ نحوَ الكَلِيمِ<sup>(2)</sup>

ويقول ابن سعيد مشيراً إلى تملك يوسف عليه السلام خزان مصر، ومورياً باسمه في مدحه للملك الناصر يوسف:

خزائنُ أرضِ الله في يَدِ يوسُفٍ      فَهَلْ لسواهُ في الملوكِ يُرى قَصدي<sup>(3)</sup>  
وقد استخدم الشعراء ألفاظاً دينية مسيحية، ولعل أبا الحسن الشُّشُري في قصائده وموشحاته الصوفية، من أكثر الشعراء استخداماً لهذه الألفاظ، إذ تنقل في الربط والأديرة بين بادية الشام ومصر، وأشعاره مليئة بوصف الأديرة والرهبان والشامسة<sup>(4)</sup> والأيقونات والصور، من ذلك وصفه لدير مسيحي وما يجري فيه من شرب الخمر التي لم تكن إلا إلهية، حيث احتساها مع الرهبان والشامسة واصفاً منهم شماساً يَحْتال بثوبه وقاراً، يقول:

تَبَّهَ قَدِ بَدَتْ شمسُ العُقارِ      وقد غَلَبَ اشْعاعُ على النَّهارِ  
سُلافاً قَدِ صَفَتْ قَدماً وراقَتْ      أدِرْها بالصَّغارِ وبالكَبارِ  
فما عُصِرَتْ وما جُعِلَتْ بِدَنٌّ      وما سُكِبَتْ رُجاجُها بنارِ

(1) عَروبةٌ وعُروبةٌ: يوم الجمعة، لسان العرب، مادة: عرب.

(2) الغصون، ص 142، 143.

(3) المغرب، 2/ 175.

(4) الشامسة: مفردها الشَّاس، وهو من يقوم بالخدمة في الكنيسة، ومرتبته دون القسيس، وهي لفظة سريانية، المعجم الوسيط، مادة: شمس.



شربناها بدير ليس فيه      سوى الحلاج في خلع العذار  
نشأ في القوم شماس لطيف      يجر الذئب في ثوب الوقار  
فأفناهم به عنهم فتاهوا      فما يرويه شرب البحار  
وعند دخولهم في الدير ألقوا      عصاهم إذ ألموا بالجوار<sup>(1)</sup>

ولعل سبب إعجابه بحياة الرهبان، هو التشابه الشديد بين حياتهم وحياة الصوفية، فكلتاها تقومان على الحرمان والزهد والإعراض عن الدنيا، والعيش في طقوس خاصة<sup>(2)</sup>.

وتتداخل الألفاظ النصرانية عند ابن دحية مع بعض الألفاظ الإسلامية في مدحه للملك الكامل، ومحاربه للنصارى وتدميره لكنائسهم ونواقيسهم، يقول:

بأسيا فيه في الأرض هدت كنائس      وشيّد للإسلام فيها جوامع  
ليهنك يا عز الملوك بشائر      توالى بها في المشركين وقائع  
تدال بها أرض العدى بالعمى هدى      يكسر ناقوس وتبنى صوامع<sup>(3)</sup>

أما بدر الدين بن هود فيشير إلى قس النصارى وحبر اليهود معرضاً بأقوالهم التي يدحضها الحق:

سلام عليكم صدق الخبر الخبر      فلم يبق قال القس أو حدث الخبر<sup>(4)</sup>

كثر استخدام ألفاظ مذهب التصوف، نظراً لانتشار التصوف والزهد في المجتمع بصورة واضحة، نتيجة للظروف غير المتوازنة التي توسد حياة المجتمع والتي أدت للاتجاه لتيار اللهو والترف، أو للتصوف والزهد بصورة متطرفة في كلا الجانب، ولعل ظهور

(1) الديوان، ص 40.

(2) علي سامي النشار (صوفي أندلسي مجهول)، مقالة في مجلة الأديب، ج 9، السنة الثالثة، بيروت، 1944، ص 19.

(3) عنوان الدراية، ص 276.

(4) الوافي، 2/ 159.

أشهر المتصوفة في هذا العصر مثل السُّهروردي وابن عربي وأبي الحسن الششتري وما يدور بينهم وبين الفقهاء من المناقشات، من الأمور التي أجمعت هذا الاتجاه، مما كان له أثر بَيِّن في استخدام الشعراء لألفاظ ومعاني التصوف، يقول بدر الدين بن هود، مستخدماً ألفاظ الظاهر والباطن والتجلي:

ألا يا حبيبَ القلب يا من بذكرِهِ      على ظاهري من باطني شاهدٌ عدلٌ  
تجلَّيتَ لي منِّي عليٌّ فأصبَحْتُ      صفاتي تنادي لما لحبونا مثلاً<sup>(1)</sup>

أما ابن الجنان فيؤمن بالحلول، لكن في دين الهوى كما يقول:

أحبَّابُنَا ودَّعْتُم نَاطِري      وأنْتُم بين ضلوعي نزولٌ  
حللتُم قلبي وهو الذي      يقولُ في دينِ الهوى بالحلول<sup>(2)</sup>

كما وردت ألفاظ أخرى مثل البعض والكل، والوجود والقَدَم<sup>(3)</sup>، والخلود والتفرد والأغيار والفناء والعدم<sup>(4)</sup>.

ومن الظواهر الأسلوبية التكرار، فقد كرر الشعراء في ألفاظهم ومعانيهم وصورهم وحروفهم، وعلق ابن الأثير على هذه الظاهرة بقوله: «إنها من المفيد أن تأتي لمعنى، ومن غير المفيد أن تأتي لغير معنى»<sup>(5)</sup>. وقد كان سبب التكرار اللفظي - على الأغلب - استخدام المجانسة كما تبيننا عند الحديث عن الفنون البديعية، وكرر الشعراء في مطارحاتهم ومساجلاتهم لما تستوجبه من تكرار واستخدام ألفاظ متشابهة، أو استخدام ألفاظ بعينها عند الرد، من ذلك المساجلة بين ابن سعيد وابن العديم، حيث يقول ابن العديم في بيات كتبها لابن سعيد:

(1) الوافي، 2 / 158.

(2) القدح، ص 209.

(3) انظر، الوافي، 2 / 159.

(4) انظر: ديوان أبي حيان، ص 432.

(5) ابن الأثير: ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم وتعليق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، ط 2، 1973، 4 / 3.

يا ابن سعيد إليك شوقي (شوقك للغصن والكثيب)  
فأجابه ابن سعيد بقوله:

يا ابن الكمال أطرح كتاباً (في الشوق للغصن والكثيب)<sup>(1)</sup>  
ويجمع ابن دحية بين التكرار اللفظي الناتج عن المجانسة وعن غير المجانسة، خاصة المتعلق بألفاظ النجوم، وبين التكرار المعنوي، يقول:

أمنازلَ الأحبابِ أينَ أحبَّتي      فهُمُ إذا جَنَّ الظلامُ الأنجُمُ  
وسرَّوا وقد أسروا الفؤادَ وحرَّموا      طيبَ الهُجوعِ عليَّ لما أحرَّموا  
أحبابنا طالَ المطالُ بوعدِكُم      لي بالوصالِ وطالَ ليلى فيكُم  
ورحلتُم بالقلبِ يومَ رحلتُم      وظعنْتُم بالصبرِ يومَ ظعنْتُم<sup>(2)</sup>

فمعاني المساءلة عن الأحبة والألم لفقدهم تكررت في معظم الأبيات، وتكررت الألفاظ في كل الأبيات، بين الأحباب وأحبتي، وسرَّوا وأسروا، وهم وهم، وطال والمطال، ورحلتُم ورحلتُم، وظعنتم وظعنتم، وإن كانت مواضع التكرار أكسبت بعض الأبيات موسيقى خاصة، إلا أنها أفقدتها جزءاً من فنيته، لأنها جاءت مقصودة لذاتها.

وتكررت عند بعض الشعراء ألفاظ وصور تشخيصية بعينها في مواضع متفرقة، مثل لفظة الجناح عند ابن سعيد، فالخليج طائر له جناح<sup>(3)</sup>، وللرياح أجنحة<sup>(4)</sup>، وأجنحة السيوف<sup>(5)</sup>، والحمام يعيرُ جناحه<sup>(6)</sup>، والشمس طائر يمدُّ جناحه<sup>(7)</sup>. كما أولع ابن سعيد

(1) القدح، ص 6.

(2) عنوان الدراية، ص 273.

(3) الرايات، ص 179.

(4) الوافي، 22 / 255.

(5) الإحاطة، 4 / 154.

(6) النفع، 2 / 307.

(7) الرايات، ص 180. النفع، 2 / 307.

أولع ابن سعيد بالريح والغصن وتفنن في رسم صورهما، وترداد لفظيهما في عدد من المواضع، فالغصن يسجد، والريح تدنيه لليد<sup>(1)</sup>، والريح تبدي الخفايا، وتَمِلُّ الأغصان لتقبّل أوجه الجدران، والغصون تميل لتقرأ<sup>(2)</sup>.

ولعل هذه الألفاظ، وخاصة لفظة الجناح لها ارتباط بنفسية ابن سعيد المتقلبة لما ترمز إليه من الحركة الدائمة والتنقل والارتحال، وهذه من أخص صفات ابن سعيد الذي لم يكن يستقر في مكان ما، إلا ويفكر في الارتحال إلى آخر، كما أن الجناح يرمز للحمام الذي يعبر صوته عن الحنين والشوق وتهيج الأشجان، فنفسية ابن سعيد مولعة بهذه الأحاسيس التي يرددها في معظم شعره في كل مرحلة من مراحل حياته مع اختلاف درجاتها في كل موضع، ولعل لفظي الريح والغصن لها ارتباط بالجناح، وتجمعهما معه الحركة، وعدم الاستقرار، والمطاوعة في الخفقان وكلها لها اتصال بنفسية ابن سعيد التواقة دائماً للحرية والتحليق والانطلاق.

ومثلما تكررت الألفاظ والمعاني والصور، فقد تناوبت الحروف ظاهرة التكرار في أبيات الشعراء وقوافيهم على هيئة تطريزية خاصة، لا تخلو من تفنن وجمال موسيقي في بعض المواضع، من ذلك تكرار حرف الفاء ثلاث عشرة مرة في قول ابن الجنان:

عَرَفُ النَّسِيمِ بَعْرِفِكُمْ يَتَعَرَّفُ	وأخو الغرام بحبِّكم يتشَرَّفُ
شَرَفَ المتَّيِّمِ في هَواكم أَنَّهُ	طوراً ينوح وتارة يتلَهَّفُ
لَطَفَت معانيه فَهَبَّ مع الصَّبا	فرقيُّه بهبوبه لا يعرفُ
وإذا الرقيبُ درى به فلا تُهْ	أخفى لديه من النَّسيم والطفُ <sup>(3)</sup>

ويناب ابن سعيد في تكراره للحرفين الحلقين الحاء والهاء، يقول:

أقلقه وجده فباحا      وزاد تبريُّه فباحا

(1) الرايات، ص 175، 174.

(2) الفوات، 3/ 263.

(3) ذيل المرأة، 3/ 201.

يُكَايِدُ الْمَوْتَ كُلَّ حِينٍ      لَوْ أَنََّّهُ مَاتَ لَا سَتَرَا  
يَنْزُو إِذَا مَا الرِّيحُ هَبَّتْ      كَأَنََّّهُ يَعِشُ الرِّيحَا  
يَسْأَلُهَا عَنْ رُبُوعِ حِمَصٍ      لَمَّا نَهَا عَرَفُهَا وَفَا حَا  
كَمْ قَدْ بَكَى لِلْحِمَامِ كَيْمَا      يُعِيرُهُ نَحْوَهَا جَنَاحَا<sup>(1)</sup>

لقد تكرر حرف الحاء إحدى عشرة مرة، وحرف الهاء عشر مرات، وهي نسبة متقاربة، وقد أحسن ابن سعيد اختياره لهذين الحرفين في حديثه عن الغربة، فهما حرفان مهموسان، أقرب إلى شجون النفس ودواخلها، وزاد في سلاسة الشعر ورقته استخدام الوزن المجزوء لبحر البسيط.

ويكرر أثير الدين حرف السين خمس مرات في بيت واحد من مقطوعة سينية، يقول:

أَرْحَتُ نَفْسِي مِنَ الْإِنْسَانِ بِالْإِنْسَانِ      كَمَا غَنَيْتُ عَنِ الْإِكْيَاسِ بِالْإِكْيَاسِ<sup>(2)</sup>  
ويلاحظ أن لفظ القافية - في الغالب - هو الذي يتكرر في حشو الشعر، فأبيات ابن الجَنَّانِ غلب عليها تكرار حرف الفاء وهو حرف القافية، وكذلك ابن سعيد، وأثير الدين. ويتناوب عند محي الدين تكرار حروف عدة في مقطوعة يدعو فيها إلى عدم وصف الله تعالى كوصف المخلوقات، بل تمجيده فرداً واحداً، للسعادة بلحظة الوصل، يقول:  
فَقُمْ بَوَصْفِ الْإِلَهِ وَانْظُرْ      إِلَيْهِ فَرْدًا عَلَى أَنْفِرَادِ  
وَالْبَسْ لِمَوْلَاكَ ثَوْبَ فَقْرٍ      كَيْ تَحْظَ بِالْوَاهِبِ الْجَوَادِ  
وَقُلْ إِذَا أَجَبْتَهُ فَقِيرًا      يَا سَيِّدًا وَدُّهُ اعْتِمَادِي<sup>(3)</sup>

(1) النفع، 2/ 307.

(2) الديوان، ص 456.

(3) ديوان ابن عربي (مخطوط)، ص 8.

كرر ابن عربي حرف الفاء أربع مرات في البيت الأول، مرتين في كل شطر، وكرر حرف الدال مرتين في الشطر الثاني من البيت الأول، وثلاث مرات في الشطر الأخير من الأبيات، فقد كان لاستخدام الحروف عند المتصوفة رموز ومدلولات خاصة، لها أهميتها في فلسفة التصوف، لا سيما أن الحرف يتعلق بأسرار المعاني القرآنية، والرموز المستوحاة منها<sup>(1)</sup>.

ولعل من الملاحظ أن الحروف التي يستخدمها الشعراء المرتحلون للتكرار هي حروف رقيقة مهموسة في معظمها، لما تحملها من موسيقى وانسياب يحملها معظم شعرهم الأندلسي وربما كانوا يستخدمونها لتعويض إحساسهم باختلال موسيقى شعرهم أحياناً، فتأتي هذه الحروف لتعوض عن إحساسهم بفقدان هذه السلسلة الرقاقة التي اعتادوا عليها بطبعهم، وأكسبتها إياهم طبيعة بلادهم الجميلة، وإحساسهم بالاطمئنان في وطنهم، الذي أدى ترحالهم إلى فقدانهم له، وفقدان شيء من هذه السلسلة التي كانت نتيجة للرفاهية والأمن وجمال وطنهم الذي لم يستطيعوا أن ينسوه أو يقبلوا بغيره بديلاً.

وقد يتجاوز بعض الشعراء في ألفاظهم ومعانيهم، مستخدمين ألفاظ شتم الأعراض، والسباب، مما قد يؤثر على فنية الشعر وقيمه، من ذلك ما يقوله أثير الدين في جاهل لبس صوفاً وزها فيه:

أيا كاسياً من جيّد الصوفِ نفسه      ويا عارياً من كلّ فضلٍ ومن كَيْسٍ  
أتزهى بصوفٍ وهو بالأمس مُصبحٌ      على نعيّةٍ والآن مُمسٍ على تَيْسٍ<sup>(2)</sup>

ويعرّض ابن خروف القرطبي بالمهذب الدّخوار الطيب في مقطوعة يقول منها:

إنّ الأعيرج حاز الطبّ أجمعهُ      أسْتَغْفِرُ اللهَ إلّا العِلْمَ والعَمَلَا

(1) عمر موسى باش: قطب العصر عمر اليافي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1933، ص 545.

(2) الديوان، ص 237.

وَلَيْسَ يَجْهَلُ شَيْئاً مِنْ غَوَامِضِهِ إِلَّا الْجَوَاهِرَ وَالْأَعْرَاضَ وَالْعِلَالَ<sup>(1)</sup>

وقد اشتملت بعض الأبيات على ألفاظ ينبو عنها الذوق، لما فيها من كلام قبيح وطعن بالأعراض<sup>(2)</sup>، وقد خرج فيها بعض الشعراء عن الدين، بألفاظ ومعاني لا تليق<sup>(3)</sup>.

ولم يخل شعر المرتحلين من إيراد الحكم والأمثال، وما تحمله من قيم اجتماعية وثقافية، واتصال بالتراث، من ذلك ما يورده ابن سراقه من حكمة حتمية الأقدار التي لا بد من وقوعها على الرغم من معاندة المرء لها:

مُرَادِي شَيْءٌ وَالْمُقَادِيرُ غَيْرُهُ وَمَنْ عَانَدَ الْأَقْدَارَ لَا شَكَّ يُغْلَبُ<sup>(4)</sup>

كذلك ما يورده أثير الدين في القناعة، وعدم لبس المرء غير أثوابه، لأنه سيعثر فيها:

رَضِيْتُ كَفَافِي رَتْبَةٍ وَمَعِيشَةٍ فَلَسْتُ أُسَامِي مُوسِراً وَوَجِيهاً

وَمَنْ جَرَّ أَثْوَابَ الزَّمَانِ طَوِيلَةً فَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ سَيَعْثُرَ فِيهَا<sup>(5)</sup>

ومن الأمثال التي أوردوها: «سَبَقَ السِّيفُ الْعَذْلَ»<sup>(6)</sup> بتبديل بعض ألفاظه في قول

ابن سعيد:

فِيَا عَاذِلِي فِيمَا جَتَّهُ لِحَاطُفُهُ أَتَعَذِّلُنِي وَالسَّيْفُ لِلْعَذْلِ قَدْ سَبَقُ<sup>(7)</sup>

(1) عقود الجمان (مخطوط)، 4/ 414.

(2) انظر: المغرب، 1/ 137. الوافي، 22/ 91.

(3) انظر: اختصار القدح، ص 210، 212.

(4) النفح، 2/ 64.

(5) النفح، 2/ 563. لم ترد في الديوان.

(6) الميداني، أبو الفضل أحمد بن إبراهيم: مجمع الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط 2، 1987، 2/ 97. قيل: قال هذا المثل ضبة بن أد لما لامه الناس على قتل قاتل ابنه، وقد مر على القصة عام.

(7) المغرب، 2/ 178.

أما ضياء الدين الخزرجي فيستخدم المثل: «قَلْبَ لَهُ ظَهَرَ الْمَجَنِّ»<sup>(1)</sup> في الشطر الأول بتغيير بسيط في قوله:

وَمُتَرَفٍ قَلْبْتُ ظَهَرَ الْمَجَنِّ لَهُ      فَعَادَ بَعْدَ عُلُوِّ الْقَدْرِ مُحْتَقَرًا<sup>(2)</sup>

### بين التأثر والتأثير

لا شك أن دراسة جوانب التأثر والتأثير بين شعر المشاركة وشعر الأندلسيين الذين ارتحلوا، من القضايا التي تحتاج لدقة وتتبع، لأن الباحث قد لا يستطع التمييز أحياناً بين الأثر المشرقي أو الأثر المغربي في الشعر، لأنهما قد يلتقيان في الكثير من المواطن، مما لا ينفي تميز كل منهما بسمات خاصة، تحتاج إلى حسّ عارف، ومثل هذه الدراسات لا تخلو من متعة، وتحتاج إلى استفادة وبحث قائم بذاته. بما لا يمكن لهذه الجزئية أن تلمّ بمعظم جوانبه، إلا أن مثل هذه الإشارات قد تفتح أبواباً لدراسات في الأدب المقارن بين المشرق والمغرب.

اختارت الباحثة بعض النماذج من شعر المشاركة، وأخرى من شعر الأندلسيين المرتحلين، لإبراز بعض جوانب التأثير المتبادل في الألفاظ والمعاني والصور. وسبقت ذلك دراسة للمطارحات والمساجلات والمعارضات الأدبية بين المشاركة والمرتحلين. ولا بد من الوقوف على تأثير المرتحلين بشعر المشاركة السابقين وتأثيرهم وتأثيرهم في شعر المشاركة المعاصرين.

### تأثر الشعراء المرتحلين بشعر المشاركة السابقين

قبل الوقوف على جوانب التأثر المعاصرة، لا بد من تتبع بعض جوانب التأثر بشعر المشاركة الموروث، وهو ما يعرف بالنزعة الاتباعية، وحتى لو لم يكن الأندلسيون المرتحلون مقلدين للمشاركة، فلسوف يتبعون هذا الشعر شأنهم شأن المشاركة في ذلك العصر، بالإضافة إلى أن المشاركة هم المثل الأعلى لهم، منذ القرون الأولى، كما أشار ابن

(1) مجمع الأمثال، 2/ 490. يضرب هذا المثل لمن كان لصاحبه على مودة ثم حال عن العهد.

(2) ملء العيبة، 3/ 47.



بسام في الذخيرة بقوله: «إن أهل هذا الأفق - الأندلس - أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة حتى لو نعى بتلك الآفاق غراب، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا إلى هذا صنم، وتلّوا ذلك كتاباً مُحْكَمًا»<sup>(1)</sup>.

فقد تأثر الشعراء الأندلسيون بشعراء سابقين من المشاركة، وأخذوا من صورهم ومعانيهم وألفاظهم، إذ كانوا يستحضرون أبياتهم ويحاكمونها، يقول ابن دحية واصفاً روضةً مقارناً جمالها بجمال قصيدة في الملك الكامل:

فما روضةٌ غنّاءَ مرّ بها الصّبا      بنشّر شذاها الطيّب النّشير ذائعُ  
له من شكير الدهر بُردٌ مُفوّفٌ      أتيح له من أرضٍ صنعاءَ صانعُ  
بأحسنَ من توشيحٍ مدحي الذي بهِ      بدائعُ من وُثي البديع رصائعُ<sup>(2)</sup>

وكأنه يستحضر قول الأعشى ميمون في وصف روضة مقارناً إياها بالمحوبة:

ما روضةٌ من رياضِ الحزنِ مُعشبةٌ      خضراءُ جادَ عليها مُسيلٌ هطلُ  
يضاحكُ الشمسِ منها كوكبٌ شَرِقُ      مؤرّرٌ بعميمِ النبتِ مُكتهلُ<sup>(3)</sup>  
يوماً بأطيبَ منها نشرَ رائحةٍ      ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأصلُ<sup>(4)</sup>

أما ابن حمدون فيقول:

فؤادٌ بأيدي النائبات مُصابُ      وجفنٌ لفيضِ الدّمعِ فيه مَصابُ  
تناءت ديارٌ قد ألفتُ وجيرةً      فهل لي إلى عهدِ الوصالِ إيابُ  
فلم تُلهِه دُنياهُ عن خوفِ ربِّه      ولا شغلتهُ عن رضاهُ كَعابُ

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1979، ج 1، ق 1، ص 12.

(2) عنوان الدراية، ص 277.

(3) كوكب شرق: يشبه النور بالكوكب لإشراقه وإضاءته، لسان العرب: مادة (كوكب) مكتهل: اكتهل النبتُ تم طوله، وظهر نوره، لسان العرب، مادة (كهل).

(4) ديوان الأعشى، شرح وتعليق محمد محمد حسين، المكتب الشرقي للنشر، بيروت 1968، ص 93.

مضى زماني والسَّيْبُ حَلَّ بِمَفْرِقِي وَأَبْعَدُ شَيْءٍ أَنْ يُرَدَّ شَبَابُ<sup>(1)</sup>

وهو ينهج في ذلك نهج أبي فراس في بائته المشهورة:

أما الجَمِيلُ عندكُنَّ ثَوَابُ      ولا لِلسَّيِّئِ عندكُنَّ مَتَابُ؟  
لقد ضَلَّ من تحوي هواه خريدةً      وقد ذلَّ من تقضي عليه كَعَابُ  
ولا تَمْلِكُ الحَسَناءُ قلبي كُلَّهُ      وإن شَمَلَتْها رِقَّةٌ وشَبَابُ<sup>(2)</sup>

يتبدى أثر غير مباشر لأبي تمام في شعر ابن سعيد، لا سيما في افتتاحيات قصائد أبي تمام من مثل قوله:

قَدْكَ اتَّبَعْتُ أَرْيَيْتَ فِي الْعَلَوَاءِ      كَمْ تَعْذِلُونَ وَأَنْتُمْ سُجْرَائِي<sup>(3)</sup>  
وقوله في الرثاء:

كذا فليجلَّ الخطبُ وليفدح الأمرُ      فليس لعينٍ لم يفض مأوها عذُرُ<sup>(4)</sup>  
وشبيه ذلك قول ابن سعيد في افتتاح قصيدة:

بالْعَدْلِ قُمْتَ وبالسَّماحِ فَلَنْ وَجُدَ      لا فارقَتَكَ كفايةً وعطاءً<sup>(5)</sup>  
وقوله في افتتاح قصيدة أخرى يمدح فيها الملك الناصر:

(1) النفح، 2/ 609-610.

(2) ديوان أبي فراس الحمداني، شرح وتقديم عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، 1986، ص13، 14.

(3) ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر، 1957، 1/ 20. اتَّبَعْتُ: استعج، اللسان: مادة: تَاب. الْعَلَوَاءِ: الزيادة ومجاوزة الحد، المعجم الوسيط، مادة: عَلَوُ. السُّجْرَاءُ: الأَخْلَاءُ والأَصْفِيَاءُ. لسان العرب: مادة: سَجَرَ.

(4) الديوان، 4/ 79.

(5) النفح، 2/ 263.

جُدِّي بِمَا أَلْقَى الْخِيَالُ مِنَ الْكَرَى      لَا بُدَّ لِلضَّيْفِ الْمِلْمِ مِنَ الْقِرَى<sup>(1)</sup>  
 كما ينثر ابن سعيد أبياتاً لأبي تام، يقول: «وقد ثنى المملوك عنان سيره، خوفاً من أن  
 يكونَ بشعره مفتوناً، فيتعصّب لنفسه أكثر من غيره»<sup>(2)</sup>. أما الأبيات المنشورة لأبي تمام فهي  
 قوله:

جاءتْكَ مِنْ نَظْمِ اللِّسَانِ قِلَادَةٌ      سَمَطَانِ فِيهَا اللَّوْلُؤُ الْمَكْنُونُ  
 أَحْذَاكَهَا صَنَعَ اللِّسَانُ يَمْدُهُ      جَفَرٌ إِذَا نَضَبَ الْكَلَامُ مَعِينُ<sup>(3)</sup>  
 وَيَسِيءُ بِالْإِحْسَانِ ظَنًّا لَا كَمَنَ      هُوَ بَابِنَه وَبِشَعْرِهِ مَفْتُونُ<sup>(4)</sup>

ويأخذ ابن سعيد من معنى لابن المعتز، إذ يقول من وصفه لغلام نائم تحت شجرة:  
 الرِّيحُ أَقْوَدُ مَا تَكُونُ فَإِنَّهَا      تُبْدي خَفَايا الرَّدْفِ والأَعْكَانِ<sup>(5)</sup>  
 أما ابن المعتز فيقول:

لَا تَلِقَ إِلَّا بَلِيلَ مَنْ تَوَاصَلُهُ      فَالْشَّمْسُ نِهَاْمَةٌ وَاللَّيْلُ قَوَادُ  
 كَمْ عَاشِقٍ وَظَلَامُ اللَّيْلِ يَسْتَرُهُ      لَا قَى أَحَبَّتُهُ وَالنَّاسُ رُقَادُ<sup>(6)</sup>

وهناك صدى في شعر ابن سعيد لشعر المتنبي، خاصة في العتاب، ولعل معظم  
 جوانب هذا التأثير برزت فيما كتبه لابن عمه وزير الحفصيين في تونس، وأشعاره في

(1) المغرب، 2/ 175.

(2) الرايات، ص 182.

(3) الجفر: البئر الواسعة الفم، وتدل على معنى الغزارة.

(4) ديوان أبي تمام بشرح التبريزي، 3/ 328، 331.

(5) الرايات، ص 174.

(6) ديوان ابن المعتز أبو العباس عبدالله بن محمد، تحقيق ودراسة محمد بدیع شریف، دار المعارف بمصر  
 1977، 1/ 342.

إشبيلية، وراثته للوزير أبي العلاء إدريس<sup>(1)</sup> بما لا يدخل ضمن هذه الدراسة لتعلقها بشعر المرتحلين في مصر والشام.

وضمن الشعراء المرتحلون قصائدهم أشطراً أو أبياتاً من أشعار المشاركة من ذلك قول ابن الجنان:

لله قومٌ يعشقون ذوي اللحى «لا يسألون عن السَّوادِ المُقبلِ»  
وبمهجتي قومٌ وإني منهم «جبلوا على حُبِّ الطَّرَازِ الأوَّلِ»<sup>(2)</sup>

وهو يضمن قول حسان بن ثابت في المدح:

بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابُهُمْ شُمُّ الأنوفِ من الطَّرَازِ الأوَّلِ  
يُغشَوْنَ حتى ماتَهُمُ كِلابُهُمْ لا يسألون عن السَّوادِ المُقبلِ<sup>(3)</sup>

ويضمن ابن حمدون في مدحه للرسول ﷺ بيتاً كاملاً من قصيدة أبي فراس البائية، هو:

«فليتَكَ تَحَلُّوْا والحياةُ مريرةٌ وليتَكَ تَرْضَى والأنامُ غضابُ»

### التأثر والتأثير بين الشعراء المرتحلين والشعراء المشاركة المعاصرين

أما بعض جوانب التأثير والتأثير بين الشعراء المرتحلين وشعراء العصر من المشاركة، فقد تبدت من خلال المشاركات الموضوعية والفنية في مجالسهم، والتي عكست المطارحات والمساجلات والمعارضات جوانب منها، وقد تداخلت الألفاظ والمعاني في الكثير من الأحيان، بحيث يصعب جعل بعضها سمة فاصلة مميزة لشعر المشاركة أو شعر المغاربة. وحملت بعض هذه المجالس آراءً وأحكاماً نقدية، وسهات فنية خاصة لشعر

(1) انظر النفح، 2/ 274، 278، 280.

(2) النفح، 2/ 123.

(3) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار صار ودار بيروت، بيروت، 1966، ص 180.

المشاركة وشعر المغاربة، ومقارنات بينهما من خلال ما دار بين شعرائهم، من ذلك ما وقع بين ابن سعيد والبهاء زهير، فحينما أنشد البهاء زهير قصيدته التي مطلعها:

رُويَدَكَ قَدْ أَفْنَيْتَ يَا بَيْنُ أَدْمُعِي      وَحَسْبُكَ قَدْ أَحْرَقْتَ يَا وَجْدُ أَضْلُعِي<sup>(1)</sup>

أعجبه انفعال ابن سعيد بها، وأورد رأيه لابن سعيد في شعر المغاربة بقوله: «واعلم أنك نشأت ببلاد ولع شعراؤها بالغوص على المعاني، وزهدوا في عذوبة الألفاظ، والتلاعب بمحاسن صياغتها المكسوة بأسرار الغرام»<sup>(2)</sup> وأوضح له أن طريقة المغاربة مثل قول ابن خفاجة:

وعشيَّ أنسٍ أضجعتني نشوة      فيه تُمَهِّدُ مَضْجَعِي وتُدمِثُ  
خَلَعْتُ عَلَيَّهَا الْأَرَاكَةَ ظِلَّهَا      والغصنُ يُصْغِي والحامُ يَحْدِثُ  
والشمسُ تَجْنَحُ للغروبِ مريضةً      والرعدُ يرقِي والحمامةُ تنفُثُ<sup>(3)</sup>  
وقول الرصافي<sup>(4)</sup>:

غُزِّيْلٌ لَمْ تَزَلْ فِي الْغَزْلِ جَائِلَةً      بِنَائِهِ جَوْلَانُ الْفَكْرِ فِي الْغَزْلِ  
جَذْلَانُ تَلْعَبُ بِالْمَحَاوِكِ أَمْلُهُ      عَلَى السَّدى لَعِبَ الْأَيَّامُ بِالْذُّوْلِ<sup>(5)</sup>

وهم في ذلك «لا يُشَقُّ غُبَارُهُمْ، ولا تُلْحَقُ آثَارُهُمْ» وأما مثل قول ابن المعلم الواسطي:

وَاسْتَقْبَلُوا الْوَادِي فَأَطْرَقَتِ الْمَهَا      وَتَحَيَّرَتْ بَغْصُونُهَا الْكُثْبَانُ

(1) ديوان البهاء، ص 195.

(2) الوافي، 14/ 233.

(3) ديوان ابن خفاجة، تحقيق: السيد مصطفى غازي، دار المعارف بمصر، 1960، ص 285.

(4) الرصافي: محمد بن غالب الرقاء أبو عبدالله، شاعر وقته في الأندلس، أصله من رصافة بلنسية، كان يرفأ الثياب ترفعاً عن التكسب بشعره، أقام مدة بغرناطة، سكن مالقة وتوفي بها سنة 572 هـ. انظر: وفيات الأعيان، 4/ 432-433.

(5) ديوان الرصافي أبو عبدالله محمد بن غالب، جمعه وقدم له د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط 1، 1960، ص 122.

فَكَأَنَّمَا اعْتَرَفْتَ لَهُمْ بِقُدُودِهَا الْأَغْصَانُ أَوْ بَعِيُونَهَا الْغَزْلَانُ<sup>(1)</sup>  
وقول سبط ابن التعاويذي:

إِنْ قُلْتُ جُرْتُ عَلَى ضَعْفِي يَقُولُ مَتَى      كَانَ الْمُحِبُّ مِنَ الْمَحْبُوبِ مُتَصِفَا  
أَوْ قُلْتُ أَتَلَفْتَ رَوْحِي قَالَ لَا عَجَبٌ      مِنْ ذَا قَى طَعَمِ الْهَوَى يَوْمًا وَمَا تَلَفَا  
مَا قُلْتُمُ الْغَصْنَ مَيَّالًا وَمَنْعَطِفٌ      فَكَيْفَ مَالٌ عَلَى ضَعْفِي وَمَا عَطَفَا<sup>(2)</sup>  
«فطراز لا يَلُمُّ به أَهْلُ بِلَادِكُمْ»<sup>(3)</sup> أَيِ الْمَغَارِبَةِ.

إِذَنْ يَرَى الْبِهَاءُ أَنَّ الْأَنْدَلُسِيِّينَ أَجْهَدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الْغَوْصِ عَلَى الْمَعَانِي عَلَى حِسَابِ  
الْأَلْفَاظِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَكْسُوءَةً بِالْعَذُوبَةِ وَالتَّلَاعِبِ بِمَحَاسِنِهَا، وَلَمْ يَذْمُ طَرِيقَتَهُمْ، لَكِنَّهُ فَضَّلَ  
أَشْعَارَ الْمَشَارِقَةِ عَلَى أَشْعَارِهِمْ لِنَفْثَتِهَا سِحْرَ اللَّفْظِ وَعَذُوبَتِهِ. وَيُرَدُّ عَلَيْهِ ابْنُ سَعِيدٍ بِإِيرَادِ  
أَبْيَاتٍ مِنْ شَعْرِ ابْنِ زَيْدُونَ، فَيُثْنِي عَلَيْهِ الْبِهَاءُ بِصَدَقِ الْعَشْقِ، ثُمَّ يَطْلُبُ الْبِهَاءُ مِنْ ابْنِ  
سَعِيدٍ حِفْظَ أَشْعَارِ التَّلَعُّفَرِيِّ حَتَّى تَسْتَقِيمَ لَهُ طَرِيقَةُ الْمَشَارِقَةِ، وَيُخْتَبِرُهُ بَعْدَ فِتْرَةٍ بِأَنْ يَطْلُبَ  
مِنْهُ إِجَازَةَ شَطْرٍ، لِيَتَبَيَّنَ مَدَى قُدْرَتِهِ فِي تَقْلِيدِ طَرِيقَةِ الْمَشَارِقَةِ وَالشَّطْرِ هُوَ:

يَا بَانَ وَادِي الْأَجْرُعِ

فِي جِيزِ ابْنِ سَعِيدٍ:

سُقِيتَ سُحْبَ الْأَدْمُعِ

فَيُرَدُّ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ قَدْ قَارَبَ طَرِيقَةَ الْمَشَارِقَةِ، لَكِنْ طَرِيقَتَهُمْ أَنَّ يَقُولَ:

هَلْ مِلْتَ مِنْ شَوْقٍ مَعِي

فَيَقْرَهُ ابْنُ سَعِيدٍ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «الْحَقُّ مَا عَلَيْهِ غَطَاءٌ». حَتَّى يَنْشُدَهُ ابْنُ سَعِيدٍ قَوْلَهُ:

(1) الوافي، 14/233، 234.

(2) ديوان سبط ابن التعاويذي، نسخ وتصحيح د. س. مرجليوث، مطبعة المقتطف، مصر 1903، ص 292.

(3) الوافي، 14/234.

واطـوّل شـوقـي إلى ثـغـورٍ      مـلأى مـن الشـهـد والرّـحـيقِ  
عـنـها أـخـذتُ الـذي تـراهِ      يـعـذّبُ في شـعـري الرّـقـيقِ  
فـيرتـاح البهـاء لـذلك ويـقـول: «سـلـكتُ جـادّة الطـريق، ما تـحـتـاج إلى دليـل»<sup>(1)</sup>.

إذن يرتاح المغاربة إن استطاعوا الاقتراب من طريق المشاركة، لكن ذلك لا ينفي أن لهم طريقتهم الخاصة، التي لا تخلو من تأثير مشرقى، ولعلنا وقفنا على بعض سمات طريقتهم في صورتهم وما فيه من إعمال فكر، وإجهد في بناء الصور الشعرية واستحضار المعاني.

ولعل المشاركة حاولوا تقليد طريقة المغاربة كذلك، من خلال المطارحات، من ذلك ما يقوله النور الأسعدي في وصف إحدى الجنان في الشام وقد كان معه ابن سعيد:

رَوْضٌ ونَهْرٌ وظِلٌّ وارِفٌ وشَذَا      زَهْرٌ وألحانٌ طيرٌ فيه تصطخبُ  
كأنهنَّ بدورٌ نستنيرُ بها      لنا غصونٌ زَهَتْ من تحتها كُثْبُ<sup>(2)</sup>

فأين هذا من وصف ابن سعيد للروض المطروز بألوان شتى، والطيور تغرّد على الأغصان في صورة بديعة مركبة<sup>(3)</sup>.

ولعل ابن عز القضاة قد تأثر بصور المغاربة للطبيعة وهو يصف جنة على نهر بردى لابن سعيد، ويرسم من خلال ذلك صورة مركبة تقارب صور المغاربة، فالنهر حاك حلة من الدّوح، والرياح يطوي على السمك لينشره، ويطوّق الورق، يقول:

فالنَّهْرُ قد حاك له حُلَّةً      من صبغة الدّوح بها يرتدي  
وقد طوى الرّيح على المسك كي      يفوح منها نشرها في غدٍ  
وطوّق الورق بإحسانه      ولثّم الشحرورَ بالعسجد<sup>(4)</sup>

(1) انظر: الحادثة والأبيات في الوافي، 14/ 234-235.

(2) المقتطف، ص 157.

(3) انظر: الدراسة، ص 143-144.

(4) المقتطف، ص 158.

لكن صور المغاربة أشد حُباً، وهم أقدر على بناء الصورة الشعرية الطويلة الأكثر تكاملاً.

ونجد معاني بعينها في بعض صور المشاركة والمغاربة، فحينما كتب النور الأسعدي إلى ابن سعيد أورد بعض معاني في صور ابن سعيد حينما خاطبه قائلاً:

أَتَصَبَّرُ عَنْ أَرْضٍ يَنُوحُ هَامُهَا      غَرَاماً وَتَحْتَالُ الْغُصُونُ مِنَ السُّكْرِ  
يَمُرُّ اخْتِلَاساً فِي رُبَاهَا نَسِيمُهَا      فَأَحْسِبُهُ مِنْ رَوْضِهَا سَارِقَ النَّشْرِ  
وَقَدْ أَلْبَسَتْهُ الرِّيحُ مُحْكَمَ سَرْدِهَا      وَأَلْقَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ دِرْعاً مِنَ التَّيْرِ  
لَدَى عَذْبِ الْأَغْصَانِ فَوْقَ فَوَارِسِ الْحَمَامِ وَمَوْجِ النَّهْرِ كَالْجَحْفَلِ الْمَجْرِ<sup>(1)</sup>

فهذه المعاني وردت عند ابن سعيد في حديثه عن نوح الحمام وتغنيه، واختيال الغصون وميل الخمائل وإلقاء الشمس رداءها الذهبي<sup>(2)</sup>. وليس الربط غريباً في البيت الأخير بين شعر الطبيعة والحرب، فهي ظاهرة مشتركة بين المشاركة والمغاربة لتشابه الظروف السياسية، وقد تبيّناها عند المغاربة في الصورة الشعرية.

ويورد أيدمر التركي في وصفه للجزيرة الصالحية وبركة الحبش، ما كان قد أورده ابن سعيد فيهما، يقول:

وَالصَّالِحِيَّةُ حَيْثُ النَّهْرُ عَانَقَهَا      كَمْ قَدْ قَطَعْنَاهُ مِنْ جِدٍّ وَمِنْ لَعِبِ  
وَبَرَكَةُ الْفَيْلِ لَا تُنْسَى لِيَالِيهَا      وَالشَّمْعُ فِيهَا يَضَاهِي زِينَةَ الشُّهُبِ<sup>(3)</sup>

وهو ترداد لوصف ابن سعيد بشوق النهر ومعانقته للجزيرة الصالحية، وتجدد الشوق لبركة الحبش ولياليها<sup>(4)</sup>.

(1) المقتطف، ص 160.

(2) انظر: الرايات، ص 174-176. المغرب، 2/ 176. النفح، 2/ 326.

(3) المقتطف، ص 162.

(4) انظر: النفح، 2/ 269-270، الدراسة.



وقد نجد تشابهاً في ألفاظ بض الأبيات عند المشاركة والمغاربة، يقول ابن عز  
القضاة:

صَلِّ وَوَاصِلْ مُسْرِعاً مُنْعِماً فَكَأْسُ كُلِّ وَاقِفٍ بِالْيَدِ<sup>(1)</sup>  
ويشابه في ذلك بيتاً لضياء الدين الخزرجي إذ يقول:

وَصَلِّ وَصَلِّ وَوَاصِلْ كُلُّ آوِنَةٍ عَلَى النَّبِيِّ سَلاماً طَيِّباً عَطِراً<sup>(2)</sup>  
لا نستطيع أن نجزم هنا من تأثر بالآخر، فالشاعران تعاصرا، وكانت وفاتها  
مقاربة، إذ توفي الأسعُردى سنة (689هـ)، وضياء الدين سنة (684هـ).

ومن خلال المعارضات بين المشاركة والمغاربة، تتضح منزلة خاصة لقصيدة كعب  
بن زهير في مدح الرسول ﷺ عند الأندلسيين، وقد أكدها أبو جعفر الإلبيري<sup>(3)</sup> بقوله:  
«وهذه القصيدة لها الشرف الراسخ، والحكم الذي لم يوجد له ناسخ، أنشده كعب في  
مسجده ﷺ بحضرته وحضرة أصحابه، وتوسل بها فوصل إلى العفو عن عقابه...  
ولولاها لُمُنِعَ المدح والغزل، وقُطِعَ من أخذِ الجوائز على الشعراء الأمل، فهي حُجَّةُ  
الشعراء فيما سلكوه، وملاكُ أمرهم فيما مَلَكُوهُ»<sup>(4)</sup>.

ولعل الاحتفال بالمولد النبوي، والتغني بمآثر الرسول ﷺ بصورة كبيرة في الشعر  
الأندلسي، جاء رد فعل لاحتفال النصارى بعيد ميلاد السيد المسيح ﷺ فبدل أن يقلد  
المسلمون النصارى في ذلك فالأولى بهم الاحتفال بمولد نبيهم ﷺ، والسؤال عنه،

(1) المقتطف، ص 158.

(2) ملء العيبة، 3/ 48.

(3) أبو جعفر الإلبيري: أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الغرناطي الإلبيري، رفيق ابن جابر الأعمى،  
وهما المشهوران بالأعمى والبصير ولد بعد سنة 710هـ، رحل مع صاحبه ابن جابر إلى القاهرة  
ودمشق، كان مجيداً في النظم والنثر، توفي سنة 779هـ. انظر: بغية الوعاة، 1/ 403. النجوم  
الزاهرة، 11/ 189.

(4) عبدالحكي الكتاني: نظام الحكومة النبوية المسمى «التراتب الإدارية» دار إحياء التراث، بيروت -  
لبنان (دون تاريخ، 1/ 213-214).

وذلك ما جاء في مخطوطة الدر المنظم للعزفي السبتي، التي نشرها فرناندو في مجلة الأندلس الإسبانية، يقول العزفي: «أي بدعة أفحش وأسمج من أن يكون المسلمون يحتفون ويستعدون لدخول شهر أو سنة من شهور العجم وهم أعداؤنا، وإنما عاديناهم على كفرهم بالله... فأأي مودة تكون أبين من تعظيم أعيادهم، وأي ولاية تكون أعظم من التشبه بهم والتفخيم لأمرهم، والمشاركة لهم في ضلالهم وكفرهم، يا لها من مصيبة ما أجملها...، ومما فتن الناس فيه السؤال عن مولد عيسى عليه السلام فكثيراً ما يتساءلون عنه، أو ليس كانوا بميلاد نبينا محمد عليه السلام أولى»<sup>(1)</sup> فجاءت الدعوة للاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ليشغل المسلمين عن هذه البدعة، ويجدون ذلك عوضاً لهم، يقول: «فأمعنتُ النظر، وأعملتُ الفكرَ فيما يشغلُ عن هذه البدع، ويدفع في صدر هذا المنكر، ولو بأمر مباح ليس على فاعله جُناح... فألهمني الله - سبحانه - أن أبهّهم على أمر إذا تقرر لديهم، قامت الحجة عليهم، ديناً ودنيا، وانقطع العذرُ إذا تعوّضوا منه أحسن عَوْض... فنبهتهمُ على ميلاد نبيهم المصطفى سيد ولد آدم...»<sup>(2)</sup>.

ومن المعارضات الأخرى، معارضة ضياء الدين الخزرجي لمُسَمِّط الحريري في المقامات، ويعكس هذا مكانة خاصة للمقامات في الأدب الأندلسي، وقد أشار الكلاعي إلى ذلك عند حديثه عن مقامات الهمذاني، منبهاً على ما فيها من الإبداع والإحسان، وعلى تميزها بالجودة والفخامة<sup>(3)</sup>. أما مقامات الحريري فقد كان اهتمام الأندلسيين بها أشد، للصلة بينهم وبين الحريري، وسماهم لها وتدارسهم إياها<sup>(4)</sup> ومن أشهر شراحها أبو العباس الشَّريشي (ت 619 هـ)<sup>(5)</sup> ومن شراحها أيضاً محمد بن عبدالله بن ميمون بن

(1) الدر المنظم في مولد النبي المعظم، ص 28-29.

(2) المصدر السابق، ص 32.

(3) إحكام صناعة الكلام، ص 198.

(4) تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، ص 303.

(5) للشريشي ثلاثة شروح على المقامات: شرح الإيضاح، وشرح عروض الشعر وعلل القوافي، وشرح الجمل، مات بشريش سنة 619 هـ. بغية الوعاة، 1/ 331.

إدريس العبدري القرطبي (-ت 567هـ) <sup>(1)</sup> ومحمد بن أحمد بن سليمان المالقي (ت - 617هـ) <sup>(2)</sup>.

وقد كان للأندلسيين تأثير في بيئتهم الجديدة في المشرق، أوردنا بعضها بصورة غير مباشرة، ولعل أخص تلك التأثيرات ما يتعلق بابتكار الموشحات والأزجال، ومدى تأثيرها وتأثيرها في المجتمع المشرقي. فقد حمل الأندلسيون المرحلون هذه الفنون الجديدة التي كان لها صدى في المشرق، وطوروا فيها آخذين من بيئة المشرق، فقدموا البناء الفني الأندلسي، ممتزجاً بتأثيرات المشرق ومعطياته الاجتماعية، فتكون لون خاص من الأدب يحمل صورة جديدة من التعبير والتأثير.

فالموشحات فن أندلسي نقله المغاربة حينما كانوا يرحلون لأداء فريضة الحج، ولقاء علماء المشاركة، فعرفوهم بوطنه وفنونه وآدابه، وذلك ما يبينه ابن خلدون في سبق الأندلسيين وأوليتهم في استحداث هذا الفن، يقول: «وأما أهل الأندلس، فلما كثر الشعر في قطرهم، وتهدّبت مناحيه وفنونه، وبلغ التّميُّق فيه الغاية، واستحدث المتأخرون منهم فناً سموه بالموشح، ينظمونه أسباطاً أسباطاً، وأغصاناً أغصاناً» <sup>(3)</sup>. وقد نظم المشاركة الموشحات، وأشهر من نظمها من شعرائهم ابن سناء الملك، وشهاب الدين التلعفري، وابن العفيف التلمساني، ووصف ابن سعيد هذه الموشحات بالتكلف والمعاناة في الصنع، لكنه أثنى على ابن سناء الملك في موشحته المشهورة.

حبيبي ارفع حجاب النور      عن العذر نذار  
يقطّر بمسك على كافور      في جُذُنْنا <sup>(4)</sup>

(1) بغية الوعاة، 1/ 147.

(2) المصدر السابق، 1/ 25، 26.

(3) تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1961، 1/ 1137.

(4) تاريخ ابن خلدون، 1/ 1153.

وبيين ابن سعيد اختصاص المغاربة بهذا الفن، وإبداعهم في بنائه، في حين يرى أنهم لا يحسنون فن الدُّوييت<sup>(1)</sup> لاختصاصه بالمشاركة، حينما أنشد دوبيت للملك الناصر، وعلق بأن هذا الطراز لا تحسنه المغاربة كما أن المشاركة لا تحسن الموشحات والأزجال كما يحسنها المغاربة. فهم يرون أن لهم السَّبق في هذا الفن، متفاخرين به على المشاركة، واصفين موشحاتهم وأزجالهم بالتكلف<sup>(2)</sup>. وقد تكون المعارضات لموشحات المشاركة من قبيل إثبات تقدم المغاربة في هذا الفن، من ذلك معارضة أثير الدين لابن العفيف التلمساني التي أشير إليها عند الحديث عن المعارضات.

ولعل من الجديد في فن الموشحات، وتميز الأندلسيين بخاصية متفردة فيه، استخدام محيي الدين ابن عربي التوشيح في شعر التصوف كما في موشحته التي مطلعها:

سرايُ الأعيانُ	لاحت على الأكوانُ	لنظايرِ
والعاشقُ الغيرانُ	من ذاك في بحرانُ	يُيدي الأنينُ
يقولُ والوجدُ	أنه والبعْدُ	قد حيرَ
لما دنا البعدُ	لم أدر من بعدُ	من غيرة
وهيِّم العبدُ	والواحدُ الفردُ	قد خيرة <sup>(3)</sup>

كما ينسب للششتري دور لا يقل أهمية عن دور محيي الدين، وهو تطوير البناء الفني للموشحات، والتوسع في استعمالها<sup>(4)</sup>، من ذلك موشحته التي بعثها من القاهرة إلى شيخه ابن سبعين في مكة، مطلعها:

- 
- (1) الدوبيت: وحدة شعرية ذات أربعة مصاريع، يراعى في الأول والثالث منها على الأقل قافية واحدة، وكأن كل رباعية عمل فني مستقل، على شكل قصيدة مصغرة. انظر: د. كامل مصطفى الشبيبي، ديوان الدوبيت في الشعر العربي، دار الثقافة، بيروت 1972، ص 578.
- (2) المقتطف، ص 228، 262.
- (3) ديوان ابن عربي، ص 85.
- (4) سليمان العطار: الخيال والشعر في تصوف الأندلس، دار المعارف، مصر، ط 1، 1981، ص 321.

قُلْ لِلَّذِي مَلَكَني مُلْكُهُ      وَغَبَّطَ الْجِسْمَ بالسَّقامِ  
لولا استوى قربي منك وبُعدي      قد كان متُّ قبل الغرامِ  
يا من سرى سَرواً في طباعي      أنت القريبُ مني البعيدُ  
ومن أعجب الأشياءِ وأنت معي      وعشقي فيك كل يوم يزيدُ  
وأنا بتهتكِّي وانطباعي      غرامي فيك دائماً جديداً<sup>(1)</sup>

وتتميز موشحات الشُّشْثري عن موشحات ابن عربي، بالتدفق العاطفي والوجداني والميل للسهولة والبساطة في الألفاظ والمعاني، حتى لتقترب من اللغة الدارجة، وفيها الانسياب الموسيقي المتدفق عن طريق استخدامه للأوزان المجزوءة، والألفاظ الموسيقية الموحية<sup>(2)</sup>، من ذل قوله:

كُلِّمَا قَلْتُ بِقُرْبِي      تَنْطَفِي نيرانُ قلبي  
زادني الوصلُ هَيْباً      هكذا حالُ المُحِبِّ  
لا بوصلي أنسلي      لا ولا بالهجر أنسى  
ليس للعشقي دواءٌ      فاحتسب عقلاً ونَفْساً  
إنني أسلمتُ أمري      في الهوى معنى وجسّاً  
ما بقي إلا التَّفاني      حبّاً في الحُبِّ نَجْبي  
إنني بالموتِ راضٍ      هكذا حالُ المُحِبِّ<sup>(3)</sup>

كما استحدث الأندلسيون الأزجال التي نسجوها على منوال الموشحات لكن باللهجة العامية الدارجة. ونسجوها على البحور الخمسة عشرة<sup>(4)</sup>، ومما تميز به الأندلسيون في هذا

(1) ديوان الشُّشْثري، ص 229.

(2) فوزي عيسى: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، الهيئة المصرية للكتاب، الإسكندرية، ط 1، 1979، ص 549.

(3) ديوان الشُّشْثري، ص 360.

(4) تاريخ ابن خلدون، 1/ 1157.

هذا الفن، استخدام محيي الدين ومن بعده الشُّشْتُري الأزجال في نظم الأدوار والأناشيد الصوفية<sup>(1)</sup> لكن الشُّشْتُري توسع في نظمها بعد وقوعه على قلة الأزجال، وعدم تكرار هذه الظاهرة لدى محيي الدين ابن عربي<sup>(2)</sup>.

تنقل الشُّشْتُري بين المغرب وطرابلس ومصر والشام، وحينما نزل القاهرة، اعتكف بجوار الأزهر مدة من الزمن، واصفاً حاله في زجله الذي يقول فيه:

ما نَجِدُ خَلِيعاً مِثْلِي      حَرَقْتُهُ الْكَاسَاتُ وَالْأَذْنَانُ  
مَعْتَكِفٌ فِي جَامِعِ أَزْهَرُ      تُخْتَلِي فِي شِقِّ تَعْبَانُ  
وَبَقِيَتْ عَاشِقٌ مُهَتِّكُ      نَنْظُمُ الزَّجَلَ وَالْأَوْزَانُ<sup>(3)</sup>

وتبدو أزجاله في مصر مشرقية بحتة، تأخذ بعض الألفاظ المصرية، وتقرب من صورة الموشح وتختفي منها الألفاظ العامية، يقول:

كَيْفَ يَسْلُو مَنْ قَدْ بُلِيَ      عَنْ هَوَاهُ أَوْ يَغْفُلُ  
أَشْغَفَ الْقَلْبَ حُبُّهُ      يَا أَهْلَ وَدَيِ وَيْنَ الْعَيْشِ لِي<sup>(4)</sup>

فكلمة «وين» كلمة عربية بدوية تنطق في صحراء مصر في ذلك الوقت<sup>(5)</sup>.

وحينما ينتقل الشُّشْتُري إلى الشام، يطلق أزجاله في أسلوب شامي، من أمثلة ذلك قوله:

مُدَامَ تَحْيِي النَّفْسَ      وَمَنْ شَرِبَ مِنْهَا سَكِرَ

(1) سليم الحلو، الموشحات الأندلسية، نشأتها وتطورها، قدم له إحسان عباس، مكتبة الحياة، بيروت، 1965، ص 77.

(2) الخيال والشعر، ص 321.

(3) الديوان، ص 314.

(4) المصدر السابق، ص 366.

(5) علي سامي النشار، أبو الحسن الشُّشْتُري، مجلة المعهد المصري، مدريد 1953، العدد الأول، السنة الأولى، ص 153.

قد انجلت لي كالعروس      ورأيتُ شمساً وقَمَرُ  
بألك تَكُنْ بُويح أخِي      وامسِك السرَّ العجيبُ  
كي ينكشف لك الغطا      حتى تشهد للحيب  
منك وفيك هـ كُلُّ شَيْءٍ      إن كنتَ فاهِمٌ أو لبيب<sup>(1)</sup>

«فبالك» بمعنى إياك، شامية صرفة، و«بُويح»، بمعنى بواح، لا تستخدم في المغرب ويستخدمها أعراب بادية الشام<sup>(2)</sup>.

لقد أحسن الشُّثري استخدام اللهجات المختلفة في أزجاله، فكان أندلسياً في الأندلس، ومراكشياً في مراكش، ومصرياً في مصر، وشامياً في الشام، مما جعل أزجاله تعبر بصدق إلى نفوس الناس، ويرددونها إلى يومنا هذا، خاصة في حضرات شاذلية مصر، وشاذلية دمياط خاصة، يتوارثون إنشاد أشعاره وأزجاله جيلاً بعد جيل، وما زال الشُّثري أحب الشعراء إلى نفس أهل الشام، ينشدون موشحاته وأزجاله خلال شهر رمضان في ليلة القدر<sup>(3)</sup>.

هذه بعض جوانب التأثير والتأثير بين شعراء المشارقة وشعراء المغاربة، التي تمتد وتشعب، بما لا يمكن لهذه الجزئية أن تُلمَّ بمعظم جوانبها، لأن الباحث ما إن يقف على جزئية فيها إلا وتَفْتَحُ عليه أبواباً جديدة متداخلة، مما يجعلها تتطلب دراسة مستقلة، تستقصي هذه الأجزاء بدقة وتتبع.

(1) الديوان، ص 139-140.

(2) أبو الحسن الشُّثري الصوفي الأندلسي، مجلة المعهد المصري، ص 155.

(3) المرجع السابق، ص 156، 134.

## الخاتمة

حاولت هذه الدراسة أن تقدم تصوراً واضحاً عن أحوال الشعراء النازحين في البيئة الجديدة في مصر والشام، من خلال تتبع تراجعهم وأشعارهم التي قالوها فيها، وتتبع أثر الارتحال بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

وقد توصلت الدراسة إلى نتائج من أهمها ما يلي:

- تميز دور الأندلسيين وفاعليتهم في المجتمع الجديد في مصر والشام في مناحي الحياة ومشاركتهم في الحياة الاقتصادية والعلمية والفكرية والأدبية.
- تقوم علاقة الشعراء المرتحلين مع السلاطين وكبار رجال الدولة من المشاركة في معظمها، على التكسب وطلب الانضواء والحماية، ولعل الظروف التي عاشوها وما فيها من ضنك ومشقة أدت إلى توجيه علاقاتهم وشعرهم السياسي هذه الوجهة.
- بروز أثر الغربة في نفوس الشعراء منه خلال شعرهم، وجعلها مبرراً لكل ما يلاقونه من مصاعب في ديار غربتهم، وتأثيرها في التعصب لأندلسيتهم بصورة واضحة.
- المفارقة بين آراء الشعراء المرتحلين في مصر وآرائهم في الشام، وعدم خلو الآراء تجاه مصر من التحامل والتجاوز أحياناً، على قلة المادة الشعرية التي تتحدث عن الشام وتصف مدنها إذا ما قورنت بوصف الرحالة الأندلسيين لها، وإشادته بها وبأهلها، وبحب الأندلسيين لها وتعلقهم بها.
- التفاعل بين الشعراء الأندلسيين والشعراء المشاركة في مجالسهم ومطارحاتهم ومساجلاتهم ومعارضاتهم، والتي كشفت عن آراء نقدية لكلا الطرفين في شعر



الآخر، كان بعضها يقوم على المجاملة والارتجال، وبينت تأثير الشعراء المرتحلين بشعر المشاركة، وتأثيرهم في إدخال فنون وأغراض وأساليب جديدة.

- استطاعت ألفاظ الشعراء وصورهم معانيهم أن تحمل رؤية واضحة إلى حد ما عن أوضاعهم ونفسياتهم وارتباطهم بذوق عصرهم، وإعطاء الشعر في المشرق صبغة خاصة. كما تميزت صورهم بإعمال الفكر في بنائها، وقدرتهم على البناء الأكثر تكاملاً دقة وتفصيلاً، وتفوقهم في ذلك على المشاركة.

- كشفت الدراسة عن تراجم لشعراء مرتحلين وبعض أشعارهم من بعض المصادر المخطوطة، لم توردتها المصادر المطبوعة، مما يؤكد وجود مادة كثيرة تحتاج إلى بحث وتقصّ، وتحقيق المخطوط من هذه المصادر التي تحوي مثل تلك المادة الشعرية الغنية.

## المصادر والمراجع

### المصادر المخطوطة

1. الإربلي، محاسن دمشق وحماماتها ومدارسها (ميكرو فيلم)، رقم الشريط، 6692، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق.
2. سجل، سجلات المحاكم الشرعية بالقدس (ميكرو فيلم)، رقم السجل 95، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.
3. ابن الشعار الموصلي، المبارك بن أحمد الموصلي، عقود الجمان في شعراء هذا الزمان (مخطوط)، ج 1، ج 9، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.
4. ابن الشعار الموصلي، المبارك بن أحمد، عقود الجمان في شعراء هذا الزمان (مخطوط)، ج 4، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت - ألمانيا الاتحادية.
5. ابن الشعار الموصلي، المبارك بن أحمد، عقود الجمان في شعراء هذا الزمان (ميكرو فيلم)، رقم الشريط 1855، الأجزاء 5، 6، 7، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.
6. ابن الشعار الموصلي، المبارك بن أحمد، عقود الجمان في شعراء هذا الزمان (ميكرو فيلم)، رقم الشريط 1045، ج 10، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.
7. ابن عبدالسلام، عز الدين أبو محمد، ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام (ميكرو فيلم)، رقم الشريط 4605، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق.
8. ابن عربي، محمد بن علي محيي الدين، ديوان ابن عربي الكبير (مخطوط)، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.

9. علم الدين القاسم بن أحمد المالقي، قصيدة من نظم علم الدين المالقي، مجاميع مخطوط (ميكرو فيلم) رقم الشريط 3818، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق.
10. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ميكرو فيلم) رقم الشريط 1529، الأجزاء 8، 11، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.
11. محفوظات، محفوظات رئاسة الوزراء باسطنبول، طابو دفترى القدس (ميكرو فيلم) رقم الشريط 342، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.
12. المقرئ، أحمد بن محمد التلمساني، فتح التُّعال في مدح النُّعال (ميكرو فيلم) مصور عن بيتي، رقم الشريط 3113، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.

#### المصادر والمراجع المطبوعة

1. القرآن الكريم.
2. ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي، إعتاب الكتاب، ط1، حققه وعلّق عليه: د. صالح الأشر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1961.
3. ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي، تحفة القادم، ط1، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
4. ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي، التكملة لكتاب الصلة، عُنِي بنشره عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1956.
5. ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي، الحُلة السِّراء، ط1، تحقيق د. حسن مؤنس، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، 1963.
6. ابتسام مرعي خلف الله، العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، 1985.
7. إبراهيم أنيس، المعجم الوسيط، دار المعارف، مصر، 1973.
8. ابن الأثير، ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ط2، تقديم وتعليق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، 1973.
9. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن عبدالواحد، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبدالقادر طليحات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1963.

10. ابن الأثر، مجد الدين أبو السعادات مبارك بن محمد الجزري، جامع الأصول في أحاديث الرسول، ط2، تحقيق عبدالقادر أرناؤوط، دار الفكر، بيروت، 1983.
11. د. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط5، 1978.
12. د. إحسان عباس، (رحلة ابن عربي كما صوّرها قانون التأويل)، مجلة أبحاث، السنة 21، العدد (2-4)، 1968.
13. أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، من الفتح حتى الخلافة، دمشق 1969.
14. أحمد صادق سعيد، (مصر في عهد الأيوبيين والمماليك)، مجلة دراسات عربية، السنة 15، العدد 6، 1979.
15. أحمد فكري، قرطبة في العصر الإسلامي تاريخ وحضارة، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.
16. الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق، مطبعة بريل، ليدن، 1968.
17. الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من نزهة المشتاق، تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
18. أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مراجعة: محمد شفيق، مكتبة النهضة، القاهرة، 1960.
19. أسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر، ط1، تحقيق: علي عبد مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.
20. آسين بلاثيوس، ابن عربي حياته ومذهبه، ترجمه عن الإسبانية: عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ودار القلم، لبنان، 1979.
21. أشباخ، يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ط2، ترجمه ووضع حواشيه: محمد عبدالله عنان، مؤسسة الخانجي، القاهرة، 1958.
22. الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد، المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبدالعال، مراجعة: محمد شفيق غربال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1961.

23. ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، 1965.
24. أطلس التاريخ الإسلامي، صنفه: هاري وهازاد، رسم خرائطه سميلي وكوك، ترجمه وحققه: إبراهيم خورشيد، مطبوعات جامعة برستون، 1954.
25. الأعشى ميمون، ديوان الأعشى، شرح وتعليق: محمد محمد حسين، المكتب الشرقي للنشر، بيروت، 1968.
26. أكرم حسن العلبي، التقييم، ط 1، مؤسسة المصادر، بيروت، 1991.
27. البدرى، أبو البقاء عبدالله بن محمد، نزهة الأنام في محاسن الشام، المكتبة العربية، بغداد، 1341هـ.
28. ابن بسّام، أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1979.
29. ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي، رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، ط 4، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985.
30. البكري، أبو عبيد البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، ط 1، تحقيق: عبدالرحمن الحججي، دار الإرشاد، بيروت، 1968.
31. البلوي، خالد بن عيسى، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق وتقديم: الحسن بن محمد السائح، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب.
32. بنيامين التّطيلي، رحلة بنيامين التّطيلي، قدم لها: عزرا حداد، بغداد، 1945.
33. البهاء زهير، ديوان البهاء زهير، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1964.
34. البهائي، علاء الدين علي بن عبدالله، مطالع البدور في منازل السرور، ط 1، مطبعة دار الوطن، القاهرة، 1299هـ.
35. التّجيبى، القاسم بن يوسف السبتي، مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق: عبدالحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس، 1957.

36. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَة، سنن الترمذي، ط 1، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987.
37. ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، القاهرة، 1942.
38. أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر، 1957.
39. التُّنْبُكُتِي، أبو العباس أحمد بن أحمد، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عباس بن عبد السلام بن شقرون، القاهرة، 1351 هـ. والكتاب ذيل لكتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون.
40. ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1959.
41. ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر قزاوغلي، الشهير بسبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط 1، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية بحيدر آباد، الدكن، الهند، 1950.
42. الحبيب الحنجاني، (السياسة المالية للدولة المرابطية)، الملتقى الرابع الإسباني التونسي، مدريد، 1983.
43. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1966.
44. حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1966.
45. حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1967.
46. الحميري، محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط 2، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1984.
47. الحنبلي، أبو اليمن القاضي مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان - الأردن، 1973.

48. ابن الحواري، عثمان بن أحمد، الإشارات إلى أماكن الزيارات، تحقيق: بسام الجابي، مكتبة الغزالي، دمشق، 1981.
49. أبو حيان، محمد بن يوسف أثير الدين، ديوان أبي حيان الأندلسي، ط1، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، 1969.
50. ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله، الإحاطة في أخبار غرناطة، ط1، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1974.
51. ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله، تاريخ إسبانيا الإسلامية المسمى (أعمال الأعلام)، تحقيق ليفي برفنسال، دار المكشوف، بيروت، ط2، 1956.
52. ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله، الكتيبة الكامنة، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1963.
53. ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله، اللوحة البدرية في الدولة النصرية، ط2، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1978.
54. ابن خفاجة، ديوان ابن خفاجة، تحقيق: السيد مصطفى غازي، دار المعارف بمصر، 1960.
55. ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد الحضرمي، تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1961.
56. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلّكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1978 م.
57. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت
58. الذهبي، الحافظ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد، العبر في خبر من غبر، ط1، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1985 م.
59. ابن رُشيد الفهري السبّتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة، في الوجهة الوجيهة إلى مكة وطيبة، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1981.

60. الرُّصافي، محمد بن غالب الرِّقَاء، ديوان الرصافي، ط 1، جمعه وقدم له: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1960.
61. الرُّعيني، أبو الحسن علي بن محمد، برنامج شيوخ الرُّعيني، حققه: إبراهيم شَبَّوْخ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1962.
62. ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن الزبير، صلة الصلة، مكتبة الخياط، بيروت، 1937.
63. ابن أبي زرع، علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972.
64. ابن أبي زرع، علي بن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية في الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972.
65. الزركلي، خير الدين الزركلي، الأعلام، ط 9، دار العلم للملايين، بيروت، 1990.
66. سبط ابن التعاويذي، ديوان سبط ابن التعاويذي، نسخ وتصحيح د. س. مرجليوث، مطبعة المقتطف، مصر، 1903.
67. السجل الماسي، أبو محمد القاسم بن عبدالعزيز، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، ط 1، تقديم وتحقيق علّال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، 1980.
68. ابن سعيد، علي بن موسى بن سعيد المغربي، اختصار القدر المَعْلَى في التاريخ المَحَلَّى، ط 2، اختصره أبو عبدالله محمد بن خليل، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980.
69. ابن سعيد، علي بن موسى بن سعيد المغربي، رايات المبرزين وغايات المميزين، ط 1، تحقيق: محمد رضوان الدايه، دار طلاس للدراسات، دمشق، 1987.
70. ابن سعيد، علي بن موسى بن سعيد المغربي، المرقصات المطربات، دار حمد ومحيو، بيروت، 1973.
71. ابن سعيد، علي بن موسى بن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ط 2، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، 1964.
72. ابن سعيد، علي بن موسى بن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، القسم الخاص بمصر، قدم له زكي حسن وآخرون، مطبعة فؤاد الأول، مصر، 1953.



73. ابن سعيد، علي بن موسى بن سعيد المغربي، المقتطف من أزاهر الطرف، تحقيق: سيد حنفي حسين، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1983.
74. سليم الحلوه، الموشحات الأندلسية نشأتها وتطورها، قدم له: د. إحسان عباس، مكتبة الحياة، بيروت، 1965.
75. سليمان العطار، الخيال والشعر في تصوف الأندلس، ط1، دار المعارف، مصر، 1981.
76. السيد عبدالعزيز سالم، وأحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993.
77. السيوطي، جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ط2، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، 1979.
78. السيوطي، جلال الدين السيوطي، حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة الموسوعات بمصر، 1321هـ.
79. الشاب الظريف، شمس الدين محمد بن سليمان بن العفيف التلمساني، ديوان الشاب الظريف، تحقيق: شاكر هادي شُكر، مطبعة النجف الأشرف، العراق، 1967.
80. أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي، تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين، ط2، المعروف بالذيل على الروضتين، عني بنشره وصححه، عزت العطار الحسيني، دار الجليل، بيروت، 1974.
81. أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، عني بنشره عزت العطار الحسيني، دار الجليل، بيروت.
82. الشريشي، أبو العباس أحمد بن عبدالمؤمن، شرح مقامات الحريري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، 1976.
83. الشُّشْتُري، علي بن عبدالله النميري أبو الحسن، ديوان أبي الحسن الشُّشْتُري، ط1، تحقيق: د. علي سامي النشار، دار المعارف، الإسكندرية، 1960.
84. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، توشيع التوشيع، ط1، تحقيق ألبير حبيب مطلق، دار الثقافة، بيروت، 1966.

85. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، فض الختام عن التورية والاستخدام، ط1، تحقيق: المحمدي عبدالعزيز الحناوي، دار الطباعة المحمدية، مصر، 1979.
86. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، نكت الهميان في نكت العميان، وقف على طبعه أحمد زكي بك، المطبعة الجمالية بمصر، 1911.
87. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، ط2، باعتناء هلموت ريتز، فرانز شتاينر بفيسبادن، 1962.
88. صلاح الدين المنجد، المشرف في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1963.
89. أبو الصلت، أمية بن عبدالعزيز الداني، الرسالة المصرية، نواذر المخطوطات بتحقيق: عبدالسلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1370هـ/ 1951م.
90. ضياء باشا، الأندلس الذهبية، تعريب: عبدالرحمن ارشيدات، وزارة الثقافة، عمان - الأردن، 1989.
91. طلعت غنام، أضواء على التصوف، عالم الكتب، القاهرة.
92. عادل زيتون، «أضواء على العلاقات التجارية بين السلطنة الأيوبية وجمهورية البندقية»، بحث في مجلة الدراسات التاريخية، جامعة دمشق، سوريا، 1980.
93. ابن عبدالحق، عبدالمؤمن بن عبدالحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجليل، بيروت.
94. عبدالحكي الكتّاني، نظام الحكومة النبوية المسمى «التراتب الإدارية»، دار إحياء التراث، بيروت - لبنان.
95. العبدري، محمد بن علي بن أحمد، رحلة العبدري المسماة «الرحلة المغربية»، تحقيق محمد الفاسي، وزارة الدولة، الرباط، 1968.
96. ابن عبدالسلام، عز الدين أبو محمد، ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام، ط1، تحقيق: محمد شكور، مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن، 1987.
97. عبدالعزيز الأهواني، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار، ط2، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986.

98. ابن العديم، كمال الدين ابن أبي جرادة، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، 1988.
99. ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، عني بنشره أمبروسي هويسي مراندة بمساهمة مع محمد بن تاويت، دار كرياديس للطباعة، تطوان، المغرب، 1960.
100. ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبدالله، أحكام القرآن، تحقيق علي البجاوي، عيسى البابي الحلبي، دار إحياء التراث، القاهرة، 1957-1959.
101. ابن عربي، محمد بن علي محيي الدين، روح القدس في محاسبة النفس، مكتبة عبدالوکیل الدوري، دمشق، 1965.
102. ابن عربي، محمد بن علي محيي الدين، الفتوحات المكية، دار صار، بيروت.
103. عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، دار الشروق، بيروت، ط1، 1983.
104. العزفي السبتي، «الدر المنظم في مولد النبوي المعظم»، مخطوطة نشرها فرناندو في مجلة Al-Andalus De Las Escuelas De Estudios Arabes De Madrid y Granada. Fasc. 1, 1969.
105. ابن عساكر، الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي بدمشق، 1954.
106. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، تحقيق: عبدالعزيز الباز وآخرين، دار الفكر، بيروت.
107. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله، كتاب الصناعتين، ط2، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984.
108. علي أحمد، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، من نهاية القرن الخامس الهجري وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط1، دار طلاس، دمشق، 1989.
109. علي أحمد، الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق العربي منذ نهاية القرن الخامس الهجري وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق، 1980.

110. علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين الخلاج وابن عربي، دار المعارف، القاهرة، 1404هـ.
111. علي سامي النشار، «أبو الحسن الششتري الصوفي الأندلسي الزجال وأثره في العالم الإسلامي»، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، الأول، السنة الأولى، مدريد، 1953.
112. علي سامي النشار، «أبو الحسن الششتري، صوفي أندلسي مجهول»، مجلة الأديب، العدد التاسع، السنة الثالثة، الشام، بيروت، 1944.
113. العماد الأصفهاني الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح: محمد محمود صبح، الدار القومية، القاهرة، 1965.
114. ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط2، دار المسيرة، بيروت، 1979.
115. عمر موسى باشا، قطب العصر عمر اليافي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1993.
116. ابن عُنَيْن، شرف الدين محمد بن نصر الله بن الحسين الأنصاري، ديوان ابن عنين، ط2، تحقيق: خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، 1959.
117. ابن غالب، محمد بن أيوب، «قطعة من فرحة الأنفس» نشرت في مجلة معهد المخطوطات، المجلد الأول، العدد الأول، القاهرة، 1955.
118. الغبريني، أبو العباس أحمد بن عبدالله، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: عادل نويهض، لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت، ط1، 1969.
119. فايد حماد، العلاقات بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي في العصر الأيوبي، دار المعارف بمصر، 1980.
120. أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، القاهرة، 1325هـ.
121. ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، تاريخ ابن الفرات، تحقيق: قسطنطين زريق، جامعة بيروت، 1942.

122. أبو فراس، الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي، ديوان أبي فراس الحمداني، ط2، شرح وتقديم: عباس عبدالساتر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1986.
123. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار وممالك الأمصار (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن) تحقيق: أيمن فؤاد سيد، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1985.
124. فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ط1، الهيئة المصرية للكتاب، الإسكندرية، 1979.
125. ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي، درة الحجال في أسماء الرجال، ط1، المكتبة العتيقة، تونس، ودار التراث، القاهرة، 1971.
126. القرطاجني، أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966.
127. القشتالي، أبو العباس أحمد بن إبراهيم الأزدي، تحفة المغترب ببلاد المغرب لمن له من الإخوان، في كرامات الشيخ أبي مروان، تحقيق وتعليقات: فرناندو دي لاجرانجا، منشورات المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1974.
128. القلصادي، أبو الحسن علي بن محمد، رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1987.
129. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط1، شرح وتعليق محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.
130. كامل مصطفى الشبيبي، ديوان الدّوبيت في الشعر العربي، دار الثقافة، بيروت، 1972.
131. الكتبي، محمد بن شاكر، عيون التواريخ، تحقيق: د. فيصل السامر ونبيلة عبدالمنعم، دار الرشيد للنشر، العراق، 1980.
132. الكتبي، محمد بن شاكر، فوات الوفيات والذيل ليها، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صار، بيروت، 1973-1974.
133. ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي، البداية والنهاية، ط3، دقق أصوله وحققه: أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987.

134. كعب بن زهير، ديوان كعب بن زهير بشرح أبي سعيد السكري، (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب)، القاهرة، 1950.
135. الكلاعي، محمد بن عبدالغفور، إحكام صناعة الكلام، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، 1966.
136. ليفي بروفنسال، أدب الأندلس وتاريخها (سلسلة محاضرات)، ترجمة: محمد شعيرة وعبدالحاميد العبادي، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1951.
137. ابن ماجة، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث، القاهرة، 1975.
138. محمد جابر الأنصاري، التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب في آثار ابن سعيد المغربي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، 1992.
139. محمد حسن آل ياسين، معجم النبات والزراعة، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1986.
140. محمد رضا الشيبني، أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، 1961.
141. محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف بمصر، 1967.
142. محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري، دار المعارف بمصر، 1960.
143. محمد عبدالغني حسن، ابن سعيد المغربي، المؤرخ - الرحالة - الأديب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
144. محمد عبدالله عنان، الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية باللغتين الإسبانية والعربية، مطبعة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1976.
145. محمد عبدالله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ط1، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، 1964.
146. محمد عبدالله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين (دولة الإسلام، العصر الرابع)، ط2، مطبعة مصر، القاهرة، 1958.

147. محمد كرد علي، خطط الشام، ط3، مكتبة النوري، دمشق، 1983.
148. محمد لبيب البتنوني، رحلة الأندلس، ط1، مطبعة الكشكول، القاهرة، 1927.
149. المراكشي، عبدالواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط1، صححه وعلق على حواشيه، محمد سعيد العريان ومحمد العربي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949.
150. المراكشي، محمد بن عبدالملك الأوسي أبو عبدالله، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1965.
151. مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم بشع الإمام محيي الدين النووي، المسمى المنهاج، ط1، تحقيق: الشيخ خليل مأمون شيحان دار المعرفة، بيروت، 1994.
152. ابن المعتز، أبو العباس عبدالله بن محمد، ديون ابن المعتز، تحقيق ودراسة محمد بديع شريف، دار المعارف بمصر، 1977.
153. المقرئ، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968.
154. المقرئ، أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ط2، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، 1956.
155. المقرئ، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف (بالخطط المقرئية)، دار صادر، بيروت.
156. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت.
157. الميداني، أبو الفضل أحمد بن إبراهيم، مجمع الأمثال، ط2، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجليل، بيروت - لبنان، 1987.
158. الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954.
159. نجاة باشا، التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن الهجري، منشورات الجامعة التونسية، 1976.
160. النعيمي، عبدالقادر بن محمد، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، مطبعة الترقى، دمشق، 1948.

161. الهروي، أبو الحسن علي بن أبي بكر، الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: جانين سورديل، المعهد الفرنسي، دمشق، 1953.
162. هشام أبو رميلة، علاقة الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية، ط1، دار الفرقان، عمان، 1984.
163. ابن واصل، محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، وزارة المعارف، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، 1953.
164. ابن واصل، محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1957.
165. ابن واصل، محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: حسنين محمد ربيع، تقديم: سعيد عاشور، دار الكتب، القاهرة، 1972.
166. ابن الوردي، سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ط2، مطبعة البابي الحلبي، مصر، 1939.
167. الونشريسي، أحمد بن يحيى، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرّجه جماعة من الفقهاء بإشراف د. محمد الحججي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.
168. اليافعي، عبدالله بن أسعد اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، 1970.
169. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله، معجم الأدباء، دار إحياء التراث، بيروت.
170. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1955.
171. يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1982.
172. اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد، ذيل مرآة الزمان، ط1، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية بحيدر آباد، الدكن، الهند، 1961.



## المراجع الأجنبية

1. Atkinson William, C.: A History of Spain and Portugal Harmondsworth, Penguin Books, Reprinted 1967.
2. Bertrand Louis: The History of Spain, Printed in Eyre and Spottiswoode, London, First Publisher, 1934.
3. Callaghan, Joseph F.O.: A History of Medieval Spain, First Published by Cornell University, 1975, Forth Printing in United States of America, 1992.
4. Harvey, L.P.: Islamic Spain, 1250-1500, The University of Chicago, and London, 1990.
5. Imamuddin, S.M.: A Political History of Muslim Spain, Dacca-Pakistan, Second Edition, 1969.
6. Imamuddin, S.M.: Economic History of Spainual Ummayyad, Asiatic of Pakistan-Dacca, 1963.

الملاحق

## ملحق رقم (1)

ملحق بتراجم الشعراء الأندلسيين المرتحلين إلى مصر والشام في القرن السابع الهجري مرتبة هجائياً حسب الاسم الأول

1. أحمد بن عبد المؤمن بن عيسى أبو العباس الشريشي، من أهل شريش التقى به ابن الأبار سنة (616هـ) في إشبيلية، ثم ارتحل بعد ذلك إلى المشرق، ثم عاد إلى الأندلس وتوفي بشريش سنة (619هـ)<sup>(1)</sup>.
2. أحمد بن فرح أبو العباس شهاب الدين، أسره الفرنج سنة (646هـ) قدم مصر سنة بضع وخمسين وستائة، وقيل إنه تمذهب للشافعي، سمع بدمشق من ابن عبدالدائم، ومولده سنة (625) بإشبيلية، توفي سنة (699هـ) ودفن بترية أم الصالح بدمشق<sup>(2)</sup>.
3. أحمد بن محمد بن أحمد بن نصر بن المعلّى أبو جعفر المعافري من أهل مالقة، كان حافظاً للقرآن الكريم، ولديه معرفة بأطراف من العلم، فيه ذكاء وفطنة، وعنده حدة في المزاج إذا بحث وناظر مع الفقهاء، التقى به ابن الشعار الموصلي بحلب، وهو يتردد إلى مدرسة بني أبي عصرون فيها<sup>(3)</sup>.
4. أحمد بن محمد بن مُفرّج الإشبيلي، جوال بالبلاد المغربية والمشرقية، كان متعلقاً بالأدب، اشتهر باهتمامه بالنباتات ووقف على أسمائها وصورها بالمشرق، أكثر من وصف دمشق ومحاسنها، عاد إلى إشبيلية توفي بها سنة (631هـ)<sup>(4)</sup>.

(1) المغرب، 1/ 304. النفح، 2/ 115-116 و 3/ 64.

(2) الوافي، 7/ 286. النفح، 2/ 528-531. الشذرات، 5/ 443-444.

(3) عقود الجمان (مخطوط)، 1، ورقة 231-232.

(4) اختصار القدح، 181. الإحاطة 1/ 207-214. النفح، 2/ 596-598.

5. إسماعيل بن محمد بن يوسف الأنصاري الأندلسي الأَبْذِي، الملقب في البلدان المشرقية برهان الدين، سمع بمكة ودمشق وأمَّ بالصخرة المشرقة، كان فاضلاً صالحاً شاعراً، توفي سنة (656هـ)<sup>(1)</sup>.
6. الحسن بن علي، أبو علي ابن عضد الدولة بدر الدين بن هود الجُذامي: مولده سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بمرسية، حج ودخل اليمن وقدم الشام، توفي سنة (699هـ) ودفن بسفح المقطم<sup>(2)</sup>.
7. أبو الحسن الميورقي، من أقارب بعض ملوك المغرب، كان من الفضلاء العلماء الأدباء، له مشاركة جيدة في العلوم ونظم حسن وربما جيء به مع الأسرى الذين أتى بهم الفرنج إلى ساحل الشام بعد احتلال جزيرة ميورقة سنة (627هـ)، توفي سنة (655هـ) ودفن بقاسيون<sup>(3)</sup>.
8. مُحمَّد بن أبي محمد عبدالله بن الحسن بن أحمد بن يحيى أبو بكر الزاهد الأنصاري القرطبي، نزيل مالقة، التقى بالرضي الشاطبي وأنشده من شعره، توفي بمصر سنة (652هـ) ومولده سنة (606هـ)<sup>(4)</sup>.
9. خالص بن أحمد بن خالص بن عبدالله أبو القاسم بن أبي العباس الغافقي الإشبيلي، قدم حلب، كان شاعراً مجيداً مولده بجزيرة شقر سنة (589هـ) أنشد من شعره لابن العديم في القاهرة سنة (641هـ)<sup>(5)</sup>.

(1) الوافي، 9/ 212. النفح، 2/ 15، 16.

(2) الفوات 1/ 345-348. الوافي 2/ 156-158.

(3) الذيل على الروضتين، 159، 195. ذيل المرأة 3/ 84. عيون التواريخ 20/ 119. النجوم الزاهرة 7/ 59. النفح 2/ 662-663.

(4) ابن الآبار: التكملة لكتاب الصلة، عني بنشره وصححه عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة 1956. 2/ 879. الذيل والتكملة 4/ 191. النفح 2/ 378-379.

(5) ابن العديم، كمال الدين بن أبي جرادة: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دمشق 1988، 7/ 3213.

10. سليمان بن أحمد اليُني، من أهل الأندلس، استوطن المشرق، ومدح الملك الكامل<sup>(1)</sup>.
11. عبدالرحمن بن محمد بن عبدالملك بن سعيد، جرى بينه وبين أقاربه ما أوجب خروجه إلى المشرق، زار الديار المصرية إلا الإسكندرية والقاهرة، وزار دمشق وحلب ووصفهما، قتل حين دخل التتار بخارى وهو بها<sup>(2)</sup>.
12. عبدالكريم بن إبراهيم بن عبدالكريم بن عبدالرحمن النيفزي الشاطبي القصّار أبو محمد المراكشي، كان رجلاً جليلاً ذا نعمة واسعة، وثروة ظاهرة، يرحل إلى الملوك ويسترفدهم بأشعاره، لديه فضل ومعرفة باللغة والأدب، له قصائد مطولات، يظهر في شعره التعسف<sup>(3)</sup>.
13. أبو عبدالله ابن العطار القرطبي، شاعر حلّو المنازع ظريف المقاطع والمطالع كما وصفه ابن سعيد المغربي، مطبوع النوادر موصوف بالأديب الشاعر، التقى به ابن سعيد بالإسكندرية<sup>(4)</sup>.
14. عبدالواحد الواعظ الأعمى الإشبيلي، رحل إلى المشرق، واشتهر بحسن الصوت في التحريك والنشيد، واشتهر عنه الكفر والإلحاد، جرت مجاوبات بينه وبين قرينه ابن الصفار الأعمى، مات مخنوقاً سنة (637هـ)<sup>(5)</sup>.
15. عبيد الله بن المظفر بن عبدالله الباهلي الأندلسي أبو الحكم، كان فاضلاً في العلوم الحكيمة، محباً للهو، يعرف صنعة الموسيقى يذكر ابن الشعار أن له ديواناً شعر سماه (نهج الوضاعة) أتى فيه بكل غريب، توفي في مسكنه باللبادين بدمشق سنة (648هـ)<sup>(6)</sup>.

(1) النفح، 2/ 381.

(2) المغرب، 2/ 172. النفح 2/ 370-373.

(3) عقود الجهاد (مخطوط) 5، ورقة 200-203.

(4) القدح 215. النفح 2/ 124-125.

(5) القدح 210.

(6) عيون التواريخ، 20/ 47.

16. عثمان بن الحسين أخو الحافظ أبي الخطاب بن دحية، كان حافظاً للغة العرب ولما عزل الكامل أبا الخطاب عن دار الحديث الكاملية التي أنشأها بين القصرين، رتب مكانه أخاه، ولم يزل بها إلى أن توفي سنة (634هـ) ودفن بسفح المقطم<sup>(1)</sup>.
17. علي بن أبي بكر واسمه عتيق بن محمد بن خلف أبو الحسن الأنصاري، من أهل بلنسية، كانت ولادته سنة (590هـ)، قرأ القرآن وتفقه على مذهب الإمام الشافعي، وسمع الحديث النبوي كثيراً بالأندلس وغيرها من البلاد، وهو رجل يفوق أبناء وقته ديناً وفضلاً وعلماً، قلل من قول الشعر، سكن حلب والتقى به ابن الشعار في مدرسة بني أبي عسرون وهو متصدر لإقراء القرآن العظيم<sup>(2)</sup>.
18. علي بن أحمد بن الحسن بن إبراهيم الحرالي التُّجَيِّي أبو الحسن، كان أول أمره بمراكش، ذهب إلى الأندلس التقى بأبي الحسن ابن خروف، وأبي الحجاج ابن هوى، رحل إلى المشرق والتقى عز الدين بن عبد السلام إمام الديار المصرية، ثم رحل إلى الشام وأقام بحماة وتوفي فيها سنة (637هـ)<sup>(3)</sup>.
19. علي بن أحمد القادسي الكناني، لقيه ابن سعيد في بيت المقدس على زي الفقراء وقد صدر من الحج سنة (643هـ)<sup>(4)</sup>.
20. علي بن أحمد بن محمد أبو الحسن الإشبيلي المعروف بالقسطار، من أهل الحديث والقرآن، أقام بدمشق مدة يسمع الحديث على مشايخها<sup>(5)</sup>.
21. علي بن أحمد بن محمد بن حمدون الحميري الأندلسي، أنشد قصيدة سنة (667هـ) بمصر ورثي فيها العز بن عبد السلام<sup>(6)</sup>.

(1) ذيل الروضتين، 164. وفيات الأعيان، 3/ 450. شذرات الذهب، 5/ 168. النفح، 2/ 94-95.

(2) عقود الجمان (مخطوط)، 5، ورقة 89-90.

(3) عنوان الدراية، 143-155.

(4) القدح، 213. النفح، 2/ 124.

(5) عقود الجمان (مخطوط)، 4، ورقة 390-392.

(6) النفح، 2/ 609-611.

22. علي بن عبدالله الثُميري أبو الحسن الشُّشْتَرِي، عروس الفقهاء وأمير المتجردين، ولد بشتَر من أعمال وادي آش، أخذ عن القاضي محمد بن إبراهيم بن سراقَة، اجتمع بالنجم بن إسرائيل الدمشقي سنة (650هـ) وخدم ابن سبعين، ولما وصل من الشام إلى ساحل دميّاط وهو مريض مرض موته، نزل بقرية الطينة، فقال: حنت الطينة إلى الطينة، وكانت وفاته بدميّا سنة (668هـ) <sup>(1)</sup>.
23. علي بن عبدالله بن يوسف أبو الحسن ابن حمزة القرطبي الأنصاري المعروف بابن العابد، نزل رباط الصاحب الصفي بن شكر وزير الملك العادي بمصر <sup>(2)</sup>.
24. علي بن محمد بن علي بن محمد نظام الدين أبو الحسن، ابن خروف الأندلسي النحوي، حضر من إشبيلية، وكان إماماً في العربية، محققاً مدققاً ماهراً أقرأ النحو بعدة بلاد، قدم بلاد الشام ونزل حلب في أيام الملك غياث الدين غازي وانقطع إليه وامتدحه، وكان من المطبوعين، أقام بحلب وتوفي فيها سنة (609هـ) <sup>(3)</sup>.
25. علي بن محمد بن يوسف بن خروف القرطبي، شاعر مشهور في الغرب والشرق، نشأ في قرطبة، ورحل إلى المشرق، فطبق ذكره الآفاق، وانتشرت محاسنه في الشام، واستقر آخر أمره بحلب، وكانت وفاته في قلعتها سنة (610هـ) <sup>(4)</sup>.

(1) عنوان الدراية، 339-341. الإحاطة، 4/ 205-216. التنبكتي، أبو العباس أحمد بن أحمد: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عباس بن شقرون، القاهرة، 1351هـ، 202-203. النفح، 2/ 185-187.

(2) النفح، 2/ 374.

(3) عقود الجمان (مخطوط) 4، ورقة 410-414. المختصر في أخبار البشر، 3/ 115. الوافي، 22/ 89-93. البهائي، علاء الدين علي بن عبدالله: طالع البدور في منازل السرور، مطبعة دار الوطن، القاهرة، ط1، 1299هـ، 1/ 248. بغية الوعاة، 2/ 203-204.

(4) الغصون البانعة، 138-139. المغرب، 1/ 136-139. الذيل والتكملة ج5/ 1/ 396-399. ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن الزبير: صلة الصلة، مكتبة الخياط، بيروت 1937. 114-115. مسالك الأبصار (مخطوط)، ج11/ 2، ورقة 480-481.

26. علي بن محمد بن يوسف بن عفيف الخزرجي، أبو الحسن ضياء الدين مولده ببيغو<sup>(1)</sup>، رحل عن الأندلس قديماً، واستقر أخيراً بالاسكندرية لقيه ابن رُشيد السبتي فيها غير مرة، وهو صالح حاضر الذهن<sup>(2)</sup>.
27. علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد العنسي المغربي، وُلد بغرناطة سنة (610هـ) ورحل منها فجال مع أبيه في بر الأندلس وبر العدو والغرب الأوسط وإفريقية إلى الإسكندرية، وترك والده في الإسكندرية ورحل إلى القاهرة ثم رحل إلى حلب ودمشق، وكان ارتحاله للمشرق سنة (647هـ) توفي سنة (685هـ)<sup>(3)</sup>.
28. عمر بن الحسن بن علي بن دحية الكلبي، كنى نفسه أبا الخطاب ويعرف بابن الجُمَيْل، الظاهري المذهب، كان من كبار المحدثين، ومن الحفاظ الثقات المحصلين، ارتحل من الأندلس إلى المشرق في دولة بني أيوب، فرفعوا شأنه وقربوا مكانه، وجمعوا له علماء الحديث، وأقرّوا له بالتقدم، وُلد سنة (548هـ) وتوفي سنة (633هـ) ودفن بسفح المقطم<sup>(4)</sup>.
29. عيسى بن سليمان بن عبدالله بن عبد الملك بن محمد الرُّعيني الرُّندي، من أهل مالقة سافر واجتهد وحصل بعد أن طاف قطعة من البلاد، واستقر مقامه بدمشق، توغل في ديار مصر مدة، وأقام مدة ببلاد الشام، ثم كرَّ راجعاً إلى مالقة ووصلها وبقي فيها مدة يسيرة ومات فيها سنة (610هـ) وكانت ولادته سنة (581هـ) بقرية من قرى الأندلس<sup>(5)</sup>.

(1) ببيغو (Priego): مدينة بالأندلس، من عمل غرناطة، الروض المعطار، 122.

(2) ملء العيبة، 3/ 45-49.

(3) المغرب، 2/ 172-173. مسالك الأبصار (مخطوط)، ج 8/ ق 2/ 383-389. الفوات، 3/ 103-106. الوافي، 22/ 253-259. الإحاطة، 4/ 152-158. النفع، 2/ 262 وما بعدها.

(4) عنوان الدراية، 269-272. الوافي، 22/ 451-455. النجوم الزاهرة، 6/ 296. بغية الوعاة، 2/ 99-104. شذرات الذهب، 5/ 160.

(5) عقود الجمان (مخطوط) 5، ورقة 226-230.



30. عيسى بن عبدالله بن محمد بن موسى بن محمد بن عبدالله أبو الروح الحميري التاكرُني، كان شاباً متأدباً فاضلاً، قدم مصر وله شعر حسن، وُلد بتاكرُنا من بلاد الأندلس وهي من نظر قرطبة وتوفي سنة (629هـ) بديار بكر عائداً من آمد<sup>(1)</sup>.
31. الفتح بن موسى بن حماد بن عبدالله بن علي الأموي، المعروف بالقصري، وُلد في رجب سنة (588هـ) بالجزيرة الخضراء من الأندلس، سافر إلى المشرق سنة (607هـ) بعد أن أقام في تونس مدة، توجه إلى الديار المصرية ثم انتقل إلى الشام سنة (611هـ) واشتغل بحماة على سيف الدين الأمدي، توفي سنة (663هـ)<sup>(2)</sup>.
32. قاسم بن أحمد بن موفق بن جعفر، علم الدين أبو محمد المرسي اللورقي، ولد سنة (575هـ)، قدم مصر فقرأ بها على أبي الجود غياث بن فارس سنة (601هـ)، وبدمشق على التاج الكندي، وأقرأ بدمشق ودرس وتوفي سنة (661هـ)<sup>(3)</sup>.
33. أبو المحامد القرطبي (أبو محمد القرطبي)، التقى به ابن سعيد في القاهرة، ولقب بجسر بلييس لأنه أقام فيه زمناً، يكري كل من جاء من الشام أو من سافر إليها، توفي في القاهرة سنة (643هـ)<sup>(4)</sup>.
34. محمد بن إبراهيم بن أمية بن علي بن خلف أبو عبدالله العبدري، من أهل مَيورقة، من حفاظ القرآن العزيز، درس صدرّاً من علم العربية وأتقنه، نزل بحلب واستوطنها يسترزق من الوراقة والنسخ، وذكر أنه ولد سنة (610هـ) وقد التقى به ابن الشعار بحلب سنة (640هـ) وأنشده من شعره<sup>(5)</sup>.

(1) النفح، 2/ 606-609.

(2) عقود الجمان (مخطوط) 5، ورقة 255-259، ذيل مرآة الزمان، 2/ 327-329. عيون التواريخ،

20/ 328. السلوك، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ط2، 1957، ج1/ ق2/ 542.

(3) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، 16/ 234-235. بغية الوعاة، 2/ 250. النفح، 2/ 50.

(4) اختصار القدح، 212. النفح، 2/ 123-124.

(5) عقود الجمان (مخطوط) 7، ورقة 182-184.

35. محمد بن أحمد التَّجَيِّي أبو القاسم، من أهل بَلَش<sup>(1)</sup>، قرأ على ابن مفرج وابن أبي الأحوص، ورحل فاستوطن القاهرة، وكان شيخاً فاضلاً خيراً، له أدب وشعر، توفي بالحسنية خارج القاهرة سنة (695هـ)<sup>(2)</sup>.
36. محمد بن أحمد بن سليمان بن أحمد بن إبراهيم، أبو عبدالله الزهري النحوي حصل طرفاً صالحاً من الأدب، أتى مصر وسمع بها الحديث، ودخل بلاد الشام والجزيرة، وسمع بها ولقي الفضلاء، شرح الإيضاح في النحو، قتله التتار سنة (617هـ)<sup>(3)</sup>.
37. محمد بن أحمد بن الصابوني الصدفي الإشبيلي، من أهل إشبيلية، ارتحل إلى المشرق، وقدم الديار المصرية، وتوفي بالإسكندرية سنة (634هـ)<sup>(4)</sup>.
38. محمد بن أحمد بن محمد بن زكريا المعافري، المقرئ الفرضي الأديب، ولد بالأندلس سنة 591هـ، ونشأ ببلنسية وأقام بالإسكندرية، كانت له يد في الفرائض والعروض<sup>(5)</sup>.
39. محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن سُجْمان البكري الشَّريشي الأندلسي، كان مولده تقديراً سنة (600هـ) سمع الحديث الكثير بالأندلس وديار مصر والحجاز والشام وبغداد، واستظهر القرآن الكريم، وقرأ علم الأدب في العربية على جماعة كثيرة بالأندلس، وقرأ فقه الإمام مالك، التقى بابن الشعار وأنشده من شعره<sup>(6)</sup>.

(1) بَلَش أو بَلَش مألقة Velez Malaga: هي بلدة أندلسية قديمة تقع على بُعد ثلاثين كيلو متراً من شرق مألقة، وعلى بُعد خمسة كيلومترات من البحر المتوسط، يبلغ عدد سكانها اليوم ثلاثين ألف نسمة. الإحاطة، 60/3 من الحاشية.

(2) الوافي، 104/2، النفح 2/212.

(3) الوافي، 104-105. بغية الوعاة، 1/26.

(4) تحفة القادم، ص 230. الفوات، 3/284-285. الوافي، 2/135.

(5) النفح، 2/216.

(6) عقود الجمان (مخطوط) 7، ورقة 152-153. النفح، 2/627.

40. محمد بن سُراقَة بن محمد بن إبراهيم الشاطبي ويكنى أبا القاسم، ولد بشاطبة سنة (592هـ)، قدم الديار المصرية، سمع من ابن شداد بحلب، وتولى مشيخة دار الحديث البهائية فيها، توفي في القاهرة سنة (662هـ) <sup>(1)</sup>.

41. محمد بن سعيد بن محمد بن هشام بن عبدالحق أبو الوليد فخر الدين الكناني الشاطبي المعروف بابن الجنّان. ولد بشاطبة سنة (615هـ)، صحبه ابن سعيد بمصر ودمشق وحلب، وأنشده من شعره، توفي بدمشق ودفن بسفح قاسيون سنة (675هـ) <sup>(2)</sup>.

42. محمد بن عبدالرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن فتوح بن محمد، الحكيم اللخمي ذو الوزارتين ويكنى أبا عبدالله، رندي النشأة، إشبيلي الأصل، رحل إلى الحجاز عام (683هـ) فحجّ وزار وتجول في بلاد المشرق، ودخل دمشق ثم كرّ راجعاً إل المغرب، ومن شيوخه قطب الدين شيخ دار الحديث بالقاهرة. توفي سنة (708هـ) وكان مولده برُنْدَة سنة (660هـ) <sup>(3)</sup>.

43. محمد بن عبدالله بن عبدالله بن مالك الإمام العلامة جمال الدين الطائي الجياني، وُلد سنة (601هـ) أو في التي بعدها، وسمع بدمشق من مكرم وأبي صادق، توفي فيها سنة (672هـ) <sup>(4)</sup>.

44. محمد بن عبدالله بن محمد بن أبي الفضل الإمام الأوحْد شرف الدين أبو عبدالله السلمي المُرسِي، المحدث المفسر النحوي، وُلد بمرسية سنة تسع وستين وقيل سبعين وخمسمائة وحج ودخل العراق وخراسان والشام ومصر، وسمع جماعة

---

(1) المغرب، 2/ 388. ذيل المرأة، 2/ 304-307. عيون التواريخ، 20/ 313. الوافي، 1/ 208-209. النفح، 2/ 63-64.

(2) القدح، 206. المغرب، 2/ 383-384. ذيل المرأة، 3/ 197-203. مسالك الإبصار (مخطوط)، ج 11/ 2/ 489-491. الفوات، 3/ 263-267. بغية الوعاة، 1/ 112. النفح، 2/ 120-123.

(3) الإحاطة، 2/ 444-476. الكتيبة الكامنة، 195. النفح، 2/ 618-619 و 5/ 497-507.

(4) عقود الجمان (مخطوط)، 7، ورقة 133-134. الفوات، 3/ 407-409. الوافي، 3/ 359-363. مرآة الجنان، 4/ 203. بغية الوعاة، 1/ 130-137. النفح، 2/ 222-231.

كثيرة، وقرأ الفقه والأصول، وله نظم ونثر حسن، التقى به ابن الشعار بحلب سنة (637هـ)، توفي بعريش مصر وهو متوجه إلى دمشق، وكانت وفاته سنة (655هـ)<sup>(1)</sup>.

45. محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبدالله الحاتمي، محيي الدين ابن عربي وُلد بمرسية سنة (560هـ) قرأ القرآن على أبي بكر بن خلف بإشبيلية، ارتحل إلى المشرق سنة 598هـ، دخل مصر وأقام بالحجاز ودخل بغداد والموصل، مات بدمشق سنة (638هـ)<sup>(2)</sup>.

46. محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن علي اليَحْصُبي، أبو عبدالله الندلسي، كان خفيف الروح حسن المعاشرة، نزل دمشق وخالط صدورها، وكان يميل إلى البساطة والفقر، ولبس الصوف، له شعر حسن<sup>(3)</sup>.

47. محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن سَلَمَة الأنصاري الغرناطي، قدم المشرق وأنشد من شعره لابن جماعة في القاهرة بعد قدومه من مكة والمدينة، رام العودة للأندلس ولم يتوفر له ذلك، وتوفي بمصر سنة (703هـ) عن نحو خمسين سنة بالبيمارستان المنصوري<sup>(4)</sup>.

48. محمد بن علي بن يحيى بن علي الشامي الأندلسي الغرناطي، قدم مصر حاجاً، وأقام بمكة والمدينة، وكان إماماً فاضلاً عالماً متفتناً في العلوم ما بين فقه وأصول ونحو ولغة وقراءات، مولده بغرناطة سنة (671هـ) وتوفي سنة (715هـ)<sup>(5)</sup>.

---

(1) معجم الأدباء 18/209-211. عقود الجمان (مخطوط) 6، ورقة 240-241. الذيل على الروضتين، 195-196. عيون التواريخ، 20/117-119. الوافي 3/355-356.

(2) مرآة الزمان، ج 8/ق 736. عقود الجمان (مخطوط) 7، ورقة 138-139. الذيل على الروضتين، 170. الذيل والتكملة 6/493-494. عنوان الدراية، 156-158. الفوات 3/436-440. الوافي 4/173-178. الياضي، عبدالله بن أسعد: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت 1970، 4/100-101. البداية والنهاية 13/167. النفح 2/161-169، 173-184. شذرات الذهب 5/190-202.

(3) عقود الجمان (مخطوط) 6، ورقة 3.

(4) النفح، 2/661.

(5) ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1966، 4/214. النفح 2/661-662 و 5/59-60.

49. محمد بن علي بن يوسف بن محمد الأنصاري الشاطبي الأصل، البلنسي المولد سنة (601هـ)، لقبه المشاركة برضي الدين، وتوفي بالقاهرة سنة (684هـ) <sup>(1)</sup>.
50. محمد بن عمر أبو عبدالله الغماري من أهل ميورقة، رأى ابن الشعار من شعره ما مدح به الوزير الكبير مؤيد الدين أبا نصر إبراهيم بن يوسف الشيباني بحلب <sup>(2)</sup>.
51. محمد بن عيسى بن محمد بن ذي النون جمال الدين أبو عبدالله المالقي، من أشياخ أبي حيّان، لقيه ببليس من ديار مصر، كان مولده بهالقنة سنة (617هـ) <sup>(3)</sup>.
52. محمد بن عيسى بن المناصف القرطبي، تفنن في العلوم، ولي أكبر خطط القضاء مثل مُرسية وبلنسية، وهو رقيق الشعر، متين العلوم فيما يتعلق بالأصول والفروع، ولي قضاء سجلماسة، وحج وأقام بمصر قليلاً، وكرّر راجعاً فمات سنة (620هـ) <sup>(4)</sup>.
53. محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان أثير الدين الغرناطي، إمام النحاة بالديار المصرية، وشيخ المحدثين بالمدرسة المنصورية، كان مولده بغرناطة سنة (654هـ)، وخرج إلى المشرق سنة (679هـ) بعد أن تصدّى للتأليف في الرد على أبي جعفر ابن الطباع وتكذيب روايته، لأنه قد نال من ابن الزبير أستاذ أبي حيّان، فرفع أمره إلى السلطان، ونُفذ الأمر بتنكيله، بقي في المشرق إلى حين وفاته في القاهرة سنة (745هـ) <sup>(5)</sup>.
54. موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد أبو عمران ولد سنة (573هـ) ارتحل للمشرق وبقي حتى توفي في الإسكندرية سنة (640هـ) <sup>(6)</sup>.

(1) الوافي، 4/ 190، بغية الوعاة 1/ 194. الشذرات 5/ 389.

(2) عقود الجمان (مخطوط)، 7، ورقة 218. الذيل على الروضتين، 158.

(3) النفح 2/ 44-45.

(4) المغرب 1/ 105-106.

(5) الفوات 4/ 71-79، الصفدي، خليل بن أليك: نكث الهميان في نكث العميان، وقف على طبعة أحد زكي بك، المطبعة الجاهلية بمصر 1911، 280-286. الوافي 5/ 267-281. الإحاطة 3/ 43-60. الكتيبة الكامنة 81-86. حسن المحاضرة 1/ 255. درة الحجال 2/ 122-124. النفح 2/ 535-538.

(6) المغرب 1/ 99. النفح 2/ 333-335، 350-352.

55. يحيى بن سليمان بن شأول، أبو زكريا الحريزي اليهودي، من أهل طُلَيْطِلَة، كان شاعراً قويّ القريحة غزير المادة، له شعر كثير في المدح والمهجاء، كان رديء اللسان خبيث الطوية، ما مدح أحداً إلا وعلا، صنف مصنفات باللسان العبري، منها كتاب المقامات، ومقامة مفردة سماها «الروضة الأنيقة» باللسان العربي، كان قد طاف في البلدان وجال في الأقطار، ثم سكن بأخرة حلب، ولم يزل بها إلى أن مات سنة (622هـ) <sup>(1)</sup>.

56. يحيى بن غانم بن محمد بن علي بن يوسف بن صالح أبو زكريا الخزرجي من أهل غرناطة، كان رجلاً من أهل القراءات والأدب، ويقول شعراً لا بأس به، له قصيدة يمدح فيها صاحب كمال الدين أبا القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة، أنشدها لابن الشعار أبو عبدالله محمد بن يوسف بن محمد الإشبيلي البرزالي بحلب <sup>(2)</sup>.

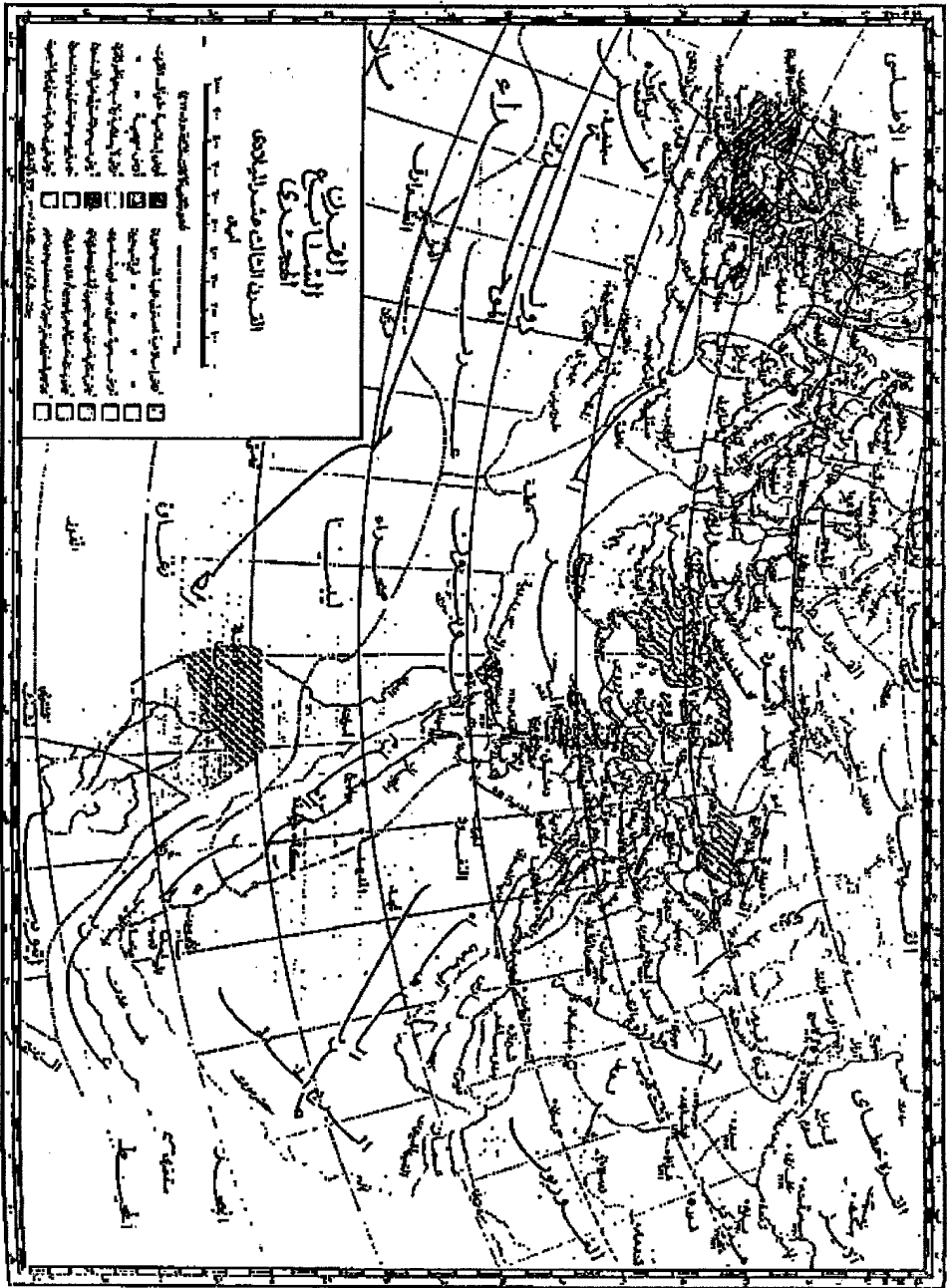
57. يوسف بن عتبة الإشبيلي، مطبوع في الشعر والتوشيح، اجتمع به ابن سعيد في القاهرة مراراً، وكان قد فارق إشبيلية حين تولاهما ابن هود، واضطربت لفتنة الأندلس ناراً، وقدم مصر هارباً من تلك الأحوال، توفي في مارستان القاهرة سنة (636هـ) <sup>(3)</sup>.

(1) عقود الجمان (مخطوط)، 9، ورقة 227-231. النفح 2/ 660.

(2) عقود الجمان (مخطوط)، 10 ورقة، 20-22.

(3) القدح، 161-164. المغرب 1/ 263-264. النفح 2/ 111-112 و 663-664.







ملحق (4)

جدول زمني بالتاريخين الهجري والميلادي للفترة الممتدة (600-700هـ)  
(1203-1300م)<sup>(1)</sup>

السنوات بالتاريخ الميلادي	السنوات بالتاريخ الهجري	السنوات بالتاريخ الميلادي	السنوات بالتاريخ الهجري
1221	618	1203	600
1222	619	1204	601
1223	620	1205	602
1224	621	1206	603
1225	622	1207	604
2 كانون ثاني 1226	623	1208	605
22 كانون أول 1226	624	1209	606
1227	625	1210	607
1228	626	1211	608
1229	627	1212	609
1230	628	1213	610
1231	629	1214	611
1232	630	1215	612
1233	631	1216	613
1234	632	1217	614
1235	633	1218	615
1236	634	1219	616
1237	635	1220	617

(1) مأخوذ عن أكرم حسن العلي: التقويم، مؤسسة المصادر، بيروت، ط1، 1991، ص188-208.

السنوات بالتاريخ الميلادي	السنوات بالتاريخ الهجري	السنوات بالتاريخ الميلادي	السنوات بالتاريخ الهجري
1259	658	1238	636
1260	659	1239	637
1261	660	1240	638
1262	661	1241	639
1263	662	1242	640
1264	663	1243	641
1265	664	1244	642
1266	665	1245	643
1267	666	1246	644
1268	667	1247	645
1269	668	1248	646
1270	669	1249	647
1271	670	1250	648
1272	671	1251	649
1273	672	1252	650
1274	673	1253	651
1275	674	1254	652
1276	675	1255	653
1277	676	1256	654
1278	677	1257	655
1279	678	8 كانون الثاني 1258	656
1280	679	29 كانون أول 1258	657

السنوات بالتاريخ الميلادي	السنوات بالتاريخ الهجري	السنوات بالتاريخ الميلادي	السنوات بالتاريخ الهجري
24 كانون أول 1291	691	1281	680
1292	692	1282	681
1293	693	1283	682
1294	694	1284	683
1295	695	1285	684
1296	696	1286	685
1297	697	1287	686
1298	698	1288	687
1299	699	1289	688
1300	700	1290	689
		4 كانون ثاني 1291	690

## فهرس

5	الإهداء
7	المقدمة
13	مدخل
19	الفصل الأول: الأوضاع العامة في الأندلس ومصر والشام
19	1- الأوضاع العامة في الأندلس
20	الظروف السياسية
27	الظروف الاقتصادية
33	الظروف الاجتماعية
42	2- الأوضاع العامة في مصر والشام
42	الظروف الطبيعية
45	الحج والتقدس وزيارة الأماكن المقدسة في المشرق
51	الظروف السياسية
55	الظروف الاقتصادية والعلمية
55	7- تنوع الزراعات والصناعات واتساع التجارة والثراء
59	2- التقدم العلمي والفكري والمستوى الحضاري
69	الفصل الثاني: موضوعات شعر النازحين
69	علاقة الشعراء بالملوك والولاة وكبار رجال الدولة
76	الغربة والحنين إلى الوطن
88	وصف مدن المشرق والمظاهر الحضارية فيها
	المجالس والمطارحات والمساجلات والمعارضات الأدبية بين الشعراء المرتحلين والشعراء
101	المشاركة

124	..... الزهد والتصوف
130	..... اللهو المجون
136	..... موضوعات متفرقة
147	..... الفصل الثالث: الدراسة الفنية
147	..... الصورة الشعرية
159	..... الفنون البديعية
165	..... الأسلوب واللغة
185	..... بين التأثر والتأثير
201	..... الخاتمة
203	..... المراجع
219	..... الملاحق
221	ملحق بتراجم الشعراء المرتحلين من الأندلس إلى مصر والشام في القرن السابع الهجري ..
233	ملحق الخرائط
235	جدول بالسنوات الهجرية وما يقابلها بالميلادية

د. آمنة البدوي

# شعر النازحين

من الأندلس إلى مصر والشام  
في القرن السابع الهجري  
بين التأثير والتأثير

يكاد الشعور بالغربة يشمل معظم قصائد الأندلسيين في أغراضها المختلفة، في علاقاتهم بالملوك والوزراء والقضاة، وفي علاقاتهم بالمدن والجزر والأنهار في المشرق، وفي مطارحاتهم ومجالسهم. فكل ما يرونه في المشرق يذكرهم بأندلسهم الذي فقدوه، فيقارنون بين أيامهم الماضية في وطنهم، وبين الظروف التي يعانونها في مدن المشرق، فقد أصبحت الغربة هاجساً يسكنهم، يرددون ألفاظها ومعانيها المختلفة في معظم ما يكتبون، أكثرين فيه من الحنين الدائم لفردوسهم الذي فقدوه، وتساءوا عنه.



لقد ارتبطت الغربة بالرحيل القسري الذي باعد بين الأندلسيين ووطنهم، بعد توالي سقوط المدن الأندلسية، وإذا كان الوطن قد انتزع فالشعور بالغربة والألم والشكوى والتحسر على فوات المطالب لا ينفك يلازمهم.

حرص المغاربة أن يعطوا أفضل انطباع عنهم في ديار الغربة، وهذا شأن الغريب في غير وطنه، لقد كانوا أفراداً فاعلين في كافة المجالات في المجتمع المشرقي من خلال دورهم في الحياة العلمية والحضارية.

فقد امتزجت الغربة بنفوس الشعراء المرحلين، فغبروا عنها في كل مواقفهم وجعلوها مبرراً لكل ما يلاقونه من مصاعب في ديار الغربة، ورسموا لها صوراً صادقة تعبر عما في نفوسهم، وصلت حد المبالغة أحياناً، وهذا شأن الغريب.

ISBN 978-6569-07-986-9



9 786569 079880

المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد  
بساتين مطعم الشمس / ص. ب. ٧٧٧٧ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨  
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ • منشوراتها في العام ٢٠٠٩ م  
• الغلاف: علي الحسيني

